الباب الثالث

التربية في العصور الوسطى

الفصل السابع

التربية المسيحية : أصولها وتطورها

مقدمة :

لايوجد إتفاق بين المؤرخين حول تحديد بداية ونهاية العصور الوسطى . فبعضهم يحدد بدايتها بعام ٣٣٠ م . وهو تاريخ تأسيس مدينة القسطنطينية مكان بيزنطة كعاصمة للإمبراطورية الرومانية الشرقية . ويحدد نهايتها بعام ١٤٥٣م . وهو تاريخ سقوط الإمبراطورية الرومانية الشرقية (البيزنطية) للأتراك العثمانيين . وبعضهم يحدد نهايتها بعام ١٤٠٠م .

وقد اعتيد تقسيم هذه الفترة الزمنية التي تمتد على مدى ألف عام إلى قسمين كل منهما حوالي ٥٠٠ عام . وسمي القسم الأول العصور المظلمة (٥٠٠م - ١٠٠٠م) تقريبا . كما سمي القسم الثاني العصور الوسطى الحقيقية أو العصر المدرسي من (١٠٠٠م - ١٤٠٠م) عندما أخذت الحياة الفكرية والثقافية تدب في أوصال أوربا من جديد . وعلى أثر هذه النهضة الجديدة ظهرت الجامعات . ويبدأ عصر النهضة من القرن الرابع عشر وينتهي بنهاية القرن السادس عشر . وتبدأ العصور الحديثة بالقرن السابع عشر تقريبا .

الديانة المسيحية :

جاء دخول المسيحية إلى أوربا منذ ٥٠م أي في فترة مبكرة من تاريخ الإمبراطورية الرومانية . إلا أنها لم تصبح دينا رسميا إلا عام ٣٨٠م .

وكان هذا الدين من أصل شرقي روحي . بل وكان في جوهره معاديا للمادية والعلمانية التي سادت العالم اليوناني الروماني القديم . وهكذا كانت المسيحية مناقضة للنزعة المادية التي كانت سائدة.وجاءت تبشر بالإخاء والمحبة بين الناس.

وكل المعلومات المتوفرة عن المسيح والمسيحية في عصرها الأول تستقى من مصدرين هما : العهد الجديد أو الإنجيل وما كتبه آباء الكنيسة الأوائل والكتاب غير المسيحيين . ومع أن رسالة المسيح كانت واضحة ومعروفة ومن السهل فهمها إلا أن القديس بولص (وكان أحد تلاميذ السيد المسيح) ومن بعده رجال الدين قد عملوا على جعلها نظاما فكريا ودينيا معقدا . وهناك كثير من الاختلافات

حول تعاليم المسيح لاسيما تلك التي تتميز عن تعاليم بولص .

وهناك اتفاق حول عدد من المعتقدات من بينها " أبوة الرب " و " أخوة الإنسان " . وقد ركز آباء المسيحية الأوائل على هذه الفكرة الأخيرة في محاولتهم لجعل المسيحية عقيدة عامة للجميع من يهود أو وثنيين وعبيد أو أحرار .ويقول مؤرخو التربية إن هاتين العقيدتين الأساسيتين لدى المسيح وجدتا منذ ١٤ قرنا قبل الميلاد لدى أخناتون في مصر القديمة وبوذا في الهند وزرادشت في فارس ولدى غيرهم . وقد رفض المسيح المبدأ اليهودي الذي ينادي " العين بالعين والسن بالسن " . وهو مبدأ أقره الإسلام فيما بعد . ودعا المسيح كل الناس إلى المحبة والتسامح : " ومن لطمك على خدك الأيمن أدر له خدك الأيسر " . وأن عليهم أن يحبوا بعضهم بعضا كأبناء رب يحبهم جميعا . وكان هذا هو المبدأ الأخلاقي الأساسي للمسيح . وأما فكرته الاقتصادية الأساسية فتقوم على أساس أن "الثروة أصلها الشر والشيطان " وأن الغنى سيصعب عليه دخول " مملكة السماء ". وما يعنيه المسيح بهذا التعبير " مملكة السماء " أو " مملكة الرب " وأين مكانها كان موضوع نقاش وجدل كبير . بيد أن الكنيسة استقرت على أن ينظر لها على أنها مملكة في العالم الآخر . ومن ثم أصبح لفكرة العالم الآخر نفوذ كبير على العقلية المسيحية شأنها شأن الديانات الأخرى السابقة من القرن الثالث قبل الميلاد . ويقوم جوهر العقيدة المسيحية على الإيمان برب واحد روحي غير متناه كلي الخير والحكمة والقوة . وهو الذي خلق العالم بما فيه وخلق الأرض ليعيش عليها الإنسان . وجعل الكون يعمل وفق قوانين أرادها . وقد وضعت السماء فوق الأرض والجنة والجحيم تحتها لثواب الناس أو عقابهم في الحياة بعد الموت . والله خلق الإنسان وجعل روحه خالدة . كما خلق له عقلا وإرادة حرة يختاربها الحياة الطيبة ويبتعد بها عن الشر . وإذا كانت الروح الخالدة تصل الإنسان بالطبيعة الروحية للرب ، فإن جسده المادي يصله بالعالم الطبيعي الذي يشجعه دائما على الفساد والضعف والخطيئة . وقد حتمت الخطيئة الأولى لآدم باعتباره أبا البشر هو وحواء على كل الجنس البشري أن يكفر عن خطيئته . وقد هيأ الله للإنسان سبيل الخلاص من الخطيئة عن طريق السيد المسيح الذي جاء ليكفر عن هذه الخطيئة . فإذا آمن الإنسان بالسيد المسيح وبتعاليمه خلص ولم يتعرض للعقاب الأبدي في الآخرة . واتحدت روحه مع روح الله . أما إذا لم يؤمن فإنه لن

يخلص ويلقى عذاب الجحيم إلى الأبد . وقد أقام الله الكنيسة على الأرض لتهيئ للإنسان السبيل الذي يساعده على رحلته إلى الخلاص الأبدي . وتنظر المسيحية إلى الدنيا على أنها منفى أو واد للدموع لا سعادة فيه للإنسان . ومن ثم فإن على المسيحي أن يعمل على خزن الكنوز في السماء حيث يفسد السوس والصدأ (إنجيل متى : إصحاح ١٠٦).وهذا يعني احتقار كل ما يربط المسيحي بالحياة الدنيا واحتقار الشهوات والأهواء.وكان جوهر اللاهوت المسيحي في العصور الوسطى هو التطلع إلى الحياة في العالم الآخر والتسامي بالروح عن المادة لكسب الحياة الآخرة .

وعلى الرغم من الخلاف بين المسيحيين الكاثوليك والرومان وغيرهم حول دور المسيح في إنشاء وقيام الكنيسة فقد ظهرت بالفعل كنيسة مسيحية أخذت تنمو وتطرد . ومع هذا النمو والإطراد ظهرت كثير من المعتقدات والأفكار والطقوس والاحتفالات التي كانت غير معروفة في زمن المسيح وزمن القديس بولص .وقد أصبحت المسيحية منذ عام ٣٨٠م الديانة الرسمية الوحيدة للدولة الرومانية وأصبحت الكنيسة هي الدولة .

وكان من المثل العليا المسيحية التي سادت العصور الوسطى الأولى وحدة الجنس البشري . وحلم المفكرون بإمبراطورية مسيحية تعم العالم كله وتحكم بواسطة البابا والإمبراطور كممثلين للرب . ولكن هذا الحلم لم يتحقق وتفككت أوصال الوحدة السياسية والثقافية التي حققتها الإمبراطورية الرومانية . وظهرت المجتمعات المحلية وصحب ذلك أيضا ظهور اللهجات المحلية . وفي القرن العاشر أو الحادي عشر انتشرت الأناجيل باللغات المحلية وإن كان ظهورها بهذه اللهجات كان قبل ذلك .

ومن ناحية أخرى شهدت العصور الوسطى أيضا احتكاكا بين الشرق والغرب، بين المسيحيين الغربيين وبين المسلمين الشرقيين . وقد عمل فتح العرب للأندلس على وصول التعاليم الإسلامية والعربية إلى أوربا . وكان العرب قد حفظوا لأوربا أعمال فلاسفة اليونان ولاسيما أرسطو . وكانوا حملة مشاعل المعرفة لهم. كما أن العلوم العربية في الرياضيات والطبيعة والكيمياء والطب والصيدلة والأحياء والفلك والجغرافيا والتاريخ كلها علوم أفادت أوربا وساعدت على إيقاظ الروح العلمية في عصر الجمود الفكري الأوربي . وقد كان العرب

يعرفون الجراحة " الحجامة " في الوقت الذي كانت فيه أوربا المسيحية تستخدم عظام القديسيين في علاج الأراض وغير ذلك كثير . وكانت اتصالات الغرب أيضا بالعرب والمسلمين من خلال الحروب الصليبية والتجارة بصورة مباشرة إلا أن صلاتهم عن طريق الأندلس كانت أكثر تأثيرا .

معاداة المسيحية للتراث اليوناني والروماني :

منذ العصور الأولى للمسيحية كان هناك صراع بين المسيحية والثقافة اليونانية والرومانية . أو صراع بين ما سمي بالدراسات المقدسة والدراسات العلمانية . وقد حذر بعض كبار المسيحيين من هذه الدراسات العلمانية الوثنية . بل إن أحد المجالس المسيحية قرر سنة ٣٩٨ م تحريم قراءة الكتب العلمانية . وقد قال البابا جريجوري الأكبر (٥٩٠ - ٦٠٤م) إن كلمة الرب لاتحتاج إلى مساعدة النحو أو علم اللغة . وهكذا كانت معاداة المسيحية للكتب العلمانية أو الوثنية . ويقول بعض المؤرخين إن حرق الكتب العلمانية يرجع في أصله إلى حكم الإمبراطور المسيحي ثيودوسيوس الأعظم وأن مكتبة الإسكندرية الشهيرة - كما أشرنا من قبل - قد دمرت بواسطة المتطرفين أو غلاة المسيحية سنة ٣٩١م. (Mulhern : p . 224)

وهذا يرد على بعض الدعاوى المغرضة التي تنسب إلى عمرو بن العاص حرق هذه المكتبة . وتقول المصادر التاريخية أيضا إنه في سنة ٤١٥م إنقضت شرذمة من الرهبان على العالمة المشهورة " هيباشيا " إبنه الفلكي " ثيون " . وكانت أستاذة للطب والرياضيات بجامعة الإسكندرية وجردوها من ثيابها وقادوها مكشوفة العورة إلى كنيسة في الإسكندرية ومزقوها إربا . وكان هذا - كما يذكر المؤرخون - بتحريض من كيرلس بطريق الإسكندرية ، الذي أراد أن يضع حدا للعالم الوثني في مدينته . (LaMonts : p. 200)

ولم تكن الدراسات الأدبية وحدها هي التي عانت من معارضة المسيحية . بل إن العلوم أيضا شهدت تدهورا كبيرا لتعارضها مع بعض المعتقدات الجديدة . فالإعتقاد مثلا بفكرة الخلاص أو خلاص الجسم جعل دراسة التشريح غير دينية . والاعتقاد بأن " الرب " خلق الأرض وأنها ستدمر عما قريب قد حد من الاهتمام بدراسة الجغرافيا والجيولوجيا . وهكذا كانت الفترة حتى نهاية العصور المظلمة "عصر العقيدة " المسيحية بصورة رئيسية . ذلك أن العقل المسيحي أو العقلية المسيحية - كما يقول المؤرخون - تقوم على الاعتقاد والإيمان بهذه العقيدة ، وليس

الإيمان بالعقل أو العلم . فالعقل المسيحي أو العقلية المسيحية في العصور الوسطى تقوم على ما قال به القديس أوغسطين وآباء الكنيسة الأوائل من وضع الإيمان فوق العقل . ذلك « أن الإيمان يجب أن يسبق الفهم ولا يحاول الفرد أن يفهم لكي يؤمن بل يؤمن لكي يفهم . فقوة الأسفار المنزلة أقوى من كل جهود للذكاء البشري » .

هجرة التراث اليوناني والروماني :

كان من نتيجة إضطهاد المسيحية للتراث العلماني اليوناني والروماني أن هاجر هو وعلماؤه بالتدريج إلى بلاد الشرق في فارس وما بين النهرين وسوريا . وقد أدى قرار الإمبراطور جستنيان سنة ٥٢٩م ، بإغلاق المدارس الوثنية في أثينا والإسكندرية إلى هجرة العلماء والفلاسفة من هذه المدارس إلى الشرق حيث ساهموا في قيام حركة علمية هناك .

وقد ترجم هؤلاء العلماء كتب أرسطو وجالينوس وبطليموس وغيرهم من مؤلفي اليونان إلى اللغات الشرقية كالسريانية والكلدانية . واستطاع العرب أن يجدوا منذ فتح سوريا وفارس بعض ذخائر علوم اليونان والرومان التي اضطهدت وحوربت في جميع أنحاء الإمبراطورية الرومانية الشرقية تحت تعصب رجال الدين المسيحيين . ولم ينتصف القرن التاسع الميلادي حتى كانت معظم الكتب اليونانية القديمة في علوم الرياضة والفلك والطب قد ترجمت إلى العربية .

النساطرة * ينشرون التراث اليوناني في الشرق :

ينسب النساطرة إلى " نسطوريوس " بطريق القسطنطينية في الفترة من٤٢٨

---

* النساطرة والسوريون أو السريان أو الفينيقيون هم سكان الشام والجزيرة والعراق . ولهم شأن كبير في نشر العلوم بين الأمم ونقلها من أمة إلى أخرى ،أو من لسان إلى لسان من أقدم أزمنة التاريخ. وهم الذين نشروا أحرف الهجاء في العالم قبل الميلاد ببضعة عشر قرنا فحملوها معهم في أسفارهم التجارية إلى بلاد اليونان والكلدان والأقباط . وهم الذين توسطوا في نقل العلوم والآداب بين المصريين والكلدانيين ثم نقلوها إلى اليونان القدماء . . وكانوا يدرسون اللغات اليونانية والقبطية والبابلية وغيرها من لغات ممالك الأمم المتمدنة في تلك العصور كما تدرس اليوم الإنجليزية والفرنسية وغيرها من لغات ممالك التمدن الجديدة لنقل العلم أو الاتجار أو الانتفاع من الخدمة في مصالح تلك الدول (جرجي زيدان ، جـ ٣ ، ص ص ١٦٧ - ١٦٨) .

إلى ٤٣١م . وهو سرياني الأصل ، ولذا يعرف النساطرة أيضا بالسريان ، وقد تلقى تعليمه في أنطاكية . وقد جر عليه غضب رجال الكنيسة عندما قال إنه لاينبغي لأحد أن يدعو مريم أم الله . ذلك لأنها ليست سوى إمرأة . والله لايمكن أن تلده إمرأة من البشر . وبهذا جر على نفسه غضب رجال الكنيسة الذين يؤمنون بعبادة مريم . واضطهدوه هو وأتباعه . وقد عاش هؤلاء النساطرة في الشام وفارس وقاموا بإحياء علوم اليونان في الشرق . وقاموا بترجمتها من اليونانية إلى العربية . وكان هؤلاء ا لنساطرة السريان في دولة الفرس الساسانية الواسطة الكبرى في نقل علوم اليونان وطبهم وفلسفتهم إلى اللسان الفارسي . ولما ظهر الإسلام وأراد الخلفاء المسلمون نقل علوم اليونان وغيرهم إلى العربية كان السريان أوالنساطرة ساعدهم الأقوى في نقلها من اللغات المعروفة في ذلك العهد (المرجع السابق) .

ومن المعروف أن الطبيب النسطوري حنين بن اسحاق (٨٠٩ - ٨٧٣م) كان على رأس المترجمين في بيت الحكمة الذي أنشأه المأمون في بغداد سنة ٨٣٠م . ويقول حنين عن نفسه إنه ترجم وحده إلى اللغة السريانية مائة رسالة من رسائل جالينوس وإلى اللغة العربية ٣٩ رسالة أخرى . وإلى جانب ذلك ترجم حنين العديد من الأعمال اليونانية الأخرى منها كتب أرسطو "المقولات " و " الطبيعة " و " الأخلاق " . ومنها كتاب أفلاطون : " الجمهورية " و " القوانين " . ومنها عهد "أبقراط" وكتاب " الأقرباذين " لديوسقريدس " وكتاب " الأربعة " لبطليموس . وترجم العهد القديم من اليونانية . بل إن المأمون كاد أن يفلس بيت المال حين كافأ حنينا على أعماله هذه بمثل وزن الكتب ذهبا . وهو النظام الذي كان معمولا به لدى المأمون (ديورانت : جـ ١٣ ، ص ١٧٨) .

وكان للنساطرة أو السريان فيما بين النهرين نحو خمسين مدرسة تعلم فيها العلوم بالسريانية واليونانية أشهرها مدرسة " الرها " التي أنشئت سنة ٤٣١م . وظلت حتى سنة ٤٨٩م منهلا تنتشر منه معرفة اليونان في المشرق . واشتهرت مدرسة قنسرين على الفرات (القرن السابع الميلادي) بتعليم فلسفة اليونان باللغة اليونانية (جرجي زيدان : جـ ٣ ، ص ١٥٠) . ولما هدم "زنون " الإيزوري مدرسة الرها لاتهام أساتذتها بالهرطقة فر هؤلاء الأساتذة النسطوريون إلى فارس. فتقبلهم " آل ساسان " بقبول حسن وأسسوا مدرسة في "جنديسابور "

الفارسية . ثم إنضم إليهم فلاسفة المدرسة الأفلاطونية بأثينا وفلاسفة مدارس الإسكندرية التي أغلقها "جستنيان" .

وكان النساطرة يعمدون إلى الفلسفة اليونانية والهلينية ينتقون منها الأقوال التي تساعدهم على بث أفكارهم المسيحية في آسيا وبلاد العرب من خلال نشاطهم الفكري والتعليمي في بلاد فارس حيث كان الفرس يحمونهم .ولما وقعت " جنديسابور" في القرن السابع في قبضة العرب لقي النساطرة تسامحا كبيرا وتشجيعا من الحكام المسلمين . وكان منهم كثير من الأطباء والعلماء والتراجمة الذين استخدمهم العرب في نقل العلوم اليونانية إلى العربية كما أشرنا .

الكنيسة والإقطاع والعبيد :

كان المجتمع الأوربي في العصور الوسطى مجتمعا إقطاعيا يتكون من الأحرار ورقيق الأرض أو العبيد . وكان الأحرار يشملون الأعيان ورجال الدين وأصحاب المهن والحرف والفلاحين الذين يملكون أرضا أو ليست لهم حاجة عند إقطاعي .

وكانت الكنيسة تبارك نظام الرق أو العبيد . وكان القديس " توماس الأكويني " يفسر الرق بأنه نتيجة لخطيئة آدم . وأنه وسيلة اقتصادية في عالم يجب أن يكدح فيه بعض الناس ليمكنوا بعضهم الآخر من الدفاع عنهم . وهو ما يتفق مع ما ذهب إليه أرسطو من أن بعض الناس ولدوا عبيدا . وكان ذلك ملائما لروح العصر . وقد حرمت الكنيسة على العبيد أن يكونا قساوسة أو أن يتزوجوا من المسيحيات الحرائر . وظل الرق قائما في أراضي الكنيسة وضياع البابوات حتى القرن الحادي عشر . وكان العبيد يعتبرون من أملاك الكنيسة .

وضع المرأة في المسيحية :

ورثت المسيحية تقاليدا مختلفة تتعلق بوضع المرأة وطبيعتها ومكانتها . وحتى نهاية القرن الثامن الميلادي كانت المرأة الأوربية تعتبرملكا لزوجها . وكان يمكن أن يبيعها . وقد أمر القديس بولص المرأة بطاعة زوجها وأن تغطي رأسها في الكنيسة . وقد نظر كثير من رجال الدين المسيحي إلى المرأة على أنها فخ نصبه الشيطان لتدمير الروح . ومع هذا كان ينظر إلى المرأة على أنها مساوية للرجل في الناحية الروحية والدينية . كما اهتمت المسيحية بقدسية الزواج .

وساعد تقديس " العذراء مريم " على رفع الروح المعنوية للمرأة ورفع مكانتها ومساواتها بالرجل في الناحية الدينية . وقد عمل الإقطاع على تحرير المرأة وخروجها للعمل . وفي العصور الوسطى كان بعض ميادين الطب مفتوحة أمامها لاسيما في التمريض. ومع هذا تأخر دخول المرأة إلى الحياة العامة في أوربا المسيحية . وعلى كل حال فقد كان ينظر إلى المرأة نظريا وعمليا على أنها مختلفة عن الرجل اجتماعيا ومعنويا وعقليا . وكانت في كل هذه النواحي في مكانة أقل . وقال القديس توماس الإكويني إن المرأة بحكم ضعفها الطبيعي خاضعة للرجل وأن الأولاد يجب أن يحبوا آباءهم أكثر من أمهاتهم . وقد عملت هذه الأوضاع على كبت المرأة . ولذلك نجد أن العصور الوسطى لم تنتج أي أمرأة ذات عظمة عقلية أو اشتهرت بعقليتها الكبيرة .

أهداف التربية المسيحية :

شهدت التربية المسيحية عدة تطورات على مر العصور . ففي العصور الأولى إبان تحول الإمبراطورية الرومانية العلمانية إلى دولة مسيحية بدأ المثل الأعلى التربوي المسيحي للموت والخلود يحل محل المثل الأعلى التربوي اليوناني الروماني الذي يتمثل في التربية من أجل الفرد ومن أجل الحياة . وكان اهتمام المسيحية منصبا على معرفة الرب . فمعرفة الرب خير من معرفة الدنيا . وكانت كل المعرفة في العصور الوسطى تتجه نحو هذا الهدف وهو معرفة الرب وخدمته . وهكذا اهتمت التربية المسيحية بتربية " خادم الرب " التي حلت محل تربية " المواطن الحر " في المجتمع اليوناني والروماني . وعولت التربية المسيحية اهتماما كبيرا على التربية الروحية والخلقية . كما أن العمل اليدوي والتدريب عليه أعتبر نظاما للتربية المعنوية يحفظ الفرد من الذنوب .

وقد استطاعت المسيحية أن تضع نظاما للمبادئ والقيم وإن لم يكن مسيحيا خالصا . وإنما جسد آمال المسيحيين والتربية المسيحية لقرون عديدة . ومن أهم هذه المثل العليا :

١ - الإيمان بالعالم الآخر .

٢ - تأكيد القيمة العليا للأمور الروحية .

٣ - احترام وتقديس العمل .

٤ - وحدة الجنس البشري .

٥ - تساوي الناس في الناحية الروحية .

٦ - الاعتقاد بأن الله خلق الإنسان لعبادته ولخدمة نفسه وروحه وأصدقائه وزملائه .

وقد جسدت هذه القيم المطالب التربوية العليا المسيحية التي يلتزم بها الفرد. لكن كان ذلك من الناحية النظرية أما الناحية العملية فكان شيئا آخر . فقد كان العقل المسيحي في العصور الوسطى مقهورا مليئا بالخوف والإيمان بالخرافات .

السمات العامة للتربية في العصور الوسطى :

كانت هناك سمات بارزة تميزت بها التربية في العصور الوسطى . من أهم هذه السمات ما يأتي :

١ - الرهبنة :

تجسمت النزعات المسيحية الخاصة بالحياة الآخرة في حركة الرهبنة التي دفعت ملايين المسيحيين رجالا ونساء إلى الهروب من الدنيا إلى عالم الأديرة حيث يقضون حياتهم طمعا في الحياة الآخرة . وقد كانت الرهبنة معروفة في الديانات الشرقية واليونانية قبل المسيحية بقرون ، وقبل أن يهرب الرهبان المسيحيون إلى صحاري مصر و سوريا في القرن الثالث الميلادي .

وكان الهدف الأول للرهبنة كبح كل رغبات الجسم ومطالبه . وتقاس فضيلة الراهب بمدى قدرته على عقاب الجسم وإجهاده بالصوم عن الطعام أو تناول النذر اليسير منه وإجهاد الجسم بالعمل دون إعطائه القدر الكافي من الراحة وإرتداء ملابس خشنة ، وغير ذلك من الأمور التي تشقى الجسد حتى تسمو الروح . أما الهدف الثاني للرهبنة فكان يتمثل في نبذ الدنيا وهجرها بكل متاعها ومتعها. فليست هناك سعادة في العالم الدنيوي الذي لايخرج عن كونه منفى أو "واديا للدموع " . وكان هناك ثلاث صور للرهبنة هي :

١ - الرهبنة ذات الطابع الديني : وهي شرقية غالبا .

٢ - الرهبنة ذات الطابع الأخلاقي وهي يونانية غالبا مع تأثير شرقي .

٣ - الرهبنة ذات الطابع الفلسفي : وهي يونانية رومانية في الغالب ، وقد

وصلت إلى قمة التعبير عن نفسها في الأفلاطونية الحديثة * التي كان لها أيضا طابع شرقي .

ومع أن الرهبنة المسيحية قد تأثرت بكل هذه الاتجاهات الثلاثة إلا أنها كانت دينية في معظمها . وخلال قرن من الزمان انتشرت هذه الحركة في الشرق والغرب المسيحي . ونمت الأديرة للراهبين والراهبات في جميع أنحاء الإمبراطورية الرومانية شرقا وغربا . وفي المناطق الزراعية الغربية كان الدير أهم مركز لتحويل الفلاحين إلى مسيحيين . وظل حتى القرن التاسع أهم مركز تربوي . وكان للرهبان الأيرلنديين تأثير هام في الجهود التبشيرية والتربوية في القارة الأوروبية والجزر البريطانية على السواء .

وقد عرف الغرب الرهبنة في نهاية القرن الرابع الميلادي . وكان الرهبان هنا أيضا يقسون على أنفسهم ويضعون لحياتهم شروطا قاسية . وأشهر الأديرة دير القديس " بنيديكت " St. Benedict الذي بنى سنة ٥٢٩م. في " مونت كازينو " قرب " نابولي " في جنوب إيطاليا . وأصبح نموذجا يحتذى لآلاف الأديرة في بنائه ونظامه .

وقد تضمن قانون بنيديكت ٧٣ مادة تنظم الحياة في الدير والمناشط اليومية لأعضائه . وقد حدد هذا القانون ثلاثة إلتزامات للرهبنة هي : العفة والفقر ، والطاعة . وتتضمن العفة نبذ العلاقة الزوجية والأسرية واستبدالها بروابط دينية روحية . ويتضمن الفقر التخلي عن الاهتمامات المادية والدنيوية وعلى الفرد قبل

---

* هي في أساسها فلسفة أفلاطون لكن مع إكسابها طابعا شرقيا . ويقال إن مؤسسها أمونيوس سكاس (مات ٢٤٢م) أحد فلاسفة مدرسة الإسكندرية القديمة وكان حمالا في أول أمره . وقد نقحها وعدلها تلميذه أفلوطين وغيره من الفلاسفة . وأفلوطين (٢٠٠ - ٢٧٠م) هو أحد فلاسفة مصر القدماء ولد في ليكوبوليس (أسيوط حاليا) . وله شهرة خاصة في ارتباطه بالأفلاطونية الحديثة لدرجة يوصف معها بأنه مؤسسها الحقيقي . ولأفلوطين مذهب في الحب يعرف بالحب الأفلاطوني وهو حب روحاني لا تخالطه رغبات جنسية أو مادية ومنزه عن الغرض النفعي . وقد تأثر المذهب الصوفي عند المسلمين بهذه الفلسفة الأفلاطونية الحديثة التي تسمى أيضا بمدرسة الأسكندرانيين نسبة إلى مؤسيسها . ولأنها ظهرت في الإسكندرية في العصور الأولى للمسيح . وقد قام السريانيون بنشر تعاليمها في العراق وما حوله في الرها ونصيبين وحران .

دخوله الدير أن يتخلى عن كل ثروته وأملاكه للدير . وتتضمن الطاعة التخلي عن كل قوة أوجاه أو سلطان والخضوع التام لنظام الدير .

ووفقا لقانون بنيديكت فإن الكسل هو العدو الأكبر للنفس . ولذلك ينبغي على الرهبان أن يشغلوا أنفسهم وأوقاتهم دائما سواء بالأعمال اليدوية التي خصص لها القانون سبع ساعات يوميا أو بقراءة النصوص المقدسة ونسخها وكتابتها لمدة ساعتين يوميا . ونتيجة لذلك ظهر من بين الرهبان صناع مهرة في مختف الحرف فكان منهم الفلاحون الماهرون في فلاحة الأرض وزراعة البساتين . أما أديرة النساء فكانت تعمل في ظل قوانين مماثلة . فكان العمل اليدوي يشمل عمل أستار الكنيسة وتطريزها .

وكانت التربية في الأديرة تستهدف تحقيق الهدف المسيحي وهو خلاص الروح كما كانت تتطلب عملا جسميا شاقا . وكان منهج الدراسة بها يتضمن الفنون السبعة الحرة . واحتفظ الرهبان داخل الأديرة بالفكر اليوناني والروماني عن طريق نسخ النصوص . بل لقد احتفظ بعضهم بسجلات خطية تفصيلية عن دراساتهم . كما ألفوا عن حياة القديسين وكتبوا المدائح وما إلى ذلك . ولقد تحتم على كثير من الرهبان تعلم القراءة والكتابة والحساب لا من أجل المحافظة على التقويم الديني للأيام المقدسة فحسب ولكن أيضا من أجل ضبط عمليات الفلاحة في الأديرة ذات المساحات الشاسعة التي كانت تزرع بطرق حاذقة . أما خارج الأديرة فقد كانت هناك معاملات كثيرة تتطلب مهارات كتابية يقوم بها غالبا رجال الدين .

وقد ارتبطت الرهبنة من جانب آخر بطبيعة النظرة إلى الإنسان نظرة ثنائية على أنه تكون من جسم وروح ، وأن الجسم ما هو إلا وعاء مملوء بالذنب تسكنه الروح ، وأن الجسم بحكم طبعه الشرير المادي يمكنه أن يفسد الروح ما لم تكبح جوانح ونوازع الشر فيه بالنظام والتأديب . وسادت النظرة أيضا بأن على الأباء أن يهذبوا حواس أطفالهم وأن يملأوا عقولهم بفكرة الموت . أي أن تظل فكرة الموت مستحوذة على عقولهم . وسادت التربية طريقة الحفظ والتلقين وتحريم النقاش أو إبداء الرأي واستخدام العقاب البدني لفرض النظام .

الحركة المدرسية Scholasticism :

كانت المشكلة الرئيسية الفكرية في العصور الوسطى هي محاولة التوفيق بين القيم الدينية الرئيسية للكنيسة مع الأمور الدنيوية المختلفة من كل جوانبها . وكانت فكرة المجتمع المسيحي العالمي فكرة قوية ، أي تكوين مجتمع يجمع الدنيا كلها .

وقد شهدت العصور الوسطى محاولات للتوفيق الفكري بين تعاليم الإنجيل وآباء الكنيسة وبين التراث المعرفي والفكري لليونان والرومان . وقد كانت هذه المحاولة معادلة صعبة ترتب عليها في بعض الأحيان أن نسبت الصفات المسيحية إلى بعض أفكار أفلاطون وأرسطو وشيشرون وفيرجيل . وترك غيرها من الأفكار الأخرى . وقد أدت المحاولات الفكرية والعقلية للتوفيق بين ما يراه الفكر الإنساني الدنيوي وما تقوله العقيدة إلى احتدامات كبيرة وعنيفة في أواخر العصور الوسطى حتي أخذت شكل " الحركة المدرسية " . وكانت هذه الحركة عقيمة وجامدة في أول الأمر مما جعل مؤرخي التربية يعتبرونها من العوامل التي عاقت التقدم وأخرت ظهور النهضة والحركة العلمية .

وعلى كل حال ظل هناك اتجاهان أحدهما يغلب التسليم بالعقيدة والآخر يغلب التسليم بالفكر والعقل . وظل الأمر هكذا حتى القرن الثالث عشر عندما استطاع توماس الإكويني أن يوجد توازنا بين هذين الاتجاهين . وهو يعتبر أكبر الموفقين في هذا السبيل . والواقع أن كلمة " الحركة المدرسية " تستخدم بعدة معان مختلفة . ففي بعض الأحيان تستخدم ليشار بها إلى مجموعة كاملة من الأفكار والكتابات للمدرسين School Men في العصور الوسطى ويرتبط بهذا المعنى كلمة Scholasticus وهو الشخص الذي أصبح معلما في مدارس الكاتدرائية أو الجامعات .

أما الحركة المدرسية كطريقة للتفكير فهي ترتبط بالمنطق الإستقرائي الأرسطي كما فسره دارسو أواخر القرون الوسطى . ويقصد بها بصورة عامة طريقة دراسة القضايا الدينية والأكاديمية مع الاستعانة بالنصوص لشرحها والتعليق عليها والمقارنة بينها والوصول منها إلى القواعد والخلاصات المقبولة . وهكذا كانت الحركة المدرسية تستهدف تعضيد ومساندة الأفكار المسيحية بالأدلة المنطقية . وفي القرن الثالث عشر دعا بعض المفكرين من أمثال " روجر بيكون " (١٢١٤ -

١٢٩٤م .) إلى استخدام الطريقة التجريبية أو الأسلوب التجريبي في البحث العلمي . وكان ذلك إيذانا بعصر جديد في التفكير الإنساني .

٣ - تربية الفرسان :

تميزت القرون الوسطى بالفروسية . وقد نشأت في القرن العاشر وبلغت ذورتها في القرن الثالث عشر . ثم لفظت أنفاسها في وسط الحروب الدينية . وكانت تعتبر النظام الاجتماعي والأخلاقي للنبلاء الإقطاعيين . بيد أن الفروسية كانت مثلا أعلى أكثر من كونها ممارسة . ومثلها الأعلى يتمثل في عبارة موجزة هي " الموت دون الشرف " أو " الدفاع عن الشرف حتى الموت " . وكانت هذه القاعدة تطبق عادة في مواقف الدين أو الحرب أو الحب . فقد تطلبت قواعد الفروسية أو نظامها من الفارس أن يخدم " مولاه " و " سيدته " وفقا لنظام سلوكي معين .ولاينطبق هذا النظام إلا على الأشراف وطبقة النبلاء والذين من دمهم . وقد خلق نظام تربوي لتعليم الفرسان وتربية " الرجل المهذب " . وكانت أهم الفضائل التي يجب أن يتحلى بها الفارس هي التأديب والشرف والإخلاص والتقدير والشجاعة والتلطف والتحرر واحترام المرأة والإيمان والتقوى . وكان على الفارس مثله مثل الراهب أن يقسم اليمين على أن يخاف الله ويخشاه ويعبده وأن يراعيه وأن يحمي حقوق الأرامل والضعفاء ومن لا حول له وأن يحمي الكنيسة . ولكن هذه المثل العليا كانت من الناحية النظرية فقط وقلما كان يتمسك بها الفارس في حياته العملية .

وكان الفارس يمر من خلال تربيته وتعليمه في نظام قاس طويل يتدرب فيه على التمارين الرياضية والألعاب الشاقة واستخدام أسلحة الحرب والمبارزة . وكان يتحتم عليه تعلم ركوب الخيل والقتال راكبا ومترجلا . والتدريب على تمارين بدنية تضارع ما كان موجودا في إسبرطة في القرنين السادس والخامس ق. م. وبالرغم من تكريس أغلب وقت الفرسان في تعلم فن الحرب فقد كان فلسفة التعليم الإقطاعي مرتكزة على المثل العليا ألا وهو " الأخوة " وتعني الأخوة لدى الأرستقراطيين حرفيا معاونة الأخوة ممن يسيرون في مشارب واحدة .

ويتحتم على الشاب المتعلم في سن العشرين - كما نرى في مقدمة "تشوسر" لروايات "كانتربري" - أن يكون قد خدم كمعاون حتى سن الرابعة عشرة . وتعنى بشئونه خلال تلك السنوات سيدات البلاط . فقد كان منتظرا أن يتعلم الأخلاق

الحميدة ، أي الصفات النبيلة الواجبة في الرجل المهذب أو النبيل كالغناء . والقراءة والكتابة والحساب . ولقد شجع البلاط الإقطاعي المنشددين المتجولين على التأليف ونظم الشعر وكذلك الموسيقى لما لها من أثر تهذيبي .وهكذا تم إدخال الموسيقى والأدب الشعبي في المجتمع الإقطاعي فضلا عن الألحان والأغاني الكنسية . وقد استمر الفن والموسيقى الشعبية في أوربا خلال العصور الوسطى بسبب طلب البلاط الإقطاعي للمتعة .

لقد ذخر القرنان الثاني عشر والثالث عشر بالشعراء المتجولين في بلاط الأرستقراطيين الفرنسيين وبالشعراء الغنائيين غير الأرستقراطيين الفرنسيين والألمان حتى يتسنى مساعدة سيدات البلاط في تعليم الصبية والفتيات أساليب المعاملة في البلاط . ووجد عدد من كتب التأديب والتهذيب . وفي حوالي عام ١٢٦٦م نشر " فينست " كتابه : " في تعليم بنات النبلاء " . ولقد كان الإنجليز من المتحمسين لتعليم أحوال التأديب وأدب البلاط . وكان لديهم كتب لذلك مثل " كتاب الطفل " و " الصبي الجالس إلى المائدة " و في " الطباع التي تصل بالمرء إلى الشرف والرفاهية و " تعلم أو إبق وصنعا " .

وكان هناك " أدب الأمثلة " . وله أثر مثلما كان للملاحم الهوميرية . ووضع هذا الكتاب من أجل الأطفال الأكبر سنا وللصبيان على وجه الخصوص . ومن الأمور ذات القدر العظيم في دوائر الإقطاع في العصر الوسيط ظهور أغنية رولاند " في فرنسا " . أما في إنجلترا فكان هناك " تاريخ الملوك البريطانيين " لمؤلفه " جفري مومنموث " .

وعندما يخرج الصبي من نطاق رعاية السيدات له ويبدأ في تعليم واجباته ألا وهو النزال من فوق صهوة الجواد ينبغي أن يعلمه الأوصياء عليه وولاة أمره من الذكور - وهم عادة أبوه وأعمامه - كتابا دراسيا كالذي ألفه " كريستي بيزا" (١٣٦٤ - ١٤٢٩ م) " حرب الأسلحة والفروسية".إذ ينبغي قراءة هذا الكتاب أو غيره خلال فترة الخمس سنوات من مرحلة " السيادة " السابقة لمرحلة " الفروسية " التي يصلها في سن الحادية والعشرين . وكان الاستقبال في أخوة الفرسان أكبر الاحتفالات الإقطاعية . فكان يقام احتفال له مراسيم خاصة تبدأ بالاستحمام رمزا للتطهر الجسمي . ولهذا يسمى هؤلاء الفرسان بفرسان " الحمام" تمييزا لهم عن فرسان السيف الذين يحملون اللقب إذا أثبتوا جدارة في المبارزة بالسيف .

وبعد الاستحمام والتطهير الجسمي يقوم الفارس بالاعتراف بالذنب للقسيس. وذلك رمزا للتطهر الروحي . وكان الفارس يرتدي في الاحتفال قميصا أبيض يمثل ما يجب أن يكون عليه من نقاوة النفس والخلق . ومن فوق القميص رداء أحمر رمزا للدم يسفكه في سبيل الله أو الشرف . كما كان يرتدي معطفا أسود رمزا للموت الذي يجب أن يكون مستعدا لملاقاته . وبعد أداء المراسم الكنيسية من صلاة واعتراف بالذنب وحضور مراسم القداس والاستماع إلى العظات المتصلة بواجبات الفارس يتقدم إلى " المذبح " حيث يباركه القس . وتستكمل مراسيم ال الاحتفال ويمنح في النهاية لقب " فارس " . ثم يتسلم خوذة وجوادا وحربة . فيحكم الأولى على رأسه ويقفز فوق ظهر الجواد ويهز حربته ويلوح بسيفه ويخرج من الكنيسة راكبا . ثم يوزع الهدايا على الخدم ويقيم وليمة للأصدقاء . ويخرج الفارس إلى الدنيا كجندي مسيحي . لكنه كان في الواقع جندي أكثر منه مسيحيا . وقد أصبحت الفروسية سمة لمجموعة اجتماعية خاصة .

وكان على الفارس أن يقسم أن يكون صادقا في القول ، وأن يدافع عن الدين ويحمي الفقراء والمساكين ،وينشر لواء السلم في ولايته ، ويقاتل الكفرة ، وأن يدين لسيده الإقطاعي بولاء يربطه به أكثر من ارتباط الآباء بحب الأبناء ، ويتعهد أن يكون حارسا للنساء مدافعا عن عفتهن ، وأن يكون أخا لجميع الفرسان يبادلهم المجاملة وضروب المساعدة . وقد يحدث في إبان الحروب أن يقاتل الفارس غيره من الفرسان . فإذا أسر واحد منهم عامله معاملة الضيف . (ديورانت : جـ ١٤ ، ص ٤٤٧) .

وقد كانت تربية الفرسان تربية للنبلاء استهدفت غرس مبادئ الحب والحرب والدين .كما أنها اهتمت بما أهملته الجامعات آنذاك من تربية الجسم . وكانت الفروسية إلهاما وغذاء لنهضة الآداب المحلية التي وجدت في تربية الفرسان موضوعات كثيرة لها .

لقد تركت الفروسية آثارها البارزة في أوربا أثناء العصور الوسطى والعصر الحديث من النواحي الاجتماعية والتربوية والخلقية والأدبية والفنية واللغوية . وجمعت المدارس مثل " إبتون " و " هارو " و " تشستر " في انجلترا بين المثل الأعلى للفروسية والتربية الحرة في جهودها الناجحة في تاريخ التربية لتربية العقل وتقوية الإرادة وتقويم الخلق .

وإذا كان الفارس يتعلم الآداب والشهامة والمروءة في حاشية النبيل أو الملك فقد كان ينقل بعض هذه الصفات إلى من هم دونه من أفراد الطبقات الاجتماعية الأخرى . وليست المجاملات والرقة في الوقت الحاضر إلا مزيجا مخففا من فروسية العصور الوسطى المركزة . ولقد إزدهر الأدب الأوربي ابتداء من أغنية "رولاند" إلى "دون كيشوت" لأنه أخذ يصف أخلاق الفرسان وموضوع الفروسية. وكان نظام الفروسية من العناصر الفعالة في الحركة الأدبية الإبداعية .ومهما يكن في آداب الفروسية الخلقية من إسفاف وسخافات ، ومهما كان الفرق كبيرا بين حقيقتها العملية ومثلها العليا ، فإنها بلا ريب من أعظم ما إبتدعته الروح البشرية على حد تعبير ديورانت (جـ ١٤ ، ص ٤٥٤ - ٤٥٥) .

وعلى كل حال فقد انتهى نظام الفروسية والفرسان في القرن السابع عشر نتيجة الحروب الدينية واهتزاز النظام الاجتماعي . ولكن كان أهم ما يميز نظام الفروسية نظامها الأخلاقي الدولي القائم على الطبقة الاجتماعية . ومع أن التراث الأدبي الذي انتجته لم تكن له الصفة الوطنية والقومية فإنه قد وضع الأساس للآداب والثقافات الوطنية والمحلية .

٤ - إنشاء المدارس المسيحية :

مع إنحلال الإمبراطورية الرومانية وتفككها بدأت الكنيسة بالتدريج في القيام بالدور التربوي لأوربا . وأنشأت مدارسها الخاصة بهذا الغرض . وكان المسيحيون في القرن الأول الميلادي فقراء بصفة عامة . كما كانوا أميين غير مهتمين بالتعليم . ولكن مع دخول واعتناق الأغنياء والمتنورين الدين المسيحي بدأت تظهر اهتمامات هؤلاء الناس بتعليم أبنائهم وطبقتهم . وكانوا يرسلون أولادهم للمدارس الوثنية للنحو والخطابة لفترة طويلة . وذلك لأن الكنيسة لم تنشئ مثل هذه المدارس في الغرب . بيد أن مثل هذا الوضع خلق مشكلة للكنيسة إذ كيف تقبل أن يرسل النشء المسيحي إلى المدارس الوثنية ؟ . وجاء حل هذه المشكلة بصورة عملية على يد الموافقين بين الفكر والتراث الوثني والمسيحية الذين قاموا بإنشاء مدارس الحوار الديني Catechetical في الشرق .

ولقد ظلت الكنيسة فترة من الزمن (٥٠٠ - ٨٠٠م) تخص بعنايتها التدريب الأخلاقي . ولم تكن ترى أن نقل العلوم الدنيوية من واجباتها .ولكن الكاتدرائيات والأديرة وكنائس الأبرشيات وأديرة النساء قد حفزها " شارلمان "

معاصر " هارون الرشيد " على فتح أبوابها لتعليم البنين والبنات تعليما عاما . وحملت مدارس الأديرة وحدها في أول الأمر هذا العبء كله تقريبا . وكانت معظم الأديرة تنشئ مدارس للبنات . ولكن لم يكن يذهب إليها إلا بنات الطبقة الغنية. وكانت تدخلها على العموم نسبة قليلة من البنات .

وكانت الكنيسة منذ القرن السادس إلى العاشر الميلادي الجهة الوحيدة في المجتمع القادرة على القيام بمهمة التعليم . وحققت في ذلك السبيل نشاطا ملحوظا . وعهد إلى المطارنة منذ أوائل القرن الثامن بمهمة تقديم مبادئ التعليم لكل من يطلبها . ومع أنه كان من المستحيل فرض هذا الواجب فقد أعلن أنه من مهام الكنيسة الرسمية . وأصدر المجلس الكنسي ا لعام سنة ٨٢٦م برئاسة " البابا بوجينس " توجيهاته بضرورة « إظهار العناية والاهتمام عند تعيين المعلمين والأطباء ليقوموا بإخلاص على تعليم النحو ، وكذلك الفنون الحرة . فعن طريقها تفسر وصايا الرب . وأن يتم ذلك في المناطق تحت سيطرة المطارنة والأماكن الأخرى إذا دعت الضرورة » .

ولقد كانت أهم مشكلة عملية أمام الكنيسة مشكلة تعليم رجال الدين . وذلك خلال قرون التحول الخمس من سقوط العالم الروماني حتى تأسيس الإمبراطورية الرومانية المقدسة تحت حكم " أوتو " في عام ٩٦٢م . ولا يمكن إلا لرجل الدين المتعلم تفسير وصايا الرب المكتوبة في الكتاب المقدس . كما يقدم الخدمات الكنسية ويساعد في الدفاع عن العقيدة ضد الأباطيل . ولذا يجب أن يتعلم رجال الدين القراءة والكتابة . ومن بين المبادئ التي أقرها رجال الكنيسة ألا يعهد إلى قسيس لا يعرف القراءة والكتابة والخدمة التعميدية ،القيام بعمله .

المنهج المدرسي :

ظلت الفنون السبعة الحرة أساس المنهج المدرسي طيلة العصور الوسطى وما بعدها . فقد إحتوت هذه الفنون على كل ما يحتاجه رجل الدين في العصور الوسطى من أمور عامة . وكانت ضرورية له لدراسة الدين ونصوصه . كما كانت مهمة أيضا لما تحتويه من دراسات مهنية . وإبان الحركة المدرسية تأكد تثبيت سباعية الفنون بفكرة وآراء أرسطو عن الأجواء والكواكب السبعة في ارتباطها بالفكرة المسيحية التي جعلت لهذه الكواكب السبعة سبعة ملائكة يجلسون عليها

. هذا بالإضافة إلى أن المسيحية جعلت أيضا للحكمة سبعة أعمدة كما سبق أن أشرنا . وخلال العصور الوسطى أيضا ظل تقسيم الفنون السبعة إلى الثلاثية والرباعية التعليمية. أما الثلاثية فكانت تشمل النحو والخطابة والمنطق . وكانت تمثل الدراسات الشائعة إن لم تكن الوحيدة التي كانت تدرس في كثير من المدارس . أما الرباعية فكانت تشمل الحساب والهندسة والموسيقى والفلك بهدف نظري بصفة عامة أي أن هذا الهدف النظري ينصرف إلى كل فنون الرباعية . إلا أن الفلك كان يدرس بغرض نفعي أيضا في تحديد تواريخ الأعياد المقدسة . وكانت اللغة اللاتينية هي لغة التعليم في كل المواد ، وكان يتحدث المعلمون والتلاميذ بها . أما اللغة اليونانية فقد ظلت اللغة الرسيمية للكنيسة حتى القرن الثاني الميلادي . ولكنها ظلت حتى القرن التاسع الميلادي تدرس في مدارس بريطانيا وأيرلندا . أما في أوربا فقد اختفت اليونانية مع تحول الإمبراطورية الرومانية الغربية إلى اللاتينية في القرن الثالث .

وفي القرن الثاني عشر هبت موجة من الاهتمام بالآداب القديمة الكلاسيكية تركزت في المدارس الكاتدرائية في تشارترز Charters وأورليانز Orleans . أما مدرسة باريس فقد اهتمت بالمنطق .

أنواع المدارس المسيحية :

كانت مدارس الأديرة في أول الأمر على نوعين : مدارس داخلية تهيئ التعليم للمستجدين ومن ينذرهم آبائهم للرهبنة أو الكنيسة . ومدارس خارجية تعلم الأولاد بالمجان من غير أجر . وقد انتشرت المدارس المسيحية وتنوعت. وكان من أهمها :

أ - مدارس الحوار الديني Catechetical :

كانت أول نوع من المدارس المسيحية . وكان هدفها تعليم الوثنيين لكي يصبحوا مسيحيين . وكان التعليم يتم بالمشافهة والاستماع . وكان مقرر الدراسة يمتد على مدى ثلاث سنوات . وكان يهدف في المرحلة الأولى أو السنة الأولى إلى اختبار قدرة الملتحقين وإخلاصهم وولائهم لحماية المثل العليا المسيحية. وفي المرحلة الثانية كان يهدف إلى تعليم الوثنيين ليصبحوا مسيحيين. وفي المرحلة الأخيرة كان يهدف إلى التأهيل لعضوية المجتمع المسيحي. وكان الأساقفة هم

المعلمون في هذه المدارس . وقد ظهر هذا النوع من المدارس أول ما ظهر في الشرق في القرن الثاني الميلادي . وإحدى هذه المدارس كانت في الإسكندرية التي أصبحت سنة ٢٢٠م مدرسة للدراسات المتقدمة والعالية . وكان هناك مدارس مشابهة في أنحاء متفرقة من الشرق .

ب - مدارس الكاتدرائية :

أنشئت في القرن الثالث الميلادي بهدف تدريب القساوسة لأعمال الأبرشية . وكانت هذه ا لمدارس في أول الأمر تقتصر على تعليم واجبات القساوسة . إذ أن المدارس الرومانية كانت تعلمهم نواحي المعرفة الأخرى . وكانت أسبانيا في أوربا الغربية لها فضل السبق في تنظيم مدارس الكاتدرائية . فقد طلب مجلس طليطلة (٣٥١م) من الأساقفة تأسيس مثل هذه المدارس . ولكن في المجلترا إزدهرت هذه المدارس أعظم ازدهار قبل القرن الثامن الميلادي . وهناك بدأ انتشارها بإنشاء مدرسة النحو في " كانتربري " (٥٩٨م) على غرار المدارس الرومانية الوثنية . وكانت هذه المدرسة التي ظلت تحيا في العصور المظلمة مثالا حيا للمدرسة المسيحية المقتبسة من مدرسة النحو الرومانية الوثنية . وكانت تخدم غرضين في القرون الأولى من إنشائها : تعليم القساوسة وغيرهم من التلاميذ وهو هدفها الأول . أما في أوربا فكان هدفها هو إعداد رجال الكنيسة لتولي الوظائف بها . وكان الأولاد الفقراء نادرا ما يدخلونها . فلم تكن الكنيسة تقدم تعليما مجانيا للفقراء في ذلك الوقت . بيد أن أحد مجالس الكنيسة قرر سنة ١١٧٩م ضرورة تخصيص أموال في كل كاتدرائية يصرف منها على التعليم المجاني لرجال الكاتدرائية وتعليم التلاميذ الفقراء حتى لايحرموا من التعليم . وكان الأساقفة هم المعلمون في مدارس الكاتدرائية في بادئ الأمر ثم وكلوا هذا الأمر فيما بعد إلى أتباعهم أو مرؤسيهم .

وكان عدد المدارس الكاتدرائية في العصور المظلمة وما بعدها غير مؤكد . ومع أنه كان هناك كثير من الأساقفة فإنه من المشكوك فيه في نظر بعض المؤرخين أن يكون كثير منهم قد أنشأوا مدارس للنحو لتعليم رجال الدين في المستقبل . وبعض القساوسة كما يذكر المؤرخون كان أميا أو شبه أمي حتى القرن الرابع عشر الميلادي .

وكان الأولاد يدخلون المدارس الكاتدرائية في سن ٦ أو ٧ . وكانوا يتلقون دراسة تختلف في طولها ومدتها من فترة لأخرى،ومن مكان لمكان.وكانت المدارس الكاتدرائية تعتبر مدارس ثانوية . وقد طغت عليها الجامعات عند ظهورها .

ومنذ القرن الحادي عشر وما بعده أصبحت بعض المدارس الكاتدرائية مراكز مشهورة للتعليم .وكثير منها كان في شمال فرنسا . واجتذب الطلاب من بلاد كثيرة مختلفة . ومن أمثال هذه المدارس مدرسة تشارترز Charters وباريس وأورليانز . وفي القرنين الثاني عشر والثالث عشر أصبحت فرنسا زعيمة العالم الغربي في المجال الثقافي والتعليمي . ومن فرنسا انتشر التقدم الثقافي إلى باقي دول أوربا . وفي القرن الثاني عشر فصل بين الفنون السبعة الحرة وبين الدين في مدارس الكاتدرائية .

جـ- مدارس الأديرة Monestic Schools :

لعبت مدارس الأديرة دورا هاما فى التعليم فى الفترة الأولى من العصور الوسطى . فقد كانت أوربا آنذاك فى حروب مستمرة . وكانت الأديرة المكان الوحيد الذى كان ينعم الناس فيه بحياة الهدوء والراحة . ومع أن قوانين الأديرة تطلبت من الرهبان أن يعرفوا القراءة فإن الأديرة الأوربية فيما قبل عام ٨٠٠ م كانت فى حالة ثقافية غير منظمة . ومع هذا فإن هذه الأديرة كانت تعتبر بصورة عامة مراكز تربوية وتعليمية تعلو فى أهميتها على الكاتدرائيات فيما قبل القرن الحادى عشر . وقد كان إنشاء الأديرة كمنتجعات روحية لا كمدارس . إلا أن المطالب الدينية والروحية بهذه الأديرة قد حتمت عليها أن تكون مراكز تربوية . ومع أن هذه الأديرة قد أهملت التعليم المدرسى وكانت فقيرة فى عرفانها ومعارفها وكتبها فإن إصلاحات شارلمان قد أدخلت عدة تحسينات عليها . وكان لأيرلندا فضل كبير فى ذلك . فقد كانت أيرلندا فى القرن الثامن الميلادى أسطع نجم فى الميدان التربوى الدينى . ويرجع ذلك إلى أنها سلمت من الغزو والفتوحات إلى ما قبل سنة ٧٩٥م عندما غزاها الفايكنج . وكان لها تراث دينى غنى . واستطاعت أن تقيم كنيسة تختلف عن الكنيسة الرومانية فى تنظيمها وطقوسها . وقد جذبت مدارس الأديرة فى أيرلندا الطلاب من أوربا وإنجلترا . وكانت اللاتينية لغة التعليم بها . إلا أن الرهبان أيضا كانوا يعلمون اللغة المحلية الأيرلندية . بل وأصبحوا معلمين للقوانين والآداب الأيرلندية فى المدارس

العلمانية . إلا أن هذا المجد إنتهى بغزو الفايكنج لها سنة ٧٩٥ م .

ومنذ القرن العاشر ظهر إهتمام بعض الأديرة بالتعليم . وفى القرن الثانى عشر والثالث عشر إنتشرت آلاف المنازل والبيوت التى بناها الرهبان فى أوربا . وكانت تضم مدارس لتعليمهم . وكانت مدارس الأديرة تستهدف خلاص الروح وتهتم بالنواحى الدينية إلى جانب العمل اليدوى . كما أن منهجها كان يتضمن الفنون السبعة الحرة إلى جانب ممارسة الأعمال الجسمية الشاقة .

د - مدارس الإنشاد او الغناء Song Schools :

أخذت مدارس الغناء مكان مدرسة اللودودس الرومانية كمدرسة إبتدائية . ونشأت الحاجة إلى صبية للغناء ، لأنه كان ينظر إليه على أنه يمثل أهمية للكنيسة . وكان البابا جريجورى الأكبر رائدا فى إنشاء هذه المدارس . وكانت ملحقة بالكاتدرائيات وأحيانا كانت ملحقة بمدارس النحو التابعة للكاتدرائيات . وكانت مدارس الغناء خاصة بتعليم أولاد الفقراء بصفة عامة . وكانوا يتعلمون مجانا ويقيمون إقامة كاملة بهذه المدارس فى مقابل خدمة الكنيسة فى النواحى المختلفة وفى مقدمتها الغناء والترنيم . وكانوا يتعلمون إلى جانب الغناء مبادئ اللغة اللاتينية وأحيانا الحساب . وقلة من خريجى هذه المدارس أصبحوا فيما بعد قساوسة وتلقوا تعليمهم فى مدارس النحو والدين . وفى نهاية العصور الوسطى أصبحت هذه المدارس هى ومدارس الأبرشية أهم المدارس الأولية للكنيسة .

هـ - مدارس أخرى :

إلى جانب مدارس الحوار والكاتدرائية كانت هناك مدارس أخرى مثل مدارس النقابات والمجمعات الحرفية والمهنية Guilds التى أنشأها التجار ورجال الصناعة. وكان القساوسة يقومون بالتعليم فيها وإن كانت لا تخضع فى إدارتها للكنيسة .كما كانت هناك أيضا مدارس النحو والخطابة والقانون وهى التى كانت موجودة فى ظل الإمبراطورية الرومانية وظلت تعيش خلال العصور الوسطى.

كما كانت هناك مدارس البلاط التى أنشاها الملوك لتعليم أبنائهم وتعليم أبناء النبلاء وأجازوا دخول الممتازين من أبناء العامة . وكانت هذه المدارس فرصة التعليم الوحيدة فى الريف . وكانت هنا أيضا مدارس الفروسية لتعليم طبقة النبلاء الذين أرادوا لأنفسهم نوعا من الحياة الدنيوية وبالتالى نوعا من التربية

يختلف عما تقدمه الكنيسة لأبنائها من تعليم لاسيما تعليم النحو والدين . وكان إحتياج النبلاء للتربية المعرفية والفكرية قليلا طالما أنه كان يوجد الكتبة أو رجال الدين يحفظون لهم السجلات . ولذا كان بعض النبلاء جاهلا وأميا . واجتذبت الفروسية إهتمام النبلاء وأصبحت الفروسية بعد القرن الحادى عشر أسلوب حياة النبلاء يتعلمها أطفالهم بتدريبهم عليها خلال حياتهم . وقد سبق أن فصلنا الكلام عن تربية الفرسان .

٥- ظهور مدارس المدن :

كان من سمات التربية فى العصور الوسطى ظهور المدارس فى المدن تحت إشراف السلطات المحلية . وقد عملت حركة التجارة في المدن على إظهار الحاجة لهذه المدارس . إذ أظهرت أن تعلم القراءة والكتابة هو أفضل طريق لشغل وظيفة كتابية . وأصبح شغل هذه الوظيفة وسيلة لتحسين المركز الإجتماعى والإقتصادى للمرء كما كان الحال فى مصر القديمة .

وكان تعليم الأولاد القراءة والكتابة من المميزات التى لا تخفى على المواطنين التجار فى المدن . فكلما زاد عدد آبناء التاجر المتعلمين توفر له كتاب أكفاء . ولم ينته القرن الثالث عشر إلا وكانت هناك مدارس محلية في جميع المدن الكبرى تحت سيطرة السلطات المحلية . وقد تنوعت هذه المدارس . وكان من أهمها مدارس النحو اللاتينية ومدارس الكتابة والقراءة للبنين والبنات. وقد تطورت مدارس النحو وأصبحت تعد للجامعات . كما أنها كانت تدرس الفنون السبعة الحرة . ومع ظهور النقابات أخذت تلقى منافسة من هذه المدارس .

وتعتبر المدارس المحلية للقراءة والكتابة أو النحو اللاتينى التى تسيطر عليها المدن أول الدلائل على إنفصال الكنيسة عن الدولة فى السيطرة على التعليم . وقد حفز مدارس المدن لا سيما مدارس القراءة والكتابة عامل آخر وهو حاجة الصبية لاستعمال اللغة المحلية . فقد يجد التاجر الذى يتعامل مع دول أوربا وخارجها أن اللغة اللاتينية وكذلك اليونانية والعربية لغات مفيدة . أما فى نطاق مدينته فإن التاجر المحلى يحتاج إلى كاتب يعرف اللغة المحلية فى المنطقة التى يتاجر فيها . لقد علمت مدارس الكنيسة اللغة اللاتينية على حين أخذت مدارس المدن تصريحا بتعليم اللغات المحلية . وفى نهاية العصر الوسيط كان

الإهتمام المحلى بالتعليم واضحا . وكان كل مجتمع ثرى يفخر بتأسيس المدارس . كما خصصت أموال للمنح الدراسية لعديد من التلاميذ . وتقدم المواطنون بالإحسان بسخاء إلى فقراء الطلبة وكثيرا ما آووهم فى ديارهم .

التعليم فى النقابات الحرفية Guilds :

وهو من سمات التربية فى العصور الوسطى. وكان أفضل تعليم مهني . وقد وضعت النقابات معايير عالية وإختبارات تعليمية قاسية تعقد على فترات لتضمن أفضل أداء . وقد أتمت النقابة نموذجا للتدريب تبنته الجامعات الأولى . وانتعش التعليم فى النقابات في أواخر العصور الوسطى وفى بداية عصر النهضة. وكانت مدة التدريب من خمس سنوات إلى إحدى عشرة سنة . ويبدأ التدريب من سن لا يقل عن سبع سنوات ويتناول الصبية وحدهم . وكان أغلبهم من أبناء التجار والحرفيين أو أى صبى آخر يرغب فى التلمذة الصناعية دون النظر إلى وضعه الإجتماعى . فلم تكن هناك حواجز طبقية . ويعتبر هذا النوع من التدريب أول وأنجح أشكال التدريب المهنى المنظم .

ويدهشنا أن نرى عدم إهتمام المؤرخين التربويين بهذا التفوق فى التدريب المهني الذى اضطلعت به النقابات . وقد يرجع ذلك إلى أن هذه النقابات لم تقدم للصبية والعمال التعليم العام وتعليم الفنون الحرة إلى جانب الحساب والقراءة والكتابة باللغات المحلية . لقد كان هدف النقابات مهنيا تماما ويهدف إلى التخصص وهو ما لم يتخذ مكانة عالية فى تاريخ التربية .

٧- ظهور الجامعات :

كان قيام الجامعات أقصى قمة تعليمية فى القرون الوسطى . وتعتبر الجامعات بمفهومها الحديث وليدة القرون الوسطى . ومع أن مصر القديمة ومن بعدها العالم اليونانى الرومانى عرفت معاهد للتعليم العالى فإن العصور الوسطى هى التى أخرجت لنا الجامعة كما نعرفها اليوم . ويميل مؤرخو التربية إلى إعتبار جامعة " بولونيا " الإيطالية التى أنشئت فى أواخر القرن الثانى عشر وكانت مركزا هاما للدراسات القانونية ،أنها تستحق أن تلقب بأول جامعة فى الغرب مع أن بعض المعاهد كان يحمل إسم جامعة بالفعل . وفى الشرق الغربى الإسلامى يعتبر الجامع الأزهر الذى أنشئ فى القرن العاشر الميلادى (٩٧٠م.) أول وأقدم

جامعة إسلامية علي الرغم من أنه لم يطلق عليه أسم جامعة الا عندما أعيد تنظيمه عام ١٩٦١م.

وقد نمت الجامعات الأولى فى العصور الوسطى نموا تلقائيا ولم يكن يخطط لإنشائها عن قصد . ولم يكن يصدر قانون بإنشائها وتنظيمها كما هو الحال اليوم . وإنما جاء نمو الجامعات نتيجة النمو فى رسالتها العلمية واستحداث دراسات مثل الدراسات الرومانية والقانونية والفلسفة الأرسطوطاليسية والعلوم العربية والفنون الحرة . وينبغى أن نشير هنا إلى أن العلوم العربية كانت غذاء عقليا للجامعات الغربية طيلة العصور الوسطى . كما أخذت عنها التقاليد العلمية وغيرها . وكانت المؤلفات والكتب العربية مراجع للدراسة بهذه الجامعات لفترات طويلة . وهكذا جاء ظهور الجامعات فى العصور الوسطى نتيجة لتولد الرغبة فى العلم والتعليم مرة أخرى بعد فترة الظلام الفكرى الذى ساد أوربا . كما جاء ظهورها أيضا نتيجة لإتساع الميدان العلمى والمعرفى وغنى أنشطته وبرامجه بفضل الإحتكاك بالعرب والعلماء والمفكرين اليونايين ونتيجة أيضا لظهور المدن ونموها وما صاحب ذلك من ظهور تجمعات كبيرة من السكان وما تطلبته الحياة الجديدة المتغيرة من مهن مختلفة فى الطب والقانون والفلسفة واللاهوت .

وهكذا ظهرت - نتيجة النهضة الفكرية فى القرنين الثانى والثالث عشر - مؤسسات جامعية لم تكن معروفة من قبل من حيث أهدافها أو طريقة عملها . وعلى الرغم من التغير الذى طرأ على هذه المؤسسات منذ نشأتها إلا أنها استطاعت المحافظة على جوهرها إلى الوقت الحاضر .

ونحن لا نعلم على وجه التحديد متى ظهرت أول جامعة . لأن الجامعات لم تكن تنشأ بالطريقة التى نعرفها حاليا عندما يتوفر المال والأبنية والأرض إلا أننا نعلم أن جامعة نابولى الإيطالية التئ أنشئت سنة ١٢٢٤ م بفضل الإمبراطور فريدريك الثانى كانت أول جامعة فى العصور الوسطى يتم التخطيط لإنشائها بشكل منظم. أما الجامعات الأولى فقد ظهرت دون تخطيط بل إنه يمكن القول بأنها ظهرت من غير قصد كما أشرنا . وأنها نشأت لأسباب كثيرة فى ظل ظروف خاصة . فجامعة باريس على سبيل المثال هى وليدة لمدرسة كاكاتدرائية نوتردام التى إستطاعت بسبب كفاءة أساتذتها وشهرتهم فى علم المنطق واللاهوت

أن تتطور وأن تعمل فى مجال التعليم العالى. وكان فى إيطاليا عدد من مدارس الطب المتقدمة فى "ساليرنو" وهى مدينة بجنوب نابولى وكانت معروفة فى ذلك الوقت كمكان للدراسات الطبية وكمكان لتجمع علماء الطبيعة والعلوم لإجراء بحوثهم وتجاربهم. وفى نفس الوقت كان فى بولونيا الإيطالية علماء مهتمون بالقانون والتشريع فأنشأوا مدرسة القانون التى تطورت إلى جامعة "بولونيا" .

إن جامعات العصور لوسطى لم تنشأ كلها عرضا . فقد نشأت جامعة أوكسفورد سنة ١٦١٧ بفضل مجموعة من الطلاب الإنجليز المبعوثين إلى جامعة باريس حين عادوا إلى وطنهم الأم بعد أن طردهم لويس السابع . وفى رواية أخرى يقال إن ملك إنجلترا إستدعائهم وكلفهم بإنشاء الجامعة .

وقد بدأ التعليم العالى بشكل بسيط وقد يوجد مكان لذلك أو لا يوجد . ولم يكن هناك أبنية أو حرم جامعى أو مختبرات . لكن كان هناك الجوهر أى مجموعة من الطلاب الذين لديهم الرغبة فى الحصول علي المعرفة وعدد من أساتذة الجامعة الذين قبلوا العمل مقابل رسوم معقولة كان الطلاب على إستعداد لدفعها .إن إسم جامعة السوربون التى هى جزء من جامعة باريس حاليا مشتق من إسم روبرت سوربون وهو قسيس دير سانت لويس وينتمى لبلاط الملك سان لويس . وقد تبرع بأحد المنازل وأوقف دخله على إيواء وإطعام ستة عشر طالبا من طلاب علم اللاهوت . وقد حمل هذا المنزل إسمه مع مرور الوقت تكريما له . وبدأ البلاط والحاشية والنبلاء يحذون هذا الحذو فى تقديم التبرعات للطلبة الجامعيين لاسيما بعد أن نهج الملك نفسه نهج روبرت سوربون . وكانت هذه التبرعات فيما بعد مجالا للتنافس بين النبلاء لإظهار مدى أهميتهم وثرائهم . وهكذا تكاثرت المنازل المتبرع بها على هذا النحو . وكان لابد من وجود مشرف يكون مسئولا عن شئون الطلبة ومساعدتهم علميا وإجتماعيا. ثم أصبحت هذه المساكن خاصة بكل كلية. وكانت تنمو أحيانا حتى تحتوى الجامعة الأم .

خلال القرن الثالث عشر توسع التعليم العالى ليصبح على شكل منظم مع مرو الزمن وبدأت الجامعات فى العصر الوسيط تتكاثر وتتسع حتى بلغ عددها فى أوربا فى نهاية تلك الفترة ثمانى جامعات . وكانت الجامعات تترسم خطى إما جامعة باريس الفرنسية أو جامعة بولونيا الإيطالية . ولعب العامل الجغرافى أثره . فجامعات الجنوب الأوربى حذت حذو جامعة بولونيا بينما كانت جامعة

باريس النموذج المحتذى لجامعات الشمال الأوربى .

ومع أن العصور الوسطى شهدت ضآلة الفكر وإنحساره إلا أن الجامعات إنتشرت ووصل عددها إلى ثمانين جامعة بنهاية تلك العصور . وإشتهرت بعض الجامعات بتخصصات معينة مثل جامعة باريس التى تميزت بعلم اللاهوت سيد العلوم فى العصور الوسطى . أما مونبيليه وسالرنو فتنفردان بشهرتهما فى مجال الطب . أما أورليانز فاشتهرت بالدراسات الكلاسيكية والأدبية .

وكانت هناك جامعتا تولوز وأورليانز اللتان أسستا فى القرن الثالث عشر . وفى إنجلترا كانت هناك جامعة أكسفورد (١١٨٠م) وكمبردج (١٢٠٩م) . وفى إسكتلندا كانت هناك فى القرن الخامس عشر جامعات سانت أندروز وجلاسجو وأبردين . وفى أسبانيا كانت هناك جامعة قرطبة فى القرن العاشر واشتهرت بدراسة العربية . وجامعة سالامانكا (١٢٢٠م) وجامعة أشبيلية التى أنشآها ألفونس الحكيم سنة ١٢٥٤م وخصصها لدراسة العربية واللاتينية . وفى ألمانيا كانت أولى الجامعات هى جامعة فينا (١٣٦٥ م) وجامعة هايدلبرج (١٣٨٥م) وكولون (١٣٨٨م) وفى تشيكو سلوفاكيا كانت هناك جامعة براغ التى أنشئت سنة ١٣٤٨م . كما كان فى بولندا والمجر والسويد والدنمارك جامعات فى منتصف القرن الخامس عشر .

لقد إزدهر التعليم الجامعى فى إنجلترا وإنتقل هذا الإزدهار فى القرن السابع عشر إلى أمريكا التى كانت مستعمرة بريطانيا آنذاك . كما ازدهر فى القارة الأوربية حتى إندلاع الثورة الفرنسية . وبعدها قل الإهتمام بالتعليم الجامعى .

أما فى المشرق العربى الإسلامى فقد ظل الجامع الأزهر فى العصور الوسطى مركزا هاما للتعليم العالى . واستمر كذلك حتى العصور الحديثة . وإلى جانب الأزهر كان هناك جامع الزيتونة فى تونس وجامع القيروان فى فزان بالمغرب . وكانا مركزين دينيين للتعليم العالى على غرار الأزهر . ومن المعروف أن فترة الحكم التركى العثمانى للبلاد العربية كانت فترة ركود فكرى وثقافى انعكست آثارها بقوة على كل جوانب الحياة ومنها بالطبع التعليم الجامعى . وكانت القسطنطينية مركز الحركة السياسية والثقافية للإمبراطورية العثمانية . وكان الطلاب العرب يتوجهون إلى هناك إذا أرادوا مواصلة تعليمهم العالى فى مجالات الطب والعلوم . وظل الأمر كذلك حتى أنشئت الكلية السورية

البروتستانتية سنة ١٨٦٦م فى بيروت . وهى الكلية التى تطورت فيما بعد وسميت بالجامعة الأمريكية سنة ١٩١٩م . وبعد إنشاء هذه الجامعة أنشئت جامعة الآباء اليسوعيين التى سميت بجامعة الحبر الأعظم . وكان يدرس بها الطب إلى جانب الدراسات اللاهوتية فى كلية للطب وأخرى للاهوت . وقد سميت هذه الجامعة فيما بعد بجامعة سان جوزيف . وأفتتحت سنة ١٩١٣م كلية للهندسة وأخرى القانون . وكانت هذه الجامعة ذات صلة بجامعة ليون الفرنسية . وفى مصر أنشئت أول جامعة عربية وهى الجامعة الأهلية سنة ١٩٠٨م . وكان يدرس فيها الآداب والعلوم . وقد تحولت إلى جامعة حكومية سنة ١٩٢٥م . وأصبحت تعرف بإسم الجامعة المصرية . وهى جامعة القاهرة حاليا . وأصبحت تضم إلى جانب كليتى الآداب والعلوم كلية للحقوق وأخرى للطب وكليات أخرى. وتوالت فى السنوات الأخيرة إنشاء الجامعات فى كل البلاد العربية . وهو ما سنشير إليه عند الكلام عن التربية فى العصور الحديثة فى البلاد العربية .

لقد كان قيام الجامعات قمة الحركه التعليمية فى العصور الوسطى . وكان ظهورها كما أشرنا يرجع أساسا الى ظهور المدن والعمران وهو ما أكده ابن خلدون من أن التعليم يزدهر بالعمران. لقد كانت المدينة فى العصور الوسطى مكانا يقصده الناس ويفد اليه كثير من الأجانب من الشرق ممن كانوا يعرفون العلوم والفلسفة . وكانت مدن السواحل والأسواق فى أوروبامدنا عالمية . كما كان الحال فى الإسكندرية وأثينا قديما . وقد ساعد ذلك على خلق الظروف المناسبة لاجتذاب العقل الباحث والطالب الدارس . بل إن اصطلاح جامعة university مأخوذ من كلمة Universitas وتعنى الإتحاد أو التجمع الذى يضم ويجمع أقوى الأسر نفوذا فى مجال السياسة فى المدينة من أجل ممارسة السلطة . وهكذا استخدمت كلمة الجامعة لتدل على تجمع الأساتذة والطلاب من مختلف البلاد والشعوب . وقد جاء هذا التجمع على غرار الإتحادات الصناعية والحرفية Guids التى كانت تقوم بدور تعليمى عام فى العصور الوسطى ، وإمتد حتى العصور الحديثة . وقد كان لهذه الإتحادات معايير تعليمية عالية وإختبارات قاسية كما أشرنا . وتوصلت إلى نظام نموذجى للتدريب تبنته الجامعات الأولى . وكانت لتنظيمات هذه الإتحادات أهمية كبيرة جدا بالنسبة للجامعات . وتعتبر الكلمة العربية " جامعة " ترجمة دقيقة للكلمة الإنجليزية المرادفة لها لأنها فى مدلولها

العربى أيضا تعنى " التجميع والتجمع " أما كلمة " كلية " فهى مأخوذة من الكلمة اللاتينية College وتعنى " القراءة معا " وقد استخدم الرومان الكلمة فى القرن الثانى عشر لتدل على مجموعات من الحرفيين والتجار . وقد ساعدت الإهتمامات المشتركة لأبناء الكلية الواحدة على تشكيلها على غرار أبناء الحركة الواحدة . وقد استخدمت الكلمة " كلية " College فى أكسفورد منذ القرن الثالث عشر لتدل على المكان يجد فيه الطلاب المسكن والمآوى والمعيشة والتعليم معا. أما كلمة كلية بمعنى Facultiy فهى مأخوذة عن الكلمة اللاتينية Facultas وتعنى القوة . وقد أطلقت أولا على أساتذة الآداب . وكان الأساتذة لا ينتمون إلى جامعة واحدة وإنما كانوا ينتقلون من جامعة لأخرى . وكان هناك أساتذة فى اللاهوت والقانون والطب . وإنضم الأساتذة معا فى إتحاد واحد على غرار الإتحادات الصناعية والتجارية عندما وجدوا فى هذا الإتحاد قوة لهم . وأصبح هذا الإتحاد رمزا للقوة . وقد إنضمت هذه الكليات المتفرقة من الأساتذة فى إتحاد تحت قيادة كلية الآداب فى نهاية القرن الثالث عشر . وكان ينتخب أستاذ من هذه الكلية ليتولى رئاسة الإتحاد فترة من الزمن . وهكذا كان الأساتذة يقسمون حسب الكلية . وكل كلية يرأسها عميد وكل الكليات تتدرج تحت لواء جامعة واحدة يرأسها مدير علمى Rector ينتخب من بين الأساتذة أو من بين الطلاب أحيانا . وكان الرئيس الإدارى للجامعة Chancellor يمثل الكنيسة ويشرف على الإمتحانات ومنح الدرجات العلمية .

سمات الجامعة فى العصور الوسطى :

على الرغم من أن الجامعات المعاصرة صورة قريبة من صورة الجامعات فى العصور الوسطى ، ومع أن الجامعات المعاصرة مازالت تحمل كثيرا من المعالم التى ورثتها من جامعات العصور الوسطى ، فإن هذه الأخيرة قد تميزت بسمات رئيسية عامة من أهمها .

١- **الفقر** : فقد كانت الجامعات فى العصور الوسطى فقيرة نظرا لأنها لم تكن تتلقى أية مساعدات مالية عامة أو خاصة . بل كانت تعتمد على التبرعات الخيرية التى يقدمها لها الملوك والنبلاء ورجال الدين . وكان آخرون يساعدونها فى صور التبرعات بالمخطوطات . وكان الطلاب يدفعون رسوما قليلة للجامعة تختلف بإختلاف المواد الدراسية . وظلت هذه الرسوم أهم مصدر تمويل للجامعة .

وكان الأساتذة فى البداية يحصلون على أجورهم مما يدفعه الطلاب لهم مباشرة من رسوم دراسية . ولم يكن الأساتذة أعضاء دائمين فى الجامعة - كما أشرنا - وإنما كانوا ينتقلون من جامعة إلى أخرى . ولذلك لم تكن لهم مرتبات ثابتة . وكانت الجامعات الإسكتلندية أولى الجامعات الأوربية التى أدخلت النظام الدائم لأعضاء هيئة التدريس . كما كانت جامعة بولونيا فى إيطاليا أول جامعة بدأت منذ القرن الثالث عشر فى دفع مرتبات منتظمة للأساتذة حفاظا على كرامتهم من القيود المشينة التى كان يفرضها إتحاد الطلاب عليهم . ولم يكن للجامعات الأولى مبان خاصة بها أو معدات غالية وإنما كان الأساتذة يحاضرون حيثما توجد حجرة خالية أو فى أى مكان خال . وفى باريس أعطيت كلية الآداب شارعا صغيرا لإستخدامه مكانا للدراسة هو الآن يعرف فى فرنسا بالحى اللاتينى .

٢- **الحرية** : كانت الجامعات منذ إنشائها تتمتع بقدر كبير من الحرية والإستقلال . وكانت بعيدة عن سلطة رجال الدين أو رقابة الدولة على الرغم من أن السلطة الدينية كانت تتابع أعمال هذه الجامعات . وكانت هى التي تمنحها الإمتيازات بل وتعطيها حق الترخيص . وربما يفسر ذلك الحرية التي تتمتع بها الجامعات المعاصرة لدرجة أن داخلها يعتبر " حرمة " . ومن داخل الحرم الجامعى كان آمنا . وتعتبر الحرية الأكاديمية سمة مميزة للجامعات على طول تاريخها الطويل . وتعنى هذه الحرية الأكاديمية ببساطة أن هيئة التدريس فى الجامعة تتمتع بحق تدريس ما تعتبره صحيحا وأنه ليس هناك قيود على ما يقوله الأستاذ أو يكتبه أو ينشره . ويرتكز هذا الحق على قدسية الحقيقة من ناحية ، ومسئولية الدارس فى معرفة هذه الحقيقة دون أى قيود من ناخية أخرى .

لقد نشأت الحرية الأكاديمية قديما عن محاكمة سقراط وإدانته فى أثينا مع أن السفسطائيين لم تكن لهم أية أخوة أكاديمية تربط بينهم فى ذلك الوقت . ومع أن سقراط لم يطالب بالحرية الأكاديمية فإنه أعطى خير نموذج لها . وطالب بحق الإنسان فى إتباع أوامر ضميره . وللحرية الأكاديمية ضوابطها بالطبع إلا أنها ضوابط من داخل المجتمع الأكاديمى نفسه . وهو مجتمع يشعر كل فرد بأنه محاسب أمام زملائه على ما يقول .

وقد تمتعت جامعات العصور الوسطى بعدة مميزات دعمت من حريتها وإستقلالها . وتضمن ميثاقها هذه الميزات التى كان من أهمها حرية الأساتذة

والطلاب فى التنقل دون أية مضايقات أو قيود من جانب الحكومة وكذلك حمايتهم من أى عنف . وتضمن أيضا حق الأساتذة والطلاب فى أن يكون لهم محاكم جامعية خاصة بهم لمحاكمتهم وتأديبهم . وهى ميزة ظلت تتمتع بها الجامعات حتى عصرنا الحاضر . كما أنها كانت ميزة ساعدت جامعات العصور الوسطى على أن تكون مستقلة بدرجة كبيرة عن سلطان رجال الدين والدولة معا . وهناك ميزة ثالثة هى حق خريجى الجامعة فى التدريس فى أى مكان . وهكذا اعتبرت الشهادة الجامعية ترخيصا بالعمل فى التدريس . بل إن كلمة الليسانس تعنى فى أصلها الرخصة أو الترخيص . والميزة الرابعة هى إعفاء الأساتذة والطلاب من دفع الضرائب على أملاكهم الخاصة وكذلك إعفاؤهم من الخدمة العسكرية والتجنيد الإجبارى وهى ميزات مازال معمولا بها حتى الآن .

وقد اقتسبت الجامعات الأوربية بعض تقاليدها من الجامعات العربية فى العصر الوسيط مثل " الروب " الجامعى الذى هو فى الأصل جبة الشيخ ونظام الكراسى الذى كان فى الأصل الكرسى الذى يجلس عليه الشيخ. كما أن الجامعات الأوربية كانت تدرس الجغرافيا بإستخدام نماذج عربية للكرة الأرضية . كما أن نظام منح الشهادات مقتبس من نظام الأجازات التى كان يمنحها الشيخ لطلابه بعد إكمال تعليمهم .

٣- **العلمانية** : أخذت بعض جامعات العصر الوسيط منذ إنشائها الطابع المدنى العلمانى . ذلك أنها قامت أساسا لتحقيق أهداف مدنية ودنيوية . ويصدق هذا القول على الجامعات فى جنوب أوربا مثل الجامعات الإيطالية . وكان أشهرها جامعة بولونيا التى تخصصت فى دراسة القانون . وجامعة سالرنو التى اشتهرت بتخصصها فى الطب . أما فى شمال أوربا فكانت الجامعات ذات صبغة دينية ومن أشهر جامعاتها جامعة باريس التى إشتهرت بدراسة اللاهوت . وكان للكنيسة سلطان عليها فى تعيين الأساتذة أو حرمانهم من مزاولة المهنة . كما كان لها حق إصدار التنظيمات الخاصة بالأساتذة والطلاب . لكن الجامعة فى تطورها إستطاعت أن تفلت من سلطان الكنيسة عليها . وأخذت بالتدريج صفتها العلمانية ، وإن ظلت الدراسات اللاهوتية جزءا من إهتماماتها إلى جانب القانون والآداب والطب . وهو التقسيم الرباعى الذى ساد جامعات العصر الوسيط وتأثرت به جامعات العصور الحديثة ومنها الجامعات العربية فى أول نشأتها .

٤- **العالمية** : كانت جامعات العصور الوسطى ذات طابع عالمى . فقد كانت تضم أساتذة وطلابا من مختلف الشعوب والأقوام . وكان الطلاب وأحيانا الأساتذة يقسمون إلى مجموعات حسب دولهم ، ومكان ولادتهم . وكان هؤلاء الطلاب الغرباء من مختلف الجنسيات التى وصلت أحيانا إلى سبع جنسيات يسببون مشكلات كبيرة للمسئولين نظرا لأنهم وفدوا وهم يحملون معهم عاداتهم وثقافتهم الخاصة بما فيها مواسمهم وأعيادهم وفنون طربهم ولعبهم . وقد عرف الأزهر نظاما مشابها عندما كان الطلاب الذين يدرسون فيه يقسمون على أورقة كل رواق يضم الطلاب من بلد واحد . فكان هناك رواق الشوام ورواق المغاربة وهكذا ، وربما إقتسبت جامعات العصر الوسيط هذا النظام من الأزهر إلى جانب الأشياء الأخرى التى سبق أن أشرنا إليها .

هدف الجامعات ومناهج دراستها :

كانت الجامعات فى العصور الوسطى تعد الأفراد للمهن المختلفة فى الطب والقانون واللاهوت والتدريس . وقد حظى اللاهوت من الناحية الزمنية بأول مكانة مهنية معترف بها . وإعتمدت مناهج جامعات العصر الوسيط على حصاد الفكر العربى . وكانت مؤلفات العلماء العرب فى مختلف الفروع والميادين مراجع للدراسة بهذه الجامعات لقرون طويلة كما أشرنا .

وكانت الدراسة فى الآداب تشمل النحو والفلسفة والمنطق والخطابة والرياضيات والميتافيزيقا والفلسفة الأخلاقية والطبيعية . وكانت الفلسفة الطبيعية تشمل الطبيعة والفلك والحيوان والنبات وعلم النفس . وكان هذا المنهج مطلوبا من كل طالب يريد الحصول على الدرجة الجامعية فى الآداب . وكانت سلطة أرسطو على المنهج الجامعى سلطة نهائية بالنسبة لكل الموضوعات التى كتب فيها . وكانت مدة دراسة الآداب تتراوح بين أربع وسبع سنوات مقسمة إلى قسمين أو ثلاثة كل منها يؤدى إلى إلى درجة أو شهادة أكاديمية رسمية. وكان الطالب الذى ينهى المقرر كله بنجاح يمنح فى النهاية درجة الماجستير Master's Degree (M.A) . ومنذ بداية القرن الرابع عشر كان يشترط للقبول بدراسة الآداب أن يكون الطالب قد أنهى مدرسة النحو وهى المدرسة الأكاديمية (الثانوية) . كما كان عليه أن يختاز إمتحانا للقبول بالجامعة وهو أمر كان شائعا فى القرن الرابع عشر . وبعد إنتهاء الدراسة الجامعية كان الخريج يستطيع أن يعمل مدرسا بالجامعة

إذا وجد طلابا له . وفيما بعد أضيفت شروط تأهيلية أخري . كما كان الخريج يستطيع أن يعمل قسيسا إذا وجد أسقفا يحتضنه ، أو موظفا بالخدمة المدنية إذا وجد من يوظفه) أو يواصل دراسته ليدرس اللاهوت أو الطب آو القانون . وهذا يعنى أن دراسة الآداب كانت تعتبر شرطا لمواصلة الدراسة فى هذه الميادين . وكانت دراسة اللاهوت أطول الدراسات إذ كانت تصل إلى ثمانى سنوات للحصول على درجة دكتور فى اللاهوت . أما دراسة الطب والقانون فكانت تتراوح بين خمس وثمانى سنوات .

نظام الدراسة وأساليبها :

كان الطالب ينتظم فى الدراسة بعد إلتحاقه بالجامعة . وكانت المحاضرات والكتب باللغة اللاتينية . وكانت هذه اللغة تستخدم إجباريا فى كل أعمال الطالب سواء داخل الجامعة أو خارجها . وكان الطالب بمجرد إلتحاقه يتعلم النحو والبلاغة والمنطق . ونظرا لأنه لم يكن هناك بناء للجامعة ، كانت الدروس تعقد فى رواق الكاتدرائية أو بجانبها فى البيوت المجاورة أو حتى فى مجرد غرفة يستأجرها الأستاذ . وكان الطلاب يدعون للإجتماع بواسطة جرس الكنيسة كما يحدث الآن فى كثير من الأمكان الدينية التى تستخدم للتعلم . وكانت الدراسة تبدأ مبكرا بعد شروق الشمس مباشرة . وكانت تفرض على الذين يتأخرون بعض الواجبات الإضافية فى اليوم التالى . ولم تكن أبسط الشروط الصحية متوفرة . فالطلاب يجلسون فى أماكن مغلقة رديئة التهوية والإضاءة . ولم تكن مسألة تجديد الهواء قائمة . ولم يكن الجو فى الفصول صحيا بصفة عامة لاسيما من ناحية النظافة . فلم يكن الإستحمام المنتظم عادة شائعة آنذاك . وكان الطلاب يجلسون متكاتفين كحبات العنقود فيخفف ذلك من برد الشتاء . وفى البداية لم يكن هناك مقاعد وكان الطلاب يجلسون على أرض الغرفة . ويستخدمون ركبهم بدل المقاعد للكتابة عليها . وعندما إستحدثت المقاعد بعد ذلك كانت طويلة وضيقة مثل مقاعد الكنيسة وقاسية ومزدحمة لا تشجع على التعليم .

وكانت أساليب التدريس المتبعة فى جامعات العصور الوسطى تقوم على طريقة المحاضرة والإملاء والمحاورة والمناقشة المنطقية . وكانت الكتب قليلة . ولذا كان الطلاب يعتمدون غالبا على المذكرات والملخصات التى يدونونها في المحاضرات ويقومون بحفظها . وقد قرر أساتذة باريس سنة ١٣٥٥م إستخدام

طريقة المحاضرة البطيئة التى تشجع الطلاب على تدوين المذكرات . وأصدروا أمرا إلى أساتذة الفلسفة بألا يستخدموا طريقة المحاضرة السريعة وإلا تعرضوا لحرمانهم من التدريس والإمتيازات الجامعية لمدة عام . وفى سنة ١٣٦٦ م حرم على الأساتذة أن يقرأوا محاضراتهم أو أسئلتهم من مذكرات مكتوبة وإن كان يسمح لهم بوضعها على المنضدة أمامهم لمساعدتهم على تذكر النقاط الرئيسية للموضوع . وكان الأساتذة يجلسون على منضدة مرتفعة عن الأرض وهو تقليد الأزهر والتربية الإسلامية . أما التلاميذ فكانوا يجلسون على كراسى أو مكاتب. وفى سنة ١٣٦٦م ظهرت قاعدة جديدة بموجبها كان يتحتم على طلاب الآداب فى باريس أن يجلسوا على الأرض وذلك حتى تنزع من نفوسهم نزعة الغرور. وهو تقليد إسلامى أيضا. وكانت تتبع فى الجامعات أساليب مختلفة لحفظ النظام بين الطلاب منها اللوم والفصل والسجن بل والعقاب الجسمى أيضا. وكان الأستاذ يلقى محاضراته بشكل يدل على أنه يسترجع ما دونه فى مؤلفاته المكتوبة باللاتينية . وحتى التعليقات والإيضاحات الجانبية كان الأستاذ يلقيها باللاتينية لكن دون التقيد بمحتويات مؤلفاته . وكان بعض الطلبة يلجأ لتدوين ما يلقيه الأستاذ فى كراسات خاصة بهم .

أما ما كان يفوق المحاضرة وتدوينها من حيث الأهمية فهو إستعراض الطلبة لما قاله أستاذهم والمناقشات التى كانت تتم بينهم بعد ذلك . كما كان الطلبة يجتمعون فى نهاية اليوم أو خلال عطلة نهاية الأسبوع لمناقشة ما تلقوه من علم أستاذهم ، الأمر الذى ساعد على أن يجدوا متنفسا لطاقاتهم الفتية وأفكارهم المتأججة وشحذ ذكائهم وقدراتهم الذهنية . وكان الطلاب الجدد يجتمعون فى مجموعات صغيرة وحلقات لمناقشة الموضوع الذى سمعوه فى قاعة المحاضرات مما يساعدهم على تنمية عقولهم بطريقة عملية ويعمل على إشباع فضولهم وإستطلاعهم .

وكانت نقابات الطلاب تقوم بتحديد سرعة الكلام أثناء المحاضرة بحيث يمكن للأستاذ تحديد سرعة كلامه عند المحاضرة أو الحديث الشفوى . وفى جامعة بولونيا حيث كان الطلاب يعملون على وضع معايير للإستفادة من كل مليم فى التعليم كانوا يطلبون من الأساتذة الحديث بسرعة كبيرة عندما لا يطلب أحد من الطلبة الإبطاء . وللمقارنة فإن الباريسيين كانوا يحبذون السرعة البطيئة وفى

الأوقات التى تطلب السلطات فيها من الأساتذة زيادة سرعة الحديث كان الطلاب يعترضون على ذلك بالصراخ والتصفيق بل وبالتهديد والإضراب . وكانت مراجعة الدروس مع الطلاب ومناقشتهم أهم من المحاضرات . وقد كان ذلك يتم يوميا أو أسبوعيا .

ولقد بدأت الشكوى تعلو من أن التعليم الجامعى المعاصر يناهض الفكر والملكات العقلية . بل ويعمل على تحويل الطلاب إلى ببغاوات لا أكثر . وهى تهمة ليست باطلة تماما . إذ أن لها أساسا من الصحة فى الواقع . وبالرغم من ذلك فإن الجامعات لا تزال منارات ينطلق منها الإشعاع الفكرى الكفيل بالقضاء على الجهالة والتخلف وإضاءة دروب الإنسان ليشق طريقه عن ثقة نحو آفاق العلم والثقافة .

نظام الإلتحاق :

إن الإلتحاق بالتعليم العالى الآن أصعب بكثير مما كان عليه فى الماضى . وشروط الإلتحاق التى نشاهدها فى هذه الأيام فى أى مكان من العالم لم تكن معروفة فى ذلك الوقت . فلم يكن هناك شروط للإلتحاق كاللباقة البدنية والصحية والحصول على شهادات معينة . ولم تكن توجد أى إختبارات للقبول ولا حتى المقابلة الشخصية . وكل ما كان يشترط فى الطالب هو قدرته على مواصلة الدراسة وإستخدام اللغة اللاتينية التى كانت تعتبر لغة التدريس بالجامعات آنذاك .

الطلاب :

كانت الجامعات الأولى تأخذ طلابها من بلاد مختلفة . وتجاه مثل هذا التعدد والإختلاف لم يمض وقت طويل حتى أمكن لكل جامعة إيجاد نوع من الحماية الذاتية لنفسها . ففى إيطاليا إكتفت الجامعة بالطلاب القادمين من الألب ومن الآفاق البعيدة . أما طلاب باريس فقد توزعوا بين فئات أربعة هم : الإنجليز والفرنسيون والنورمان والبيكارديون . ومع أن تشكيل الطلاب كان تشكيلا دوليا ، فقد كان لكل جماعة سمعتها وصورتها الخاصة . فالفرنسيون مخنثون من وجهة نظر الآخرين والألمان متعجرفون والإنجليز منحطون إلى درجات دنيا من الفسوق والشر . وكان إختلاف الجنسيات يظهر بوضوح ويؤدى إلى الهياج وإلى

إراقة الدماء وفى بعض الأحيان إلى خسائر فى الأرواح .

فى إيطاليا كان الطلاب المنتسبون للدراسة رجالا كبارا فى سن الثلاثين وإحيانا الأربعين . وقد نظموا أنفسهم فى إتحادات للطلاب أو النقابات التى أنشئت لتوفر لأعضائها الحماية اللازمة لهم ضد الإحتيال والإستغلال وبخاصة من التجار موردى الطعام والمسكن . وأخذت هذه المنظمات فيما بعد على عاتقها تنظيم التعليم والعمل والتعامل مع أساتذة الجامعة . فأصبحت تدفع لهم الأجور نظير إعطاء المحاضرات فى وقت معين والإنتهاء منها فى وقت معين .

ولم يكن جميع الطلاب متحدين كما كان الوضع فى جامعة بولونيا. ففى باريس حيث كان يتم تسجيل الطلاب دون حدود كان عدد كبير من الطلاب من الغرباء . وكان معظم الطلاب شبانا . ولكن تجربة الحكم الذاتى للطلاب لم تدم طويلا . وقد قامت النقابات فى باريس بإنشاء أربعة مدارس أو كليات للآداب والطب والقانون واللاهوت كل منها يرأسها عميد منتخب من الأساتذة . وهو تقليد مازال متبعا فى كثير من الجامعات الأوربية . ولكنه لم يعمر طويلا فى أمريكا حيث إنقرض وإنتهى .

وفى جامعة باريس كان عدد الطلبة أكبر بكثير وأعمارهم أصغر مما كان عليه طلاب جامعة بولونيا . كما كان معظمهم أجانب غرباء . ولذلك فإن إدارة الطلاب للجامعة وسيطرتهم عليها لم تأخذ الشكل القوى الذى حدث فى جامعات إيطاليا .

وبسبب كثرة الطلبة الغرباء والأجانب تكونت ما يسمى بالإتحادات الطلابية لحمايتهم والدفاع عن مصالحهم فى الإغتراب . وكانت درجة حرارة القومية ترتفع عاليا داخل هذه التجمعات لدرجة التحرش الذى كان يحدث بينهم وتسيل فيه الدماء وتسقط الضحايا فى كثير من الأحيان .وكان مطلوبا من الطلبة أن يناموا حيث يتلقون العلم . وأصبحت المحاضرات تلقى فى المبنى الذى يشكل مقر الكلية . وهنا تقلصت مهمة الجامعة لتكون محصورة فى النشاط العلمى والأكاديمى وإجراء الإمتحانات ومنح الدرجات العلمية . يقول " ديورانت " عن طلاب الجامعات فى العصر الوسطى :

" لم تكن سن طالب العصور الوسطى محددة ، فقد يكون فى أى سن ، وقد يكون قسا أو راهبا ممتازا . أو رئيس دير ، أو تاجرا . وقد يكون متزوجا أو

غلاما فى الثالثة عشرة من عمره يثقله عبء الكرامة المفاجئة التى ألقيت عليه فى هذا السن . وكان هذا الطالب يذهب إلى بولونيا ، أو أورليان ، أو مونبليه ليصبح محاميا ، أو طبيبا . أو يذهب إلى غير هذه الجامعات فى بعض الأحوال لكى يؤهل نفسه لخدمة الحكومة ، أو ليجد لنفسه فى العادة مجالا فى الكنيسة . ولم يكن يؤدى إمتحانا للدخول في الجامعة . بل كان كل ما يطلب منه معرفة اللغة اللاتينية ، وأن يكون قادرا على أداء أجر زهيد لكل مدرس يدرس على يديه . فإذا كان فقيرا ، فإنه قد يستعين على ذلك بمنحة دراسية أو معونة تسديها إليه قريته أو كنيسته ، أو يسديها إليه أصدقاؤه أو أسقفه . وكان الطالب فى ذهابة إلى الجامعة وعودته منها ينتقل عادة بالمجان . ويجد الطعام والمآوى فى الأديرة التى فى طريقه " (ديورانت : حـ ٧ ص ٤٩) .

الطلاب والإدارة الجامعية :

الواقع أن الجامعات المبكرة فى العصور الوسطى كانت تختلف فيما بينها من حيث ممارسة الطلاب لدورهم فى إدارة الجامعة . ففى الجامعات الإيطالية مثل " بولونيا" وسالرنو كان الطلاب من خلال روابطهم وإتحاداتهم الطلابية يمارسون سلطة فريدة . ولم يكن الطلاب يخضعون لأى لون من ألوان العقاب . فى حين كان الأساتذة هم الذين يتعرضون للمحاسبة والعقاب . وكان الطلاب هم الذين يديرون الجامعة ويفرضون سيطرتهم عليها . أما فى باريس فكان العكس إذ كان إتحاد الأساتذة أو رابطتهم هى التى تدير الجامعة وتسيطر عليها . وكان الأساتذة وحدهم دون الطلاب هم الذين يرسمون سياسة الجامعة ويديرونها . وسارت جامعة أكسفورد فى إنجلترا على نهج جامعة باريس . وخلال ثورة الطلاب فى الستينات كانت هناك إشارات كثيرة إلى الدور الرئيسى للطلاب فى إدارة جامعات العصر الوسيط مع أن هذا الدور الرئيسى كان مقصورا على الجامعات الإيطالية دون غيرها .

ولقد إمتد تأثير الجامعات الإيطالية فى هذه الناحية إلى جامعات أسبانيا وأمريكا اللاتينية . لكنها لم تؤثر على الجامعات فى بريطانيا وكندا والولايات المتحدة . ففى هذه الجامعات الأخيرة كان الأساتذة وليس الطلاب هم الذين يوجهون الجامعة ويديرونها . وكانت الجامعة فى العصر الوسيط تتمتع بإستقلالها فى إدارتها . وكانت هى التى تختص بمحاسبة أعضائها من الأساتذة

والطلاب داخل الجامعة وخارجها .

وهكذا لم يكن الأساتذة والطلاب إذا أساءوا التصرف أو السلوك خارج الجامعة يحاكمون أمام المحاكم المدنية . وإنما كانت سلطة الجامعة هى التى تتولى ذلك . ويقول " روس " إن هذه الحرية التى كان يتمتع بها الطلاب والأساتذة قد أسئ إستغلالها وأشار إلى ألوان من السلوك المشين الذى كان يمارسه الطلاب فى العصر الوسيط مثل السرقة والسكر والإغتصاب والسطو على المنادل وغير ذلك من الجرائم التى كان المشجع لهم عليها الحماية التى كانوا يتمتعون بها فى ظل سلطان الجامعة (ROSS: 1976).

لقد إختفت ظاهرة قيام الطلبة بالسيطرة على الجامعة والأساتذة بالصورة التى كانت عليها فى العصور الوسطى . كما إختفت ظاهرة أن يكون للطلاب كلمة فيما يتعلق بالقواعد المعمول بها داخل الجامعات . غير أن في هذه المرحلة التى نعيشها اليوم والتى تجتاحها المعارضة الجماعية والعنف أحيانا أصبح الطلبة يستعيدون بالتدريج فى السنوات الأخيرة قدرا من نفوذهم السابق . وتمكن الطلبة من بعض البلدان المتقدمة من فرض سيطرة مماثلة على إدارة جامعاتهم الأمر الذى أدى أحيانا إلى إقالة أحد الرؤساء أو إجباره على تقديم إستقالته .

إمتيازات الطلاب :

بالرغم من العناء الذى كان يصادفه قديما طلاب التعليم العالى إلا أنهم كانوا يتمتعون بعدد من الإمتيازات منها الإعفاء من التجنيد ومن دفع الضرائب. أما فى أكسفورد وكمبردج فكان الطلبة لهم ممثلوهم حتى على مستوى البرلمان وهو إمتياز للطلاب الإنجليز ظلوا يتمتعون به حتى الآن .

وكان الطالب الذى يحلق شعر رأسه ويأخذ على عاتقه حمل بعض الأعباء التى تكفل له الإنخراط فى سلك الكهنوت يتمتع ببعض إمتيازات خاصة بهذا السلك كخضوعه للمحاكم الكنيسة لا المدنية إذا ما بدر منه ما يعكر صفو الأمن العام . وكان عليه مثل رجل الدين أن يحيا حياة العزوبية بدون زواج وإذا عدل عن رأيه فإنه كان يعاقب بالحرمان من الإمتيازات وعدم الحصول على الشهادة العلمية . ومن قبيل المقارنة نشير إلى حقوق الطلاب التى يتمتعون بها فى الجامعات الحديثة ونأخذ على سبيل المثال الجامعات السوفيتية . فقد كان طلاب

التعليم العالى فى ظل النظام السوفيتى يتمتعون ببعض الحقوق التى كفلتها لهم القوانين والتشريعات إنطلاقا مما نص عليه دستور الإتحاد السوفيتى . وأهم هذه الحقوق يتضمنه ما نص عليها " التشريع الأساسى للتعليم العام فى الإتحاد السوفيتى وما نصت عليها " لوائح مؤسسات التعليم فى البلاد . وهناك بعض الحقوق التفصيلية تحددها قرارات مجلس وزراء الإتحاد السوفيتى ووزير التعليم العالى ومجلس الوزراء على مستوى كل جمهورية فى الإتحاد وكذلك قرارات ومديرى الجامعات . وهناك عدة قوانين تنظم حقوق الطلاب منها ما يتعلق بالنواحى المالية مثل المنح الدراسية والمالية والإمتيازات الضريبية . ومنها ما يتعلق بالنواحى المدنية مثل الإمتيازات فى الإنتقال والمواصلات والإيجارات والإحتفاظ بمسكن جامعى طوال مدة الدراسة . ومنها ما يتعلق بأمور العمل مثل الأجور وظروف العمل ومنها ما يتعلق بالأمور الإدارية مثل شروط القبول والتظلم من الإجراءات الإدارية . ولكن القول بصفة عامة أن الطلاب كانوا يتمتعون بالحقوق الآتية : -

أ - حق الاستخدام المجانى للمعامل والمكتبات وغيرها من التسهيلات اللازمة للدراسة الجامعية أو العالية .

ب - حق الإشتراك فى إدارة مؤسسات التعليم العالى من خلال عضوية المجالس الأكاديمية وإتحادات الطلاب .

جـ - حق الأمن والأمان طيلة مدة دراسته سواء من حيث الحصول على المنح المالية والدراسية والأجازات الدراسية بمرتب وحضور فترات التدريب بإذن من جهة العمل كذلك والإمتيازات الضريبية .

الأساتذة :

كان الأساتذة في جامعات العصر الوسيط يخضعون لشروط قاسية . فقد كان على الأساتذة أن يتقيدوا بالمقررات وأن يوضحوها تماما وبدون مقدمات. ولم يكن هناك حذف فى المقررات أو تلاعب بالكلام . ولم يكن لأستاذ الجامعة أن يعطى نفسه أجازة . وكان له يوم واحد فقط فى شهر العسل . وليس له غيره لا فى مرض ولا فى صحة . وكان على الأستاذ أن يدفع تأمينا يعادل حوالى عشرة دولارات . وهو مبلغ كبير فى ذلك الوقت . وفى أجازة الصيف تعيد له النقابة

التأمين الذى دفعه . وكان يدفع له أجره مباشرة من الطلاب . وكان عليه أن يرفع مستواه ليصبح ملائما ومناسبا للأجر الذى يتقاضاه . ولم يكن هناك عذر للأستاذ الذى لا يذعن لنقابة الطلاب فكان مثل هذا الأستاذ العنيد أو غير الكفء يقاطع من الطلبة . وقد يطرد نهائيا . وفى نهاية القرن الثالث عشر بدأت جامعة بولونيا تدفع لإثنين من أساتذتها أجورهم من ميزانية السلطة المحلية. ولكن ظل إختيار الأساتذة كالسابق إمتيازاً وحقا للطلاب . لأن الأستاذ يقوم بعمل يخصهم . وكان من الطبيعى ومن قبيل الدفاع عن النفس أن تنشأ نقابات للأساتذة بخاصة عندما بدأ إهتمام أصحاب الحرف والصناعات بإنشاء النقابات التى تدافع عنهم .

وبمرور الزمن إبتدأت نقابات الأساتذة ونقابات الطلاب تندمج معا . ومن هذا الإندماج ظهرت جامعة بولونيا بتعاون من جميع الأطراف . ولم تقتصر على تعليم القانون فحسب وإنما شملت أيضا الآداب والطب والعلوم وبعد ذلك علم اللاهوت . وما مر القرن الثالث عشر حتى كانت جامعة بولونيا تقبل فى دراستها النساء كطالبات أولا للدراسة وبعد مرور قرن قبلتهن الجامعة كأستاذات يقمن بالتدريس فيها . وهى ممارسة إعتقد العالم الغربى آنذاك أنها محفوفة بالمخاطر .

لقد حرص الأساتذة فى جامعة باريس على حماية حريتهم الأكاديمية الجامعية. وقد ساعد على ذلك وجود التيارات الطائفية التى كانت توجد فى إيطاليا وتسيطر على جامعاتها على الرغم من أن جامعة باريس كتب تاريخها نخبة هائلة من الأساتذة الكبار فى علم اللهوت . وكان مدير الجامعة رجل دين . وكان من حقه وحده أن يمنح الدرجات . ومع مرور الوقت بدأ نفوذ الكنيسة ينحسر فى الوقت الذى بدأ فيه الملوك يعززون نفوذهم فوجدها الأساتذة فرصة مناسبة للتخلص من الخضوع المطلق للكنيسة .

لقد حافظ الأساتذة على مقدار مقبول من الحرية مما جعل باريس بصورة عامة تختلف عن بولونيا وساليرنو ولا تخضع للتأثيرات العلمانية . وقد اشتهرت هذه الجامعة الحفيدة لجامعة نوتردام في علم اللاهوت . ولو تفحصت قائمة الأساتذة بعناية فإنك ستجد قائمة لأعظم الخبراء في العلوم الإلهية مثل أبيلارد وتوماس الأكويني ، وروجر بيكون وغيرهم . وكان من حق مدير الجامعة (الإداري) وهو

في نفس الوقت قاضي القضاة في الكاتدرائية أن يمنح الألقاب العلمية بما يمكن أن نسميه في هذه الأيام الترخيص بالتعليم في أي بقعة من العالم المسيحي . وعلى الرغم من أن الأساتذة الباريسيين لم ينجحوا تماما في التخلص من قوة النفوذ الكنسي إلا أنهم استطاعوا المحافظة على الاستقلال الذاتي . وأخيرا أصبح عميد كلية الآداب رئيسا للجامعة . وأصبح بمثابة القائد الذي يدير شئونها بالإسم والفعل . ووجد أساتذة باريس بحكم صداقتهم للبابوات لسنوات طويلة أنه من الممكن تقوية ودعم قضيتهم بصورة منطقية وأحيانا بصورة مكتوبة . ومع مرور الزمن ومع إزدياد نفوذ وقوة الملك استطاعت الجامعة الابتعاد قليلا عن نفوذ البابا والوقوف في صف السلطة في نزاعها مع الحبر الأعظم . وما إن حل عام ١٢٢٢ حتى كانت جامعة باريس تأخذ على البابا الإفتاء في الموضوعات الدينية مع عدم حصوله على درجة علمية في اللاهوت . وهو ما يشير إلى درجة الجرأة والشجاعة التي وصلت إليها الجامعة آنذاك .

إدارة الجامعات :

اختلفت إدارة الجامعات الأولى فيما بينها من بلد لآخر ، ومن جامعة لأخرى. وكان هناك دائما صراع بين المدعين بالسلطة على الجامعة . وقد تنازع السلطة الأساتذة والطلاب . ففي إيطاليا وجنوب أوربا كانت السلطة في يد الطلاب . أما في باقي أوربا فكانت السلطة في يد الأساتذة . وفي بعض الجامعات كان الطلاب يوقعون العقوبات على الأساتذة إذا خالفوا القواعد التي وضعها الطلاب ،ومن بينها التأخير عن المحاضرات . بيد أن التطلع إلى فرض السلطة على الجامعات جاء من جانب السلطة الدينية في الوقت الذي لم تظهر فيه السلطة المدنية إلا رغبة قليلة في حرمان الجامعات من استقلالها الذاتي . ونحن نعلم أن الإشراف على مدارس الكاتدارائيات كان في يد الأساقفة المحليين ومساعديهم الذين كانوا أنفسهم نظار هذه المدارس . ومع أن بعض الجامعات ـ كما في اسكتلندا مثلا ـ أنشئ بواسطة الأساقفة المحليين فإن كثيرا من الجامعات كانت تحرص على استقلالها عن سلطة رجال الكنيسة المحليين على أساس أن هذه الجامعات تستمد وجودها وامتيازاتها من البابا أو الإمبراطور أو الملك وليس من الأسقف المحلي . وعلى كل حال فإن مدير الجامعة الإداري باعتباره ممثلا للأسقف المحلي حظي بنفوذ أكبر في الجامعات التي يعين فيها من قبل الأسقف . وعندها

لم يكن يتمتع بأي سلطة كنسية على الجامعة ،وإن ظل محتفظا بنفسه كرجل للكنيسة . وكانت وظائفه تحددها قوانين الجامعة . وهي قوانين ملزمة للأساتذة والطلاب والموظفين على السواء . وكان الاتجاه في كل الجامعات هو تقييد سلطة المدير الإداري . ومع مطلع القرن السادس عشر كانت أهم الوظائف التي تركت له عمل الترتيبات للامتحانات ومنح الشهادات للخريجين . ومنذ ذلك التاريخ أصبح للأساتذة السلطة العليا في إدارة الجامعة . وكانوا قادرين على تحدي أي سلطة أو تدخل في شئون الجامعة من جانب السلطة الدينية أو المدنية أو المحلية . بل إن الصراع ضد هذه السلطات عمل على توحيد الجامعة وبالتالي قوى من نفوذها . بيد أن تهديد استقلال الجامعات الأول جاء من جانب السلطات المحلية أكثر من كونه من جانب الباباوات أو الأباطرة . ففي بولونيا أثار الطلاب هذا التهديد بأعمالهم التي أدت إلى قيام السلطات المدنية بدفع رواتب الأساتذة . ولكن مع هذا تركت هذه السلطات الجامعة تتمتع بحريتها . وفي جامعة باريس نجد أن البابا وقف بجانب الأساتذة في خلافهم ضد المدير الإداري والأسقف . إلا أن ما تمتعت به الجامعات من استقلال وحرية انتهى في عصر الإصلاح الديني عندما تسلط الملوك ورجال الكنيسة على الجامعة . واستولوا على السلطة من الأساتذة. وحولوا الجامعات لخدمة الدولة والكنيسة في العالم الكاثوليكي والبروستانتي على السواء . ولكنها ظلت مع هذا تتوق إلى تحقيق حريتها واستقلالها الذي افتقدته .

الامتحانات والدرجات العلمية :

لم تكن الدرجة الجامعية الأولى التي نعرفها الآن وهي درجة الليسانس Lis-cence أو البكالوريوس Bachelor of Art or Science معروفة في البداية في الجامعات في العصر الوسيط . وإنما كانت الجامعات تمنح درجة الماجستير أو الدكتوراه لمن يتم دراسته بها . وكانت درجة الدكتوراه تمنح من الكليات الممتازة . وقد ظهرت درجة الليسانس Liscence عندما سمح للطالب الذي قضى أربع أو خمس سنوات في الدراسة بأن يحاضر لعدة سنوات قبل تخرجه . وكان هذا المحاضر يلقب باسم Bachelor . وهو لقب كان يحمله الشباب من الفرسان الذين يعملون في خدمة الفرسان الأكبر منهم.ومع الزمن أصبح على هؤلاء المحاضرين أن يجتازوا امتحانا رسميا لاختيارهم . ومن ينجح منهم كان يعطى لقب Bachelor .

وكان الامتحان عبارة عن مناقشة بين الطالب وأستاذه إلى جانب امتحان في كتب معينة بواسطة لجنة من الممتحنين . هذا بالإضافة إلى رسالة علمية يقدمها ويدافع عنها دفاعا طويلا مفصلا ضد خصومه ومعارضيه . وكان الطالب العادي ينهي دراسته للدرجة الجامعية الأولى في سن التاسعة عشرة تقريبا . وهو سن يعتبر صغيرا بالنسبة لزميله خريج الجامعات المعاصرة .

وكان على الطالب أن يحصل على شهادة ليسانس الآداب بعد أربع أو خمس سنوات من الدراسة . وللحصول على شهادة الماجستير في الآداب كان عليه أن يقضي من ثلاثة إلى أربع سنوات أخرى . أما للحصول على درجة الدكتوراه في التخصص فكان عليه أن ينضج علميا وأن يصبح خبيرا في اختصاصه لاسيما إذا كان علم اللاهوت . وفي باريس كان من الممكن الحصول على الماجستير في علم اللاهوت في ثمان سنوات . إلا أن نتائج النجاح لم تكن مضمونة . فكانت الدراسة تمتد لكي ينضج الطالب في علم اللاهوت حتى تصل إلى ما لا يقل عن أربعة عشر عاما . ولا يستطيع أن يحصل على شهادة الدكتوراه في العلوم المقدسة ما لم يستطع التفوق على ٣٥ آخرين . وكان على المرشح لدرجة الدكتوراه أن يدافع عن أطروحته أمام الجمهور . وكانت المناقشة تبدأ من السادسة صباحا بطرح الأسئلة من قبل اللجنة الفاحصة . وتمتد إلى نصف يوم على الأقل . وإذا استطاع المرشح أن يدافع عن نفسه بنجاح فإنه يحق له أن يزهو بنفسه وأن يلبس رداء الجامعة وبذلتها الخاصة المزينة بالريش ويسير في طريقه إلى الكاتدرائية حيث يتم قبوله رسميا في زمرة الأساتذة . ويقوم القس بطبع قبلة على جبينه أمام الجمهور ومنحه البركة . وتقام وليمة على نفقة الطالب تضم الأساتذة الحائزين على درجة الدكتوراه . كما كان يقوم بدفع أجر الاستحمام من جيبه الخاص لمن تمتع مسبقا بحمام . فلقد كان الاستحمام ترفا في تلك الأيام . وكانت الامتحانات كما يحدث في هذه الأيام لاتنتهي دائما بنهاية مفرحة . فبعض الطلاب يستسلم لإهماله وعدم نجاحه . وفي بعض الأحيان كان يرسب لعدم قدرته العقلية . وفي مثل هذه الأحوال لاحاجة إلى وليمة بالطبع . وإذا رفض الطالب أو فشل يقوم الأساتذة بعمل الوليمة على نفقتهم حتى يؤمنوا سلامة أنفسهم على الرغم من أن الطالب ملتزم بيمين أداه من قبل أن يمتنع في حالة فشله في الامتحان عن التهجم على الممتحنين بسكين أو خنجر أو ماشابه ذلك .

الفصل الثامن

التربية الإسلامية : أصولها وتطورها

مقدمة :

قد يعجب دارس تارسخ التربية من إغفال مراجع تاريخ التربية المؤلفة في الغرب لموضوع التربية الإسلامية على الرغم من أن التر بية الإسلامية قد عاشت أزهى فتراتها ف وقت خيم فيه ظلام العصور الوسطى على الغرب . وإذا كانت هذه الفترة من الظلام قد ميزت القرون الخمسة الأولى من العصور الوسطى في الغرب فإن شمس الحضارة كانت تشرق عالية في الشرق . بل إن النهضة الأوربية التي بدأت في النصف الثاني من القرون الوسطى قد اعتمدت في غذائها الثقافي والفكري على نتاج الثقافة العربية الإسلامية إبان عصرها الذهبي .

ولعل العذر في هذا الإغفال من جانب المؤلفين الغربيين يرجع إلى عدم اهتمامهم بالموضوع رغم أهميته أو لجهلهم به ، أو ربما لتحيزهم وتعصبهم في بعض الأحيان . ويذكر كاتب هذه السطور أنه عندما قام مع زميلين له بترجمة كتاب التاريخ الاجتماعي للتربية لمؤلفه روبرت بك من الإنجليزية إلى العربية تم الاتصال بالمؤلف الأمريكي لاستئذانه في الترجمة العربية مع طلب مقدمة منه لهذه الترجمة . وقد استجاب المؤلف وعبر عن إحساسه بهذا النقص في الكتاب وعلل ذلك بعدم معرفته بهذا الجانب الهام من التربية في الشرق . وقد نشرت الترجمة ولم تنشر معها المقدمة لأنها وردت متأخرة .

وقد تكون دهشة دارس تاريخ التربية أشد عندما يرى أن المؤلفات العربية تعالج موضوع التربية الإسلامية عند الكلام عن التربية في العصور الوسطى وكأن دراسة الموضوع تقف عند هذه الفترة الزمنية . صحيح أن التربية الإسلامية عاشت أزهى عصورها في هذه الفترة التي أعقبتها فترة تدهور وإنحطاط ولكن هذا لا يقلل من دراسة التربية الإسلامية خلال هذه الفترة لمتابعة تطورها ونمو اتجاهاتها حتى نأتي إلى العصور الحديثة لتكتمل الصورة .

وللأسف الشديد ما زالت الفجوة في تتبع دراسة تطور التربية الإسلامية حتى العصور الحديثة قائما . ولا توجد حتى الآن محاولة جادة في هذا الاتجاه . وليس من قبيل التواضع القول بأن ما يقدمه المؤلف في هذا الكتاب ليس إلا خطوة على

الطريق أو هي جهد المقل إن صح هذا التعبير . وسنعرض في الصفحات التالية لمكانة العلم في الإسلام ولأهداف التربية الإسلامية والأسس والمقومات التي تستند إليها ثم نتناول مراحل تطورها . ولكن دعنا نقدم لذلك بكلمة واحدة مركزة عن تربية العرب قبل الإسلام .

تربية العرب قبل الإسلام :

إعتمدت التربية عند العرب قبل الإسلام على التقليد والمحاكاة . فكان الصغار ينشأون على تقليد ومحاكاة الكبار . وكانت القبيلة وما بها من عشائر وبطون تقوم بتعليم صغارها وفقا للمبادئ والقيم الاجتماعية السائدة في القبيلة . فكان للعرب قيمهم التي كانوا يفتخرون بها ويتغنون بها في أشعارهم .

أما العلوم التي كانوا يعرفونها فيقول الشهرستاني في " الملل والنحل " : «إعلم أن العرب في الجاهلية كانت على ثلاث أنواع من العلوم . أحدها علم الأنساب والتواريخ والأديان . وثانيها علم الرؤيا . وأما النوع الثالث فهو علم الأنواء . وذلك مما يتولاه الكهنة ». أما الشعر فهو ديوان العرب وكانوا يتطارحونه في الأسواق .

وكان العرب في جاهليتهم أميين لايعرفون القراءة والكتابة لاعتمادهم على المشافهة والرواية في النقل . وكان للشعر رواته الذين يحفظونه ويروونه . ولكن هذا لايعني عدم وجود من يعرف القراءة والكتابة وإن كان عدد هؤلاء قليلا . ويشير ابن خلدون إلى أن أهل الحجاز تعلموا الكتابة من أهل الحيرة . وهؤلاء تعلموها من الحميريين . ويقول الجاحظ في البيان والتبيين إن العرب كانوا أميين لايكتبون .ولذا لم يكن لهم كتب موروثة فلم يحفظوا إلا ما علق بقلوبهم والتحم بصدورهم . ويروي لنا البلاذري في " فتوح البلدان " أن الإسلام دخل وفي قريش سبعة عشر رجلا كلهم يكتب وهم عمر بن الخطاب وعلي بن أبي طالب وعثمان بن عفان وأبو عبيدة بن الجراح وطلحة بن الزبير ويزيد بن أبي سفيان وأبو حذيفة بن عتبة بن ربيعة وحاطب بن عمرو وأبو سلمة بن عبد الأسد المخزومي وأبان بن سعيد بن العاص وأ خوه خالد بن سعيد وعبد بن سعيد بن أبي سرح العامري وخويطب بن عبد العزي العامري وأبوسفيان بن حرب ومعاوية بن أبي سفيان وجهيم بن الصلت والعلاء بن الحضرمي .

ويروي أيضا أن قليلا من نساء العرب كن يعرفن الكتابة منهن " حفصة بنت عمر " إحدى زوجات النبي ﷺ . وكانت عائشة أم المؤمنين تقرأ ولا تكتب وكذلك أم سلمة وهما أيضا من زوجات النبي .

ويروي البلاذري أيضا أن بعض اليهود كان يعلم الصبيان بالمدينة الكتابة العربية في الزمن الأول قبل الإسلام . وهكذا كانت معرفة الكتابة والقراءة مقصورة على عدد قليل جدا من العرب قبل الإسلام . وكان ظهور الدين الإسلامي مرحلة جديدة للمجتمع العربي ومعها بدأت صفحة جديدة لتربية جديدة قوامها الإسلام الذي أكد منذ البداية على العلم والمعرفة كقيم رئيسية في هذه التربية الجديدة .

يقول ابن خلدون (ص٤٤٦) : « لما كانت العرب أمة أمية سمي منهم من يقرأ القرآن باسم قارئ والجمع قراء . واختص من كان قارئا للكتاب بهذا الاسم لغرابته يومئذ . وبقي الأمر كذلك صدر الملة » . ويقول في ص (٤٤٦) إن القرآن الكريم عمل على محو أمية العرب . وذهبت الأمية عنهم بممارسة الكتاب . . . وعندما أصبح علم الفقه صناعة تبدل اسم القراء بالفقهاء والعلماء » .

مكانة العلم في الإسلام :

لقد ضرب الإسلام مثلا فريدا يستحق الإعجاب على اهتمامه بقيمة العلم والعلماء . والقرآن الكريم والسنة الشريفة ، بل وتاريخ الإسلام نفسه حافل بالأمثلة التي لايعيها الحصر . فقد كانت أول أية نزلت على الرسول ﷺ « أقرأ باسم ربك » . والإسلام لايسوي بين الذين يعلمون والذين لايعلمون . وفضل الله الذين أتو العلم درجات . وجعل العلماء ورثة الأنبياء . وقد فضل الرسول ﷺ مجلس العلم على مجلس الذكر . وساوى مداد العلماء بدماء الشهداء . وورد عنه قوله عليه الصلاة والسلام « من سلك طريقا يلتمس فيه علما سهل الله به طريقا إلى الجنة » . وأمرنا ديننا بأن نحرص على طلب العلم وأن نتحمل كل مشقة في سبيله . وقد ورد في تراثنا طلب العلم فريضة على كل مسلم (ومسلمة) . و« أطلبوا العلم ولو في الصين » . والمقصود هنا أن نستهون الصعاب في سبيله . وقال عليه الصلاة والسلام « من أراد الدنيا فعليه بالعلم ومن أراد الآخرة فعليه بالعلم » . وقد روي عن النبي ﷺ قوله : « فضل العالم

على العابد كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب » . وقوله ﷺ « إن الحكمة تزيد الشريف شرفا وترفع المملوك حتى يدرك مدارك الملوك » . وورد عن أبي ذر الغفاري أن النبي ﷺ قال : « حضور مجلس علم أفضل من صلاة ألف ركعة وحضور مجلس علم أفضل من عيادة ألف مريض وحضور مجلس علم أفضل من شهود ألف جنازة » . فقيل يا رسول الله ومن قراءة القرآن ؟ فقال النبي ﷺ « وهل تنفع قراءة القرآن إلا بعلم » . ويقول الغزالي في إحياء علوم الدين « إن العلم فضيلة في ذاته على الإطلاق فأصل السعادة في الدنيا والآخرة هو العلم فهو إذن أفضل الأعمال » .

ومما يروى أن علي بن أبي طالب رضي الله قال لكميل النخفي : «ياكميل إن هذه القلوب أوعية فاحفظ عنى ما أقول : الناس ثلاثة : عالم رباني. ومتعلم عنده سبيل نجاة وهمج رعاع أتباع كل ناعق مع كل ريح يميلون لم يستضيئوا بالعلم ولم يركنوا إلى ركن وثيق . يا كميل العلم خير من المال . العلم يحرسك وأنت تحرس المال . والمال تنقصه النفقة والعلم يزكو بالإنفاق . ياكميل محبة العلم دين يدان . به يكسب المرء الطاعة في حياته وجميل الأحدوثة بعد وفاته . ومنفعة المال تزول بزواله . والعلم حاكم والمال محكوم عليه . ياكميل مات خزان المال وهم أحياء . والعلماء باقون ما بقي الدهر ».

وروي عن مصعب بن الزبير قوله : « تعلم العلم فإن لم يكن لك جمال كان لك جمالا وإن لم يكن لك مال كان لك مالا » . وروي عن سلمان الفارسي أنه كتب إلى أبي الدرداء . « إن العلم كالينابيع يغشى الناس فيختلجه هذا وهذا فينفع الله به غير واحد . وإن حكمة لا يتكلم بها كجسد لا روح فيه . وإن علما لايخرج ككنز لاينفق . وإنما مثل العلم كمثل رجل عمل سراجا في طريق مظلم يستضئ به من مر به وكل يدعو إلى الخير » .

وقد ورد عن هارون الرشيد أنه قبل الجزية كتبا . بل ودفع هو وإبنه المأمون وزن ماترجم ذهبا . وهذا دليل واضح على اهتمام خلفاء المسلمين بالعلم وتقديرهم لأهميته وما هذه إلا أمثلة معدودة من أمثلة أخرى لا حصر لها أردنا بها أن نؤكد حرص الإسلام على العلم وتقديره لقيمته وقيمة المشتغلين به .

ومن مظاهر اهتمام المسلمين بالعلم الارتحال في طلبه . فقد كان العلماء ينتقلون من مكان لآخر إستزادة في العلم ونشرا له . وقد ورد عن النبي ﷺ قوله

« لاينال العلم براحة الجسم » . و « ومن سافر في طلب العلم كان مجاهدا في سبيل الله » . و « من مات وهو مسافر بطلب العلم كان شهيدا » .

وكما يجب على المتعلم أن يلح في طلب العلم يجب على صاحب العلم ألا يخفيه عن الناس . يقول تبارك وتعالى : « إن الذين يكتمون ماأنزلنا من البينات والهدى بعد ما بيناه للناس في الكتاب أولئك يلعنهم الله ويلعنهم اللاعنون » . ووي عن النبي ﷺ قوله : من علم علما فكتمه ألجمه الله يوم القيامة بلجتام من نار . وقوله ﷺ : « لا تمنعوا العلم أهله فإن في ذلك فساد دينكم وإلتباس بصائركم » .

ومن مظاهرالاهتمام بالعلم وتقديره عند المسلمين ما يشير إليه النقش الذي كتب على مدخل جامعة غرناطة الأندلسية الإسلامية والذي يقول : « يقوم استقرار العالم ونظامه على أربعة أسس : علم الحكماء وعدل الملوك وصلاة العابدين وبأس الشجعان » .

فضل المسلمين على العلم :

إن فضل المسلمين على العلم لايحصى . فقد ألف العلماء العرب والمسلمون في العلوم المختلفة ومنها النبات والحيوان والكيمياء والصيدلة والطب والفلك والموسيقى وفي علوم البحار والهندسة وحساب المثلثات وغيرها . كما لايجحد فضل ابن سينا والبيروني والكندي والغافقي والفارابي والبغدادي والقزويني والجاحظ والخازن وجابر بن حيان وابن البيطار وابن ماجد ملاح فاسكو دي جاما والرازي والمقدسي والبتاني وموسى بن شاكر وغيرهم .

وظلت مؤلفات العرب والمسلمين في مختلف العلوم والمعرفة المراجع التي تدرس في جامعات أوربا حتى القرن الثامن عشر .واعترف عدد كبير من مؤرخي العلم بفضل المسلمين والعرب على العالم والإنسانية . وكان لهم باع كبير في كل الميادين من أمثلة ذلك أنهم تكلموا عن التطور من وجهة النظر الإسلامية قبل داروين في القرن التاسع عشر . وقد كتب في التطور ابن مسكويه وإخوان الصفا . وتحدث المسلمون من أمثال ابن خلدون عن أثر البيئة على الأحياء فهوبذلك سابق للامارك وداروين . وتحدث علماء العرب عن الجاذبية فابن الخازن كتب عنها قبل نيوتن بمئات السنين .

وابن النفيس شرح الدورة الدموية الصغرى قبل هارفي بقرون . والحسن بن الهيثم كتب عن الضوء وانكساره وقوانينه وسرعته قبل علماء أوربا . كذلك أضاف القباني والفرغاني والكندي والصوفي كثيرا من المعارف الفلكية والرياضية . وابتدع الخوارزمي استعمال الأرقام في الحساب . واختارسلسلته من الأرقام الأولى ما يعرف بالأرقام الهندية ١ ، ٢ ، ٣ . والثانية ما يعرف بالأرقام (الغبارية) العربية 3 - 2 - 1 . وتستعمل الأولى في البلاد العربية والثانية في بلاد المغرب العربي وأوربا . وكذلك أنشأ الخوارزمي من الحساب والجبر علما بعد أن كانا مجرد معلومات مشتتة . والعرب أول من أطلقوا اسم الجبر على هذا العلم .كما استعملوا الصفر والإحصاء العشري . وكان الخوارزمي رياضي بلاط المأمون الذي كلفه بأن يؤلف رسالة في الجبر تكون صالحة لاستعمال الجمهور . ومن هذه الرسالة استطاع الغرب أن يطلع على هذا العلم بعد زمن طويل .

وفي الطب والصيدلة قضى الإسلام على الكهانة . وحارب التنجيم والشعوذة وقاوم استخدام السحر في معالجة الأمراض . واتجه المسلمون بالطب من الخرافة والشعوذة إلى الطب العلمي التجريبي . واستعانوا بالآلات في طب المستشفيات والبيمارستانات . وكان لهم السبق في وضع نظام الترخيص الشرعي لممارسة الطب والصيدلة . وهم بذلك أول من ارتقى بالطب إلى المهنة القائمة على الاحترام والاحتراف معا . هذا في الوقت الذي حرمت فيه الكنيسة في أوربا طب علاج الأمراض لأن المرض عقوبة من الله .

ومن أعلام الطب التجريبي في الإسلام الشيخ الرئيس أبن سينا أعظم من كتب في الطب في العصر الوسيط . وقد ولد فيّ ممشنٌ ببخارى عام ٩٨٠م . وتوفي في همذان عام ١٠٣٧م . وهو من أعظم علماء الإسلام . فهو أول من جعل للتجربة مكانا عظيما في دراساته وطبه . ومن أشهر كتبه " القانون " في قواعد الطب بأجزائه الخمسة . واهتم به علماء اوربا وترجم إلى اللاتينية وطبع في أوربا حوالي خمسة عشرة مرة . وظل المرجع الذي يدرس في الطب في جامعات أوربا حتى القرن الثامن عشر ، أي طيلة ستة قرون . كما ظل يستخدم حتى القرن التاسع عشر في كلية طب مونبليه التي أنشأها العرب قبل ذلك بألف سنة. وله أيضا كتاب " الأدوية القلبية " وعدد من القصائد في الطب . وله بالطبع كتب أخرى .

وعلى بن العباس الذي عاش في أواخر القرن العاشر الميلادي طبيب آخر نال شهرة كبيرة . وهو صاحب مؤلف كامل في الطب سماه " الملكي " ويشتمل على عشرة أجزاء في الطب النظري وعشرة أجزاء في الطب العملي . وأوضح في كتابه أخطاء كثيرة لبقراط وجالينوس وأريباسيوس . وترجم هذا الكتاب إلى اللاتينية عام ١١٢٧م . وطبع في ليون عام ١٥٢٣ م . ومنهم ابن زهر الأشبيلي الطبيب اللامع في القرن الثاني عشر وأستاذه ابن رشد الذي حجبت شهرته شارحا لأرسطو مكانته العلمية كطبيب . ولإبن رشد شرح على " القانون " لإبن سينا وعلى مؤلفات جالينوس . وله أيضا رسالة في " الترياق "وكتاب في السموم والحميات.

ومن الكتب الهامة التي شاعت في العالم اللاتيني بين أطباء القرون الوسطى كتاب " زاد المسافر " من تأليف ابن الجزار عام ١٠٠٩م . وقد ترجم إلى اللاتينية وفيه شروح للأمراض الباطنية . وكتاب ابن زهرة " التيسير في المداواة والتدبير " وهو مؤلف في فن الاستشفاء . وكتاب " التذكرة " أو " تذكرة الكحالين " لعلي بن عيسى أعظم أطباء العيون في القرون الوسطى . وقد ولد في أوائل القرن العاشر ببغداد وظل كتابه يدرس في أوربا حتى القرن التاسع عشر . وكتاب "الحاوي " أضخم مؤلف طبي لمؤلفه أبو بكر الرازي الذي كان حجة الطب في أوربا وأعظم أطباء القرون الوسطى لدرجة سمي معها جالينوس العرب . وقد ترجم الكتاب إلى اللاتينية . وكان مرجعا لعلماء أوربا والمدارس والجامعات حتى منتصف القرن الرابع عشر . وهو يعتبر مؤسس الكيمياء الحديثة في الشرق والغرب . وكتاب " التصريف لمن عجز عن التأليف " لأعظم جراحي المسلمين أبي القاسم خلف بن عباس الزهراوي من الزهراء إحدى ضواحي قرطبة بالأندلس المتوفي عام ١٠١٣م . وهو أشهر كتاب في الجراحة في أوربا طيلة خمسة قرون . وقد ترجم إلى اللاتينية عام ١٤٩٧م . وقد شغل العرب بالطب منذ القرون الأولى للهجرة . ولخص أبن أبي أصيبعة في كتابه " طبقات الأطباء " تراجم أكثر من ٤٠٠ طبيب ومؤلفاتهم .

وعرف عن المسلمين أنهم أول من أنشأ فن الصيدلة وتحضير الأقربازين أي الأدوية .ويقال إن ابن البيطار أكتشف ما يقرب من ألف وأربعمائة دواء من النباتات . كما عرف المسلمون الرقابة على الصيادلة والصيدليات . وكانوا أول من أسس مدارس الصيدلة ووضع المؤلفات فيها . كما أنهم عرفوا التخدير في

العمليات الجراحية .

وفي الفيزياء والكيمياء يعتبر العرب مؤسسين حقيقيين لها . إلا أنه ضاع كثير من المؤلفات العربية الهامة في علم الفيزياء ولا تعرف بعضها في الوقت الحاضر إلا بعناوينها فقط . بيد أن ما وصل إلينا بالفعل من هذه المؤلفات العربية يشيد بطول باع العرب في هذا المضمار . وليس من المبالغة القول بأنه لاوجود للكيمياء كعلم قبل العرب وإن وجدت كممارسة عند المصريين القدماء .

وكان علم الفلك أول ما جذب اهتمام علماء المسلمين . وقد عني به كثير منهم في المشرق والأندلس وكذلك كثير من السلاطين السلجوقيين الجنكيزيين والتيموريين . وكان لجميع المدن الكبرى في الأمبراطورية الإسلامية مراصدها . ومن أشهرها مرصد بغداد والقاهرة وقرطبة وطليطلة وسمرقند . ونالت مدارس الفلك ببغداد والقاهرة والأندلس بصفة خاصة شهرة كبيرة . ومع أن العلماء المسلمين اتخذوا من مؤلفات علماء اليونان نقطة لانطلاق دراستهم إلا أن هؤلاء العلماء لم يتقيدوا بالقواعد المقررة في هذه المؤلفات . فقد انتقدوا بشدة نظريات بطليموس على سبيل المثال . وكان لهذا التحرر الفكري للعلماء المسلمين أثره الكبير في تحقيق اكتشافات علمية هامة في ميدان الفلك . ومن أشهر الفلكيين في القاهرة ابن يونس عالم أوائل القرن الحادي عشر مخترع المزولة وابن الهيثم الذي ألف أكثر من ٨٠ كتابا من أهمها مجموعة الأرصاد الفلكية وتفسير المجسطي وتفسير آخر للتعاريف في مبادئ إقليدس ورسالة البصريات . وقد كان أول من أوصى بإنشاء سد أسوان لرفع مستوى النيل .

وكان للعرب فضل كبير في الجغرافيا ويرتبط فضلهم بالجغرافيا بفضلهم في علم الفلك . ولعل رسالة النضر البصري التي ظهرت عام ٧٤٠م أقدم كتاب عربي في الجغرافيا . ثم يأتي وجيز الإصطخري الذي نشر في منتصف القرن التاسع الميلادي . وكان الولع بالأسفار والرحلات من أبرز صفات العرب المسلمين . وكتبوا بها أنصع الصفحات في تاريخ الحضارة البشرية . وكان للملاحة العربية دور هام ويكفي أن نشير إلى أنه مع التفوق الكبير الذي أحرزته أسبانيا والبرتغال في القرن الخامس عشر والسادس عشر كانت السيادة البحرية للعرب . بل إن الملاح الذي مكن فاسكو دي جاما البرتغالي من الوصول إلى الشرق كان الملاح العربي أحمد بن ماجد الملقب برابع ليوث البحر . ومن المعروف أن المسلمين

كشفوا منابع نهر النيل قبل الإفرنج .

وكانت مؤلفات المسعود وابن حوقل والإصطخري عامرة بالمعلومات القيمة عن شتى الأماكن والحياة والطباع لدى سكان البقاع البعيدة . فالمسعودي الذي ولد ببغداد في أواخر القرن التاسع الميلادي وتوفي في القاهرة عام ٩٥٦م مؤلف " مروج الذهب " قضى مايقرب من ربع قرن من حياته في الأسفار في شتى أنحاء الخلافة. فزار الهند وسيلان ومدغشقر وزنجبار . وشرح في مروج الذهب وصف المسالك والدول والبلدان والجبال والوديان والأنهار وشعوب العرب والعجم . والإدريسي الذي ولد في سبتة بالأندلس عام ١٠٩٩ م درس في قرطبة . ثم استقر به المطاف ليعمل في جزيرة صقلية في بلاط ملكها "روجر " كان حلقة الوصل بين جغرافية المدرسة اللاتينية وجغرافية المدرسة الإسلامية . وكان الأستاذ الذي علم أوربا هذا العلم طيلة ثلاثة قرون . ولم تكن لأوربا خريطة للعالم إلا ودرسها الأدريسي . ولم يقع الإدريسي في الأخطاء التي وقع فيها بطليموس في كتابه المجسطي . ومن المعروف أن العرب صححوا ما في هذا الكتاب من أخطاء. وعملوا جداول فلكية مدققة . بل إن كتاب الإدريسي يعتبر أكمل بحث جغرافي ورثته أوربا عن العرب . وهو ما جاء على لسان دائرة المعارف الفرنسية .

وابن بطوطة أكثر رحالة المسلمين شهرة قام بعدة أسفار في طول القارات وعرضها . وقد ولد في طنجة بالمغرب عام ١٣٠٤م وجاب شمال إفريقيا ومصر وزار مكة وسوريا وفلسطين . وزار آسيا الصغرى والقسطنطينية والهند مارا بنهرالفولجا في روسيا . وزار خوارزم وبخارى وأفغانستان والصين وسيلان والبنغال وكثيرا غيرها . وكان المسلمون حيث ينزلون يمهدون السبل ويعمرون المرافق ويقيمون الفنادق والرباطات ويرتبون سير القوافل.كما كانت المدن الإسلامية أوساطا تجارية كبرى .

ويلمع ابن مسكويه وهو من أعظم علماء الأخلاق في الإسلام . وله كتاب تهذيب الأخلاق . ولايعرف شيئ كثير من حياته فمنها أنه كان خازنا لدى السلطان البويهي عضد الدولة . وأنه مات عام ١٠٣٠م . وفي كتابه " تجارب الأمم "يبحث ابن مسكويه في تاريخ قدماء الفرس وفي تاريخ العرب حتى عصره.

وفي التاريخ هناك أبو جعفر الطبري (٨٣٩ - ٩٢٢م) صاحب التاريخ المشهور وابن الأثير المولود عام ١١٦٠م الذي واصل تاريخ الطبري ووضع خلاصة

واضحة لتاريخه وأضاف إليه أخبارا مستقاة من منابع أخرى .وامتد بالأحداث حتى ١٢٣٠م . كما أنه حوى أخبارا كثيرة عن الجزء الغربي من الدولة الإسلامية. وهناك أبو الفدا الأيوبي أمير حماة وكتابه " المختصر في أخبار البشر " الذي طبع في ليبزج عام ١٧٥٤م . وهناك المقري الذي هو أهم مؤرخي الأندلس الإسلامية وكتابه " نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب " نشر في ليدن عام ١٨٥٥م . ومنهم أيضا حاجي خليفة مؤرخ الحروب البحرية التركية ومؤلف الكتاب القيم المعروف " كشف الظنون " .

وفي السياسة والاجتماع نجد في القرن الثالث الهجري (التاسع الميلادي) الكندي من مشاهير رجال الفلسفة الإسلامية . وقد عني بالسياسة على الطريقة الإغريقية كعلم مستقل يشكل قسما من الفلسفة . وأبو نصر الفارابي أحد كبار الفلاسفة المسلمين ألف كتاب " المدينة الفاضلة " ويعبر فيه عن أهم آرائه وهي :

١ - أن الناس خلقوا ليعيشوا في جماعة .

٢ - غرض الدولة في نظره أخلاقي بحت هو أن تضمن للمواطنين حكومة كاملة في الدنيا وسعادة أبدية بعد الموت .

٣ - يجب أن يقوم بإدارة المدينة الفاضلة أو المثالية رئيس على درجة عالية من الذكاء والفهم والطلاقة . وأن يكن محبا للتعليم والاستفادة منه ، محبا للصدق ، عادلا قوي العزيمة .

٤ - يفضل النظام الملكي في الحكم إذا كان الملك جامعا للشروط السابقة . وأن كان ينتهي مثل أفلاطون إلى حكومة من الحكماء أوالجمهورية الأستقراطية.

وابن ظفر من عرب صقلية في القرن الثاني عشر الميلادي ويقرن كتابه "سلوان المطاع " بكتاب " الأمير " لمكيافيللي ، وفيه الكياسة والمكر في السياسة . والماوردي (٩٧٢ - ١٠٥٨م) كان فقيها وقاضيا كبيرا في أستوا القريبة من نيسايور وكتابه " الأحكام السلطانية " يتناول فيه نظم الدولة الإسلامية السياسية والاجتماعية والقضائية ويقول فيه : « إن الإمامة موضوعة لخلافة النبوة في حراسة الدين وسياسة الدنيا » . وقد ترجم هذا الكتاب إلى الفرنسية . وله أيضا كتاب عظيم النفع بعنوان " أدب الدنيا والدين " . وقد ترجم أخيرا إلى

الإنجليزية .

من هذا العرض السريع المركز يبدو بوضوح فضل العرب المسلمين على مختلف العلوم . والعجيب أنه رغم هذا الوضوح الزائد لموقف الإسلام من العلم وتلك النهضة العلمية التي شهدها ، نجد من بين المتعصبين ضد الإسلام من يتهمونه بمحاربة العلم . ويرجعون تخلف المسلمين إلى هذا السبب . وهذا إدعاء زائف لايستند إلى أساس ، واتهام باطل لا يحتاج تفنيده إلى جهد كبير . ويكفي أن أصحابه معروفون بتعصبهم .

إن تاريخ الإسلام بالإضافة إلى أنه شاهد عيان على تأكيد أهمية العلم وقيمته لايعرف مثلا واحدا على إضطهاد العلماء بالصورة التي نجد لها أمثلة كثيرة في أوربا . منها على سبيل المثال ما حدث لجاليليو الذي عوقب بالقتل لأنه قال بدوران الأرض حول الشمس ولم يسلم من إضطهاد الكنيسة . ومع أنه تراجع في الظاهر عن موقفه حتى يرضي الكنيسة فإنه بعد انتهاء محاكمته نظر إلى الأرض وقال « ومع ذلك فإنها تدور » . ومن أمثلة المتعصبين الذين ادعوا هذا الزعم الباطل ضد الإسلام " رينان " ورغم ذلك فقد اعترف بقيمة العلماء المسلمين فقال :

« أجل وجد في البلدان الإسلامية منذ سنة ٧٧٥م تقريبا حتى نحو أواسط القرن الثالث عشر أي خلال خمسمائة سنة علماء ومفكرون ممتازون » . بل إن من الغريب أن " رينان " نفسه وهو المعروف بتعصبه ضد العرب عبر عن حسرته أنه لم يكن مسلما وفي ذلك يقول أيضا :

« إنني لم أدخل مسجدا إلا وخررت خاشعا وشعرت بشيء من الحسرة على أنني لم أكن مسلما » (حيدر بامات : ص ٧٧) .

ونختتم كلامنا عن هذه النقطة باقتباس مما يورده محمد إقبال في كتابه "تجديد الفكر الديني في الإسلام " ، إذ يقول (ص ١٤٩) :

« لقد كانت أوربا بطيئة نوعا ما في إدراك الأصل الإسلامي لمنهجها العلمي. وأخيرا جاء الإعتراف بهذه الحقيقة . وسأتلو عليكم فقرة أو فقرتين من كتاب " بناء الإنسانية Making of Humanity الذي ألفه " بريفولت" (Briffault). يقول بريفولت إن روجر بيكون درس اللغة العربية والعلوم العربية في مدرسة

أكسفورد على يد خلفاء معلميه العرب في الأندلس . وليس لروجر بيكون ولا لسميه الذي جاء بعده في أن ينسب إليهما الفضل في ابتكار المنهج التجريبي . فلم يكن روجر بيكون إلا رسولا من رسل العلم والمنهج الإسلامي إلى أوربا المسيحية . وهو لم يمل قط من التصريح بأن تعلم معاصريه للغة العربية وعلوم العرب هو الطريق الوحيد للمعرفة الحقة . والمناقشات التي دارت حول واضعي المنهج التجريبي هي طرف من التحريف الهائل لأصول الحضارة الأوربية . وقد كان منهج العرب التجريبي في عصر بيكون قد انتشر انتشارا واسعا وانكب الناس في لهف على تحصيله في ربوع أوربا » .

لقد كان العلم أهم ما جادت به الحضارة العربية على العالم الحديث ولكن ثماره كانت بطيئة النضج . وإن العبقرية التي ولدتها ثقافة العرب في أسبانيا لم تنهض في عنفوانها إلا بعد مضي وقت طويل على اختفاء تلك الحضارة وراء سحب الظلام .

تأثير الفكر الإسلامي في الغرب :

إن التيار الرئيسي لتأثير الفكر الإسلامي في الغرب كان عن طريق الكتب العربية في العلوم الطبيعية والفلسفية وغيرها التي ترجمت إلى اللاتينية وغيرها. فترجمت كتب الرازي وابن سينا والغزالي والفارابي وغيرهم . وعن طريق ترجمة كتاب الخوارزمي دخلت الأرقام الهندية ـ العربية إلى بلاد الغرب . وقد أحدثت هذه التراجم كلها في أوربا اللاتينية ثورة عظيمة القدر ذلك أن تدفق النصوص العلمية من بلاد الإسلام واليونان كان له أعمق الأثر في استثارة العلماء الذين بدأوا يستيقظون من سباتهم . وكان لابد أن تحدث تطورات جديدة في النحو وفقه اللغة . ووسعت نطاق المناهج الدراسية . وأسهمت بنصيب في نشأة الجامعات ونمائها في القرنين الثاني عشر والثالث عشر الميلادي . وكان عجز المترجمين عن أن يجدوا مفردات لاتينية تؤدي المعاني التي يريدون نقلها إلى تلك اللغة هو الذي أدى إلى دخول كثير من الألفاظ العربية في اللغات الأوربية . ولم يكن هذا أكثر من حادث عارض في أعمال الترجمة . ولكن أهم من هذا أن الجبر وعلامة الصفر والنظام العشري في الحساب قد دخلت كلها في بلاد الغرب المسيحية بفضل هذه التراجم . وتقدم الطب من ناحيته النظرية العلمية تقدما عظيما بفضل ما قام به العلماء المترجمون اليونان واللاتين والعرب واليهود .

وكان لعلم الهيئة اليوناني والعربي شأن خطير وأحدث توسعا في علوم الدين . وكان ذلك إرهاصا بتغيير أوسع مدى جاء بعد عهد كوبرنيق . وإن في إشارات روجر بيكون المتكررة لابن رشد وابن سينا والفارابي دليلا على ما كان لهؤلاء العلماء من تأثير وحافز جديد . وفي ذلك يقول روجر بيكون نفسه : « لقد جاءت إلينا الفلسفة من العرب » . ومعروف أن الذي دعا توماس الإكويني لتأليف كتابه " الجامع في اللاهوت " هو أن يحول دون تسرب التفاسير العربية لأرسطو إلى علوم الدين المسيحية . وهكذا رد الإسلام إلى أوربا ما أخذه عن اليونان بطريق بلاد الشام (ديورانت : جـ ١٧ ص ٢١ - ٢٢) . كما قدم لها زادا علميا وفكريا اعتمدت عليه في اندفاعاتها القوية إبان عصر النهضة وما بعده .

الرحلة في طلب العلم :

حث الإسلام على طلب العلم ودعا إلى ألا يدخر الإنسان جهدا في سبيل تحصيله ولو كان في الصين . واعتبر السفر في طلب العلم جهادا في سبيل الله . وقد ورد عن النبي ص قوله : « من سافر في طلب العلم كان مجاهدا في سبيل الله ، ومن مات وهو مسافر يطلب العلم كان شهيدا ، فالحكمة ضالة المسلم المؤمن ينشدها حيث كانت » . وهكذا كانت الرحلة فى طلب العلم ملمحا متميزا للتربية الإسلامية منذ عصورها الأولى . وكان طلاب العلم يتكبدون الصعاب فى الإرتحال والأسفار ومع ذلك فإنهم كانوا يستهينون بكل صعب فى سبيل طلب العلم من مناهله ودراسته على أيدى المشاهير من رجاله .

وقد أفرد ابن خلدون فصلا فى أن الرحلة فى طلب العلوم ولقاء المشيخة مزيد كمال فى التعليم . وهو يشير إلى أن الرحلة لابد منها فى طلب العلم وإكتساب الفوائد والكمال بلقاء المشايخ ومباشرة الرجال . ويفسر ذلك بأن الرحلة فى طلب العلم تمكن الطالب من لقاء شيوخ كثيرين ولكل شيخ من مشاهير الشيوخ فى البلاد المختلفة طريقة خاصة فى البحث والدراسة والتعليم . ولهذا فإن مخالطة الطالب لهم واحدا بعد الآخر تفيده فى معرفة طريقة الدراسة التى يتبعها كل شيخ فى تدريسه . وما يتصل بها من التميز بين المفاهيم والمصطلحات العلمية . وهكذا يحصل الطالب على ملكية علمية أقوى مما لو درس على يد شيخ واحد . ويقول ابن خلدون :

« إن البشر يأخذون معارفهم وأخلاقهم وما ينتحلون به من المذاهب والفضائل تارة عملا وتعليما وإلقاء . وتارة محاكاة وتلقينا بالمباشرة . إلا أن حصول الملكات عن المباشرة والتلقين أشد إستحكاما وأقوى رسوخا . فعلى قدر كثرة الشيوخ يكون الملكات ورسوخها . فالرحلة لابد منها فى طلب العلم لاكتساب الفوائد والكمال بلقاء المشايخ ومباشرة الرجال » .

« وكان الطلاب المغاربة أول ما يمرون بمصر ويأخذون عن علمائها أمثال أشهب وابن القاسم والإمام الشافعى ثم يؤمون الحجاز لآداء فريضة الحج والسماع من علماء المدينة الكثيرين أمثال : مالك بن أنس وسفيان الثورى وشيوخها وتلاميذها . فلذلك مال أهل المغرب إلى المذهب المالكى واختصوا به (إبراهيم التوزرى : ص ١٤٥) . ولم تكن الرحلة فى طلب العلم مقصورة على أهل المغرب وإنما كانت ظاهرة عامة فى مشارق العالم الإسلامى ومغاربه . يقول نيكلسون Nicholson فى كتابة : Literary History of The Arabs .

« كان جلة الباحثين وطلاب العلم يرحلون فى حماسة ظاهرة عبر القارات الثلاثة ثم يعودون إلى بلادهم كما يعود النحل محملا بالعسل الشهى . ثم يجلس هؤلاء الباحثون فى بلادهم ليروا شغف الجماهير التى كانت تنتظر عودتهم لتلتف حولهم فينالوا من علومهم ومعارفهم زادا وخيرا عميقا . كما كان هؤلاء الباحثون يعكفون أحيانا على تدوين ما جمعوا وما سمعوا ثم يخرجون للناس كتبا هى بدوائر المعارف أشبه مع نظم رائع وبلاغة عذبة . وهذه الكتب هى المصادر الأولى للعلوم الحديثة بأوسع ما تحتله كلمة العلوم من معنى . وهى مرجع العلماء والباحثين ومنها يستمدون فنونا من الثقافة والمعرفة أعمق بكثير مما يظن الناقدون "(نقلا عن أحمد شلبى:ص٣٢٠ و حسن إبراهيم جـ٢ص٣٢٢) .

وكانت قيمة الطالب في نظر الناس تتناسب مع ما قام به من رحلات لطلب العلم ومع عدد المدرسين الذين تلقى عنهم . وكل هذه الظروف شجعت الطالب ودفعته ليتلقى أفانين من العلم في أي بقاع من بقاع الأرض . ولم تكن هذه الحماسة مقصورة على طلاب العلوم الدينية ولكنها شملت أيضا طلاب الدراسات اللغوية والفلسفية والطب وغيرها .

وهكذا كان الطلاب يرتحلون فى طلب العلم على يد مشاهير العلماء حيثما كانوا يتكبدون فى سبيل ذلك المشاق والصعاب وأحيانا كان العلماء يسافرون

المسافات الطويلة حاملين كتبهم على ظهورهم أحيانا . ويروى أن التبريزى العالم اللغوى المعروف الذى عمل فترة من حياته أستاذا فى المدرسة النظامية ببغداد حمل على ظهره أيام شبابه معجما كبيرا من تبريز إلى بلاد الشام لكى يدرسه عند شاعر معرة النعمان المشهور أبى العلاء المعرى . ويقال إن هذا المعجم كان يبدو فى مظهره بعد موت التبريزى وعليه آثار البلل بالعرق من طول ما حمله التبريزى على ظهره (كراتشكوفسكى : ص٢٣) .

كما يروى أن أبا القاسم سليمان بن أحمد الطبرانى الذى ولد بطبرية ٢٦٠ هـ إختلف إلى كثير من البلاد ثلاثا وثلاثين سنة سمع فيها من ألف شيخ . كما أثر عن القاضى عبد الله محمد بن أحمد مولى عبد الرحمن الناصر الأندلسى أنه رحل من قرطبة وتنقل ببلاد الحجاز ومصر الشام وأخذ العلم علي مائتى وثلاثين شيخا ثم عاد إلى الأندلس سنة ٤٥ هـ (حسن إبراهيم حـ٣ ص ٢٣٩) .

وكان طلاب العلم فى المغرب الإسلامى كما أشرنا يرحلون فى طلب العلم مارين بمصر فيتلقون العلم على يد علمائها ومنهم الشافعى . ثم يرحلون إلى الحجاز لأداء الحج والتتلمذ على يد علماء المدينة من أمثال مالك بن أنس . وكثير من علماء شمال أفريقيا رحلوا فى طلب العلم وعانوا فى سبيل تحصيله منهم أسد بن الفرات المولود ١٤٢هـ . وارتحل من القيروان إلى المشرق ودرس على يد علمائه ، ومنهم الإمام أبو سعيد سحنون بن حبيب التنوخى الذى ولد بالقيروان علم ١٦٠هـ ورحل إلى مصر والحجاز والشام وتعلم الفقه على يد علماء هذه الأمصار . ومنهم محمد بن سحنون التنوخى القيروانى المولود سنة ٢٠٢ هـ وأول من كتب فى التربية والتعليم من العرب والمسلمين كتابه المعروف آداب المعلمين " وقد رحل فى طلب العلم إلى الشرق . ومنهم أيضا أبو الحسن القابسى الذى ولد فى القيروان عام ٣٢٤هـ (٩٣٥م) صاحب الكتاب القيم الذى يعرفه دارسو التربية الإسلامية " الرسالة المفصلة لأحوال المتعلمين وأحكام المعلمين والمتعلمين " وقد إرتحل إلى المشرق وإستمع إلى علمائه فى مصر والحجاز . ومنهم إبن القزاز التميمى شيخ اللغة والأدب فى إفريقيا ومؤلف أكبر معجم لغوى عرف فى عصره هو " الجامع فى اللغة " . وغيرهم كثيرون . بل وقد حث العماء أنفسهم على السفر لما فيه من فوائد ليس أقلها طلب العلم وإكتسابه .

وقد درجت الدول العربية والإسلامية فى العصور الحديثة على إرسال طلابها

فى طلب العلم والدراسة فى مختلف المعاهد والجامعات بدول العالم المختلفة. ومع أننا بهذا نحيى سنة قديمة لسلفنا الصالح فإنه يبدو فى بعض الأحيان وجود تخوف من نتائج إرسال البعثات العلمية الدراسية إلى الخارج لاسيما إلى الدول غير الإسلامية التى تختلف فى ثقافتها ونظامها الإجتماعى. وقد تردد هذا التخوف فى توصية للمؤتمر العالمى الأول للتعليم الإسلامى الذى عقد فى مكة المكرمة سنة ١٩٧٧م. فأشارت التوصية إلى قصر إرسال هذه البعثات على التخصصات النادرة بعد مرحلة الليسانس نظرا لما يتعرض له الشباب فى الخارج من فتنة جارفة فى عقيدته. وهذه التوصية تستحق فى الواقع وقفة لعدة أمور منها:

١ - يجب ألا يفهم من هذه التوصية أنها دعوى ضد الدراسة فى الخارج أو أنها دعوى ضد الإنفتاح الفكرى والثقافى للعالم الإسلامى على تجارب وعلوم المجتمعات الأخرى . لأن العالم الإسلامى كما هو معروف بلغ قمة إزدهاره بانفتاحه على الثقافات الأخرى .

٢ - أن الرحلة فى طلب العلم كما أشرنا كانت دائما سمة مميزة لسلفنا الصالح من علماء المسلمين . قد يقال بأن سلفنا كان يتلقى العلم على أيدى علماء المسلمين . وهذا صحيح . إلا أن تراثنا الإسلامى يعتبر الحكمة ضآلة المسلم المؤمن ينشدها حيث كانت ولو فى الصين . ولم ينكر ديننا تلقى العلم وأخذه على يد غير المسلمين من العلماء . فالنبي صلى الله عيه وسلم قبل أن يعلم الكفار واليهود آبناء المسلمين . وكان يفك أسار من يعلم منهم عشرة من أبناء المسلمين كما هو معروف .

٣ - أن العلم لا وطن له وحيثما يزدهر نوع من العلوم التى يحتاج إليها المسلمون لتضيف إلى قوتهم فإنه ينبغى أن نحرص على تحصيله . وإذا كان نبينا الكريم قد علمنا بأن من تعلم لغة القوم أمن شرهم فإن تحصيل علومهم ومعارفهم هى من باب أولى إذا كان فيها ما يخدم مصالح المسلمين فى إطار الإسلام الصحيح . قال رسول الله صلى الله عيه وسلم " الحكمة ضالة المؤمن فحيث وجدها فهو أحق بها" .

٤ - أن التخوف من فتنة طلاب البعثات الدراسية فى البلاد الخارجية لا تكون بالحد من البعثات الدراسية أو فرض القيود عليها . وإنما تكون بوضع

الضمانات التى تكفل تحقيق الأهداف التى ننشدها منها . وفى مقدمة هذه الضمانات حسن إختيار العناصر الصالحة من الطلاب وتوفير الرعاية المالية والاجتماعية لهم فى أثناء دراستهم وبعد عودتهم . وهو ما أشارت اليه التوصيات نفسها فيما بعد . وفى هذا توجيه صحيح لطلاب بعثاتنا الدراسية فى الخارج .

تعليم المرآة فى الإسلام :

قلما نجد فى أى دين من الديانات أو نظام من المجتمعات ذلك التكريم الذى أعطاه الإسلام للمرأة . ففى كل المجتمعات التى سبقت ظهور الإسلام على إختلاف زمانها ومكانها لم تكن المرآة تتمتع بنظرة محترمة . وكانت مكانتها الإجتماعية تتسم بالدونية بدرجات متفاوتة فى هذه المجتمعات تشتد حينا وتخف حينا آخر .

ففى الهند القديمة كان ينظر إلى المرأة على أنها دورة للروح فى حياة شريرة. وكان الهنود يؤمنون بتناسخ الأرواح . وفى مصر الفرعونية كانت المرأة أقل من الرجل فى قيمتها ومكانتها الإجتماعية رغم أننا نجد نساء وصلن إلى مرتبة الحكم مثل : حتشبسوت وكليوباترا . وفى وصية الحكيم آنى لإبنه يقول له : "إحذر أن تمشى فى طاعة أنثى أو تسمح لها بأن تسيطر على رأيك " . وعند اليونان والرومان كانت المرأة ظلا للرجل ومجرد تابع له ولا تملك من آمرها شيئا . وفى المسيحية كان ينظر للمرأة على أنه فخ نصبه الشيطان للرجل وأنها سلاح إبليس للفتنة والإغراء . ورغم أن تقديس العذراء مريم قد رفع من النظرة إلى المرأة فإن ذلك لم يغير شيئا كثيرا من الوضع الإجتماعى لها . وفى أوربا لم يكن للمرأة أى حقوق حتى العصور الحديثة . وكان القانون الإنجليزى فى أوائل القرن التاسع عشر يبيح للزوج أن يبيع زوجته ولو بمبلغ زهيد . وفى الجاهلية كانت المرأة فى وضع لا تحسد عليه فقد كانت مخلوقا للخدمة والمتعة للرجل .

وجاء الإسلام ليشرع للمرأة أول قانون كامل يضمن لها منزلتها وكرامتها ويحقق لها حياة تتفق مع طبيعتها ورسالتها . وكان النبي ﷺ المثل الأعلى فى معاملة زوجاته . ويقول فى ذلك " ما استفاد المؤمن بعد تقوى الله خيرا من زوجة صالحة ، إن أمرها أطاعته وإن نظر إليها سرته ، وإن أقسم عليها أبرته وإن غاب

عنها حفظته فى ماله وعرضه " ويقول أيضا:" أكمل المؤمنين إيمانا أحسنهم خلقا . "وخياركم خيارهم لنسائهم" . وقوله فى آخر خطبة له " إستوصوا بالنساء خيرا " . وقد أسهمت المرأة المسلمة فى كثير من جوانب الحياة الإسلامية منها السياسة وشئون الحكم وإدارة شئون الدولة والإصلاح الإجتماعى والحروب وغيرها مما تذخر به كتب التاريخ وسنعرض لبعض الأمثلة على ذلك فى كلامنا عن المرأة والتعليم

المرأة والحجاب :

من الأخطاء الشائعة التى روج لها المغرضون أن حجاب المرأة نظام جاء به الإسلام . وأصبحت المرأة المحجبة رمزا للمرأة المسلمة . والواقع أن حجاب المرأة كان معروفا فى المجتمعات القديمة قبل الإسلام . ففى الهند القديمة كان نظام " البردة " Purda معروفا . وتعنى البردة " الستار " أو " الطرحة " تغطي بها المرأة وجهها عند خروجها من المنزل . كما كان لها فى المنزل مكان خاص لها تنعزل فيه . وكان حجاب المرأة وعزلتها فى المنزل وخارجه معروفا لدى اليونان القدماء . ويشير هوميروس فى " الأوديسة " إلى " بنيلوب " زوجة يوليسيس كمثال على الزوجة الشابة المخلصة لزوجها الواقرة فى منزلها . وكان الرومان يحرمون على المرأة الظهور متزينة فى الشارع . بل وحرموا عليها المغالاة فى التزين فى البيوت . وكان حجاب المرأة معروفا عند العبرانيين من عهد إبراهيم عليه السلام . وظل معروفا عندهم إلى ما بعد المسيحية . وقد تكررت الإشارة إلى " البرقع " فى العهد القديم آى التوارة وفى " العهد الجديد " أى " الإنجيل " .

ففى الأصحاح الرابع والعشرين من سفر التكوين عن " رفقة " أنها رفعت عينيها فرأت إسحاق " فنزلت عن الجمل وقالت للعبد ": من هذا الرجل الماشى فى الحقل للقائى ؟ فقال العبد : هو سيدى . فآخذت البرقع وتغطت " وقول . " بولس " الرسول فى رسالة " كورنيش الأول " إن النقاب شرف للمرأة فإن كانت ترخى شعرها فهو مجد لها لأن الشعر بديل من البرقع . . " . وكانت المرأة عندهم تضع البرقع على وجهها حين تلقى الغرباء وتخلعه حين تنزوى فى الدار بلباس الحداد . (عباس العقاد : المرأة فى القرآن . ص ٦٣) . ويقول العقاد فى . ص ٦٤) من نفس الكتاب :

« جاء الإسلام والحجاب فى كل مكان وجد فيه تقليد سخيف وبقية من بقايا العادات الموروثة لا يدرى أحد أهو أثرة فردية أم وقاية إجتماعية . بل لا يدرى أحد أهو مانع للتبرج وحاجب للفتنة . أم هو ضرب من ضروب الفتنة والغواية . فصنع الإسلام بالحجاب ما صنعه بكل تقليد زال معناه وتخلفت بقاياه بغير معنى . فأصلح منه ما يفيد ويعقل ولم يجعله كما كان عنوانا لاتهام المرأة أو عنوانا لاستحواذ الرجل على ودائعه المخفية . بل جعله أدبا خلقيا يستحب من الرجل ومن المرأة ولا يفرق بين الواجب على كل منهما إلا لما بين الجنسين من فارق فى الزينة واللباس والتصرف بتكاليف المعيشة وشواغلها » .

ويقول العقاد (ص ٦٦) : إن المفهوم من الحجاب فى الإسلام ليس إخفاء المرأة وحبسها فى المنزل . فلا حجاب على الإسلام بمعنى الحبس والحجر والمهانة ولا عائق لحرية المرأة حيث تجب الحرية وتقضى المصلحة . وإنما هو الحجاب مانع للغواية والتبرج والفضول وحافظ الحرمات وآداب العفة والحياء .

وقد نهى الإسلام الرجال عن الزينة المخلة بالرجولة . ونهى النساء عن التبرج وعدم إبداء زينتهن إلا ما ظهر منها . قال تعالى : " قل للمؤمنات يغضضن من أبصارهن ويحفظن فروجهن ولا يبدين زينتهن إلا ما ظهر منها وليضربن بخمرهن على جيوبهن ولا يبدين زينتهن إلا لبعولتهن أو آبائهن أو آباء بعولهن أو أبنائهن . . " إلى آخر الآية الكريمة . وقال تعالى : " يا نساء النبى لستن كأحد من النساء إن اتقيتن فلا تخضعن بالقول فيطمع الذى فى قلبه مرض وقلن قولا معروفا . وقرن فى بيوتكن ولا تبرجن تبرج الجاهلية الأولى " . وقد استدعت هذه الآية الأخيرة إجتهاد المفسرين . فجمهور المفسرين وأغلبيتهم يفهمون من قوله تعالى " وقرن فى بيوتكن " أنه أمر بالقرار أو الجلوس فى البيت . وبعضهم يرى أن هذا الأمر مقصور على نساء النبى ﷺ فقط لأنهن المخاطبات فى هذه الآية الكريمة . وبعض آخر يرى تعميم هذا الأمر على كل النساء باعتبار أن نساء النبى قدوة حسنة لغيرهن من المسلمات . وبعض الشراح أو المفسرين استنتج من ذلك أن المكان الطبيعى للمرأة هو المنزل وقيدوا خروجها منه . وهناك تفسير آخر يورده أبو الأعلى المودودى فى كتابه " الحجاب " ولم أقرأه عند أحد غيره هو أن الأمر فى قوله تعالى " وقرن فى بيوتكن " يعنى الأمر بالوقار آى الإحتشام والتأدب . وهذا تخريج لطيف لمعنى الفعل " وقر " الذى يحتمل المعنيين كما جاء

فى المعاجم اللغوية . تقول وقر فى بيته وقر وقورة أى جلس ، ووقر فلان وقارا أى رزن رزانة (المعجم الوسيط حـ٢ص١٠٤٩) . وقد إستخدمت الكلمة بهذا المعنى الأخير فى القرآن فى قوله تعالى " مالكم لا ترجون لله وقارا " .

المرأة والتعليم :

لم يرد نص من القرآن أو السنة يحرم تعليم البنت أو يفرض قيودا على تعليمها . بل إننا نجد على العكس من ذلك حث على طلب العلم وجعله فريضة على كل مسلم . وتنكير كلمة مسلم هنا يفهم منه الاستغراق كما يقول علماء البلاغة واللغة بمعنى أنها تستغرق كل المسلمين وتشمل الذكر والأنثى على السواء . وهناك كثير من الأمثلة والشواهد التى تلقى الضوء على تعليم المرأة فى عصور الإسلام الأولى منها ما يأتى :

١ - يروى البلاذرى فى فتوح البلدان أنه عند مجئ الإسلام كان هناك خمسة من نساء العرب يقرأن ويكتبن منهن الشفاء بنت عبد الله العدوية التى كانت تعلم حفصة واستمرت فى تعليمها بناء على طلب الرسول صلى الله عيه وسلم حتى بعد زواجه منها . وروى الواقدى أن عائشة وأم سلمة زوجتى رسول الله صلى الله عيه وسلم تعلمتا القراءة والكتابة .

٢ - ورد عن النبي صلى الله عليه وسلم قوله :: " خذوا شطر دينكم عن هذه الحميراء يقصد زوجته عائشة التى روت عنه ألف حديث رواية مباشرة وهو لم يتوفر لسواها . كما أنها برعت فى قول الشعر وروايته ونقده .

٣ - خصص محمد محمد بن سعد جزءا من كتابة " الطبقات الكبرى " لرواية الأحاديث عن النساء ذكر فيه ما يزيد على سبعمائه إمرأة روين عن الرسول صلى الله عيه وسلم وعن أصحابه الثقات .

٤ - ترجم ابن حجر فى كتابه (الإصابة فى تمييز الصحابة) لكثير من النساء المحدثات الثقات العالمات .

٥ - خصص كل من النووى فى كتابه (تهذيب الأسماء) والخطيب البغدادى فى كتابه (تاريخ بغداد) والسخاوى فى (الضوء اللامع) حيزا كبيرا للحديث عن النساء اللاتى كن على ثقافة عالية لاسيما فى العلوم الدينية ورواية الحديث . ومن بين هؤلاء الشهيرات فى العلوم الدينية نفيسة بنت

الحسن بن زيد بن الحسن بن على وكانت من خيرة المحدثات فى عصرها وسمع عنها الإمام الشافعى عندما حضر إلى مصر . كما كان هناك عالمات يجلسن للتدريس فى المساجد للرجال والنساء على السواء . وكان يجلس فى حلقاتهن مشاهير العلماء والمجتهدين .

٦ - كان عيسى بن مسكين (٢٧٥هـ) يعلم طلبته فى الصباح وبعد العصر كان يعلم بنتيه وبنات أخيه وحفيداته . وكذلك علم أسد بن الفرات بنته أسماء . وعنى الإمام سحنون بتعليم بنته خديجة وكانت لها حلقة للتعليم النساء .

٧ - يذكر ياقوت فى معجم الأدباء أن الخطيب البغدادى صاحب تاريخ بغداد قرأ صحيح البخارى على كريمة بنت أحمد المروزى . وأنه كان لها دور كبير فى تكوين هذا العالم الكبير . كما يذكر أيضا أن إبن عساكر فى تعداده لأساتذته وشيوخه الذين تلقى عنهم العلم ذكر من بينهم إحدى وثمانين إمرأة .

٨ - هناك أدلة كثيرة على وصول النساء العربيات إلى مكانة عالية فى العلوم والمعارف المختلفة وكان من بينهن عالمات فاضلات تعلم على أيديهن كثير من رجالات الرسلام . فقد ذكر ابن خلكان أن السيدة نفيسة بنت الحسن الأنور التى يرجع نسبها إلى الحسن بن على بن أبى طالب والتى ولدت بمكة المكرمة (١٤٥هـ) وتوفيت بمصر سنة ٢٠٨هـ ولها مقام معروف باسمها ، كان لها فى مصر مجلس علم حضره الإمام الشافعى نفسه وسمع عليها فيه الحديث . وذكر أبو حيان من بين أساتذته ثلاثا من النساء هن : مؤنسة الأيوبية بنت الملك العادل أخي صلاح الدين الأيوبى ، وشامية التيمية وزينب بنت المؤرخ والرحالة المعروف عبد اللطيف البغدادى صاحب كتاب " الإفادة والإعتبار " .

٩ - كتب التاريخ والأدب حافلة بأسماء مشاهير النساء المسلمات اللاتى برعن فى الأدب والشعر . وقد ترجم السيوطى فى مخطوطه " نزهة الجلساء فى أشعار النساء " لسبع وثلاثين شاعرة . كما كان هناك نساء مسلمات برعن فى صناعة الطب والجراحة والمداواة . وكانت لهن شهرة كبيرة . وقد ترجم ابن أبى أصيبعة لبعضهن فى كتابه (طبقات الأطباء) . واشتهرت

كثيرات فى الطرب والغناء وقد عرض الأصفهانى فى كتابة الأغانى لذكر أسماء كثير منهن .

آراء علماء المسلمين فى تعليم المرأة :

كان من الطبيعى بالنسبة لموضوع حساس مثل تعليم المرأة أن تكثر حوله الآراء وتتباين . ويمكن بصفة عامة أن نقسم هذه الآراء إلى مجموعتين .

المجموعة الأولى :

تمثل آراء غريبة عن روح الإسلام وتراثه وتاريخه لأنها تفرض قيودا كثيرة على تعليم المرأة لاسيما في الأمور التى تزيد من حريتها كتعليم القراءة أو الكتابة أو الأمور التى يخشى منها فتنتها وإنحرافها مثل قرض الشعر أو دراسته . بل إن التحفظ بلغ أشده فى تحريم تعلم المرأة لبعض سور القرآن الكريم مثل سورة يوسف لما يخشى عليها من الغواية . وبعض الآراء تذهب إلى الإقتصار على تعليمها " سورة النور " من بين القرآن الكريم كله . وواضح أن كل هذه الآراء تحركها دوافع الغيرة الشديدة على المرأة والتخوف الشديد من كل ما يحتمل فيه مجال الغواية والإنحراف لها .

المجموعة الثانية:

تمثل الآراء المعتدلة لعلماء المسلمين التى تتمشى مع روح الإسلام وتقاليده وتسلم بتعليم المرأة فى إطار من الثقة الكاملة بأن تعليمها هو خير ضمان لعصمتها وحمايتها من الإنحراف والزلل . وسنعرض فى السطور التالية لكل مجموعة من هذه الآراء .

أولا : آراء غريبة عن الإسلام :

ترددت بعض الآراء عن تعليم المرأة تعتبر غريبة عن روح الإسلام بل وعن تراثه وتاريخه كما أشرنا . فلقد رأينا كثيرا من النماذج لمسلمات مشهورات كان لهن باع طويل فى العلم والتعليم . ومن هذه الآراء الغريبة :

١ - لا تعلموا بناتكم الكتاب (أى الكتابة) ولا تروهن الشعر وعلموهن القرآن ومن القرآن " سورة النور " وقد أورد ذلك الجاحظ فى كتابه البيان والتبيين (حـ٢ص١٨٠) وكأنه يتهكم عليه .

٢ - ذهب القابسى إلى أن تعلم المرأة القرآن والعلم أما أن تعلم الترسل والشعر وما أشبه ذلك فهو مخوف عليها . .

٣ - ذهب أبو الثناء الألوسى إلى تحريم تعليم البنت الكتابة وقد ألف كتابا فى هذا المعنى سماه " الإصابة فى منع النساء من تعليم الكتابة " (إبراهيم التوزرى ص ١٢٢) . ويسمى كتابه الإصابة أى وجه الصواب . وقد فند شمس الحق العظيم أبادى أحاديث النهى عن تعليم المرأة الكتابة واعتبرها كلها باطلة وموضوعة وألف فى الرد على ذلك رسالته المسماة " عقود الجمان فى جواز تعليم الكتابة للنسوان " .

٤ - أباح بعض المسلمين تعليم الجوارى دون الحرائر لأن تعليم الجارية يرفع ثمنها . وإذا كان التعليم يرفع من ثمن أو قيمة الجارية أليس تعليم الحرائر أولى ، وفيه أى التعليم كمال صفاتهن وخلقهن كما يقول الشيخ الطهطاوى .

ثانيا : آراء معتدلة تتفق مع روح الرسلام :

١ - يعترف المربون المسلمون بحق البنت فى التعليم إنطلاقا من أن التكاليف الدينية واجبة على الرجل والمرأة . وهذا يتفق مع روح الإسلام الحقيقة التى جعلت من طلب العلم فريضة على كل مسلم (ومسلمة)

٢ - كان الإمام محمد عبده من المؤمنين بضرورة تعليم المرأة وتنوير عقلها فقد رأى أن المرأة قد ضرب بينها وبين العلم بما يجب عليها فى دينها ودنياها . ونادى بتكوين جمعية نسائية تقيم المدارس لتعليم البنات وقد دافع عن تعليم المرأة هو وتلميذه قاسم أمين فيما جاء بكتاب "تحرير المرأة " عن تعليمها .

٣ - يعتبر الطهطاوى التربية أساس صلاح المرأة وتمام كمالها . ويرفع قدرها فى نظر الرجل . والتعليم يزيل عنها سخافة العقل والطيش الذى يصيب المرأة الجاهلة . كما أن التعليم يمكن المرأة من العمل على قدر قوتها وطاقتها . وهذا من شأنه أن يشغل النساء عن البطالة فإن فراغ أيديهن عن العمل يشغل ألسنتهن بالأباطيل وقلوبهن بالأهواء وإفتعال الأقاويل . فالعمل يصون المرأة عما لا يليق ويقربها من الفضيلة.ويرد الطهطاوى على

التخوف من تعليم المرأة فيقول : " إن التجربة فى كثير من البلاد قضت أن تعليم البنات نافع ولا ضرر فيه " ويستعين أيضا بما روى فى كتب الأحاديث وما كان فى زمن الرسول من تعليم النساء . والتعليم الذى يليق بالبنات فى نظره هو القراءة والكتابة والحساب وبعض الصنائع كالخياطة والتطريز . وهو يرد على من ذهب إلى تحريم تعليمهن القراءة والكتابة والحساب وبعض الصنائع وأنها مكروهة فى حقهن لما قد يؤدى إليه تعلمها من إساءة إستخدام ، بأن ذلك لا ينبغى أن يكون على عمومه . ويضرب أمثلة بمن كان يعرف القراءة والكتابة من زوجات النبي صلى الله عليه وسلم وغيرهن من النساء فى كل زمان . ويرجع التشدد فى عدم تعليم المرأة إلى المبالغة فى الغيرة عليها وفى ذلك يقول : " وليس مرجع التشدد فى حرمان البنات من الكتابة إلا التغالى فى الغيرة عليهن من إبراز محمود صفاتهن أيا ما كانت فى ميدان الرجال تبعا للعوائد المحلية المشوبة بحمية جاهلية . ولو جرى خلاف هذه العادة لصحت التجربة .

أهداف التربية الإسلامية :

تعتبر كلمة التربية بمفهومها الإصطلاحى من الكلمات الحديثة التى ظهرت فى السنوات الأخيرة مرتبطة بحركة التجديد التربوى فى البلاد العربية فى الربع الثانى من القرن العشرين . ولذلك لا نجد لها إستخداما فى المصادر العربية القديمة . وما كانت تستخدمه هذه المصادر هى كلمات مثل " التعليم " و" التأديب " و " التهذيب " وهى كلها مرتبطة بالتربية كما نفهمها اليوم أوثق الإرتباط . وقد وردت كلمة التربية عند ابن خلدون بمعنى التنشئة فى كلامه فى المقدمه عن مراتب الملك والسلطان وألقابها . (ابن خلدون : ص٢٣٥) .

وترجع كلمة التربية فى أصلها اللغوى العربى إلى الفعل (ربا) (يربو) أى نما وزاد . وفى التنزيل الحكيم " وترى الأرض هامدة فإذا أنزلنا عليها الماء إهتزت وربت " أى نمت وزادت لما يتداخلها من الماء والنبات . وتقول رباه بمعنى نشأه ونمى قواه الجسدية والعقلية والخلقية . وفى التنزيل الحكيم : " قل ألم نربك فينا وليدا ولبثت فينا من عمرك سنين " . "وقل رب ارحمها كما ربيانى صغيرا) .

وقد كتب الذين ألفوا عن التعليم فى الإسلام من المتقدمين عن أغراض

التعليم . ونقل عنهم المحدثون وتناولوه فى كتابتهم عن أغراض أو أهداف التربية الإسلامية . وبعضهم يجمل الكلام عن هذه الأهداف فيركزها فى الهدف الدينى الذى يقوم على تعليم القرآن ومعرفة العبادات المفروضة أو بعبارة أخرى معرفة الدين علما وتطبيقا . وهذا هدف كبير يمكن أن يشمل التربية الإسلامية كلها بإعتبار أن الدين الإسلامى دين ودولة . وبعضهم لاسيما المحدثون يفصلون هذه الأهداف إلى أهداف دينية وعقلية وثقافية ونفسية . (أسماء فهمى : مبادئ التربية الإسلامية) . وبعضهم يقسمها إلى أهداف دينية وعقلية وإجتماعية ومادية (خليل طوطح : ص ١٥٢-١٥٤) .

وواضح أن هناك إشتراكا كبيرا وشبه إتفاق على الأهداف مع إختلاف المعالجة فى التركيز أو التفضيل . ويصبح من الصعب إذن أن نتقبل ما يذهب إليه أحد المؤلفين فى التربية الإسلامية من المحدثين عندما يقول : " والرأى عندنا أنه لا يوجد أغراض للتربية عند العرب تعمهم على الإطلاق وإنما الصواب أن نذكر صاحب المذهب ثم نذكر الغرض من التعليم الذى يلائم هذا المذهب " (أحمد فؤاد الأهوانى : ص ٩٢) .

إن أى تصور لأهداف التربية الإسلامية لابد وأن يضع فى إعتباره أن مجئ الإسلام يمثل بداية تربية جديدة للمجتمع العربى ، وأنه كان من الطبيعى إذن أن يرسم الإسلام مثلا أعلى للحياة مغايرا لما كان عليه حال العرب فى الجاهلية أو قبل الإسلام . وعلى هذا يمكن القول بأن أهم أهداف التربية الإسلامية هو بلوغ الكمال الإنسانى بالتدريج . لأن الإسلام نفسه يمثل بلوغ الكمال الدينى . فهو خاتم الأديان وأكملها وأنضجها . يقول الله تبارك وتعالى : " اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الإسلام دينا " . ويقول عز وجل : " كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر " .

ومن تمام الكمال الإنسانى مكارم الأخلاق . وقد جاء الإسلام ليصل بهذا الكمال الإنسان إلى قمته . وقد ورد عن النبى صلى الله عليه وسلم قوله : " إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق " . وهكذا يعتبر بلوغ الكمال الإنسانى هدفا رئيسيا للتربية الإسلامية . ومع أن الكمال لله وحده فإن الإنسان لابد وأن يتصف بالكمال باعتباره خليفة الله علي الأرض . قال تعالى : " إنى جاعل فى الأرض خليفة " . وعلى الإنسان أن يسعى إلى هذا الكمال وله فى هذا السعى لذة تحفزه

دائما إلى مزيد من الكمال . يقول الغزالى : " إن أشرف مخلوق على الأرض هو الإنسان " . وقد كرمه الله على كثير من خلقه وهذا التشريف والتكريم يدفع الإنسان دائما إلى بلوغ مزيد من الكمال ". ومن أهداف التربية الإسلامية أيضا تحقيق سعادة الإنسان فى الدنيا والآخرة. وهو هدف تتزن فيه أسس التربية الإسلامية كما سيتضح من كلامنا عن هذه الأسس فيما بعد .

وتهدف التربية الإسلامية إلى تنشئة الإنسان الذى يعبد الله ويخشاه فالله سبحانه وتعالى يقول : " وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون " . وطريقة عبادة الله وخشيته إنما تكون بالعلم فإنما يخشي الله من عباده العلماء والعلم هو سبيل التقوى الصحيحة إلى معرفة الله عز وجل . ولذلك حث الإسلام على العلم والسعى فى طلبه وفضل أهله على غيرهم ورفعهم درجات .

ويتصل بذلك أيضا دور الإنسان فى تعمير الأرض وتسخير ما أودعه الله فيها من ثروات لخدمة حياة الإنسان وتحقيق الخير للناس وما يتطلبه ذلك من إستخدام للعلوم المختلفة . وهكذا تصبح العلوم المختلفة من طبيعية ورياضية وإنسانية ونظرية كانت أو تجريبية أو تطبيقية كلها علوما إسلامية طالما أنها متفقة ومتمشية مع الإطار الإسلامى الصحيح . وطالما أنها لا تستخدم استخداما سيئا يخرج بها عن غرضها فتنحرف إلى الفساد والشر والعدوان .

ومن أهداف التربية الإسلامية أيضا تقوية الروابط بين المسلمين ودعم تضامنهم وخدمة قضاياهم . ويتم ذلك عن طريق ما تقوم به التربية الإسلامية من توحيد للأفكار والمشارب والإتجاهات والقيم بين المسلمين فى مشارق الأرض ومغاربها . وبهذا تكون التربية عاملا فعالا فى تماسكهم ووحدتهم وجمع شملهم وتكتيل جهودهم وجعلهم جميعا على قلب رجل واحد .

ومن المعايير الهامة التى تقوم عليها أهداف التربية الإسلامية والتى تحدد بالتالى المضمون التربوى التعليمى فى الإسلام قيمة هذا المضمون وأثره فى تربية الإنسان لبلوغ الفضيلة وكمال النفس عن طريق العلم بالله عز وجل وحسن التوجيه إلى الحياة الخيرة الفاضلة وتنمية العقل وكسب الرزق وكذلك قيمة المضمون فى نفع الإنسان فى دنياه وآخرته على السواء .

ومهمة التربية الإسلامية تربية فطرة المسلم على الإيمان الصحيح وخشية الله

وعبادته . والتعليم والقدوة أساس الفضيلة والأخلاق ولذلك كانت سيرة الرسول لها قيمة تربوية خلقية . وقد أمرنا الله بأن نتبع الرسول وأن نأخذ ما آتانا به وننهى عما نهانا عنه . قال تعالى : " وما أتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا " . وقال تعالى : " لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر " .

ومن أهداف التربية الإسلامية تربية العقل ولذلك يعتبر التفكير فريضة إسلامية كما يقول العقاد . كما أن علماء المسلمين بصفة عامة يتفقون على أنه إذا تعارض العقل مع النقل أخذ بمادل عليه العقل . وبقى فى النقل طريقان : طريق التسليم بصحة المنقول مع الإعتراف بالعجز عن فهمه وتفويض الأمر إلى الله فى علمه . والطريق الثانى تأويل النقل مع المحافظة على قوانين اللغة حتى يتفق معناه مع ما أثبته العقل (مجمع البحوث الإسلامية : التوجيه الإجتماعى فى الإسلام حـ٢ص١٥٥) . إن النظر العقلي في الإسلام من الواجبات المفروضة على المسلمين .

تطور التربية الإسلامية فى العصر الوسيط :

يمكننا أن نميز بين أربع مراحل متميزة مرت بها التربية الرسلامية فى تطورها هى:

المرحلة الأولى : مرحلة البناء :

وتبدأ منذ ظهور الإسلام حتى نهاية الدولة الأموية . وأهم السمات العامة للتربية الإسلامية فى تلك الفترة هى :

١ - أنها كانت تربية عربية إسلامية خالصة .

٢ - أنها استهدفت إرساء قواعد الدين الجديد .

٣ - أنها شهدت ميلاد الفرق الدينية والكلامية .

٤ - أنها إعتمدت أساسا على العلوم النقلية واللسانية .

٥ - أنها إهتمت بالكلمة المكتوبة كوسيلة هامة للإتصال .

٦ - أنها أظهرت الحاجة لتعلم اللغات الأجنبية .

٧ - أنها إعتمدت على الكتاب والمسجد والمكتبة كمراكز للتعليم .

المرحلة الثانية : مرحلة العصر الذهبى :

وتبدأ بالعصر العباسى حتى إنهيار الخلافة العباسية وسقوط بغداد وأهم السمات العامة للتربية الإسلامية فى هذه الفترة هى

١- دخلول العلوم العقلية .

٢- إنشاء المدارس .

٣- ظهور الآراء التربوية المتميزة .

المرحلة الثالثة : مرحلة التدهور والإنحطاط :

وتبدأ بالحكم التركى العثمانى حتى إستقلال البلاد العربية . وأهم السمات العامة الإسلامية فى هذه الفترة هى :

١- تجمد الفكر الإسلامى .

٢- العودة إلى الإقتصار على العلوم النقلية .

٣- جمود المؤسسات التعليمية .

٤- غلبة الثقافة التركية .

٥- التميز الثقافى للأقليات الدينية غير الإسلامية .

٦- دخول المؤثرات التربوية الغربية .

المرحلة الرابعة : مرحلة التجديد وإعادة البناء .

وتشمل هذه الفترة بداية إستقلال البلاد العربية من الحكم التركى وتمتد حتى العصر الحاضر ، وأهم السمات العامة للتربية فى هذه الفترة هى :

١- إقتباس النظم التعليمية الغربية .

٢- العناية بالعلوم العقلية والحديثة .

٣- تغلغل الثقافة الغربية .

٤- محاولة تطوير مؤسسات التعليم التقليدية .

وسنحاول أن نفصل فى الصفحات التالية الكلام عن التربية الإسلامية خلال المرحلتين الأوليين بإعتبار وقوعهما زمنيا فى العصور الوسطى مرجئين الكلام عن المرحلتين الأخيرتين إلى فترة العصور الحديثة .

المرحلة الأولى للتربية الإسلامية : مرحلة البناء :

مقدمة :

كان العرب قبل الإسلام يعيشون فى المنطقة التى تعرف الآن بشبه الجزيرة العربية . وكانت حياتهم حياة بداوة بسيطة تحكمها الصحراء بجدبها والقبيلة بعصبيتها . ولم تكن هناك وحدة سياسية تلم شملهم وإنما عاشوا فى حالة تفكك إجتماعى وسياسى كبير . ولم يكن يوجد بينهم إلا اللغة والشعر يتطارحونه فى أسواقهم الأدبية المعروفة وهى عكاظ ومجنه وذى المجاز . ولم يكن لهم غير ذلك من نصيب كبير فى مجال العلوم والفنون كما أشرنا وكانوا يعبدون الأصنام ويشربون الخمر ويلعبون الميسر ، ويؤمنون بالتطير ويتاجرون فى العبيد . وكانت مكة تحظى بأهمية خاصة لوجود البيت الحرام بها وهو البيت الذى بناه إبراهيم عليه السلام إلى جانب أنها كانت أهم مركز تجارى . وكانت التجارة أهم الوسائل التى تربط العرب بالمجتمع الخارجى . وتمثلت الطبقة الغنية هناك فى طبقة التجار الذين كانوا يجلبون التجارة من فارس الشام واليمن . وكانت تجاور العرب فى تلك الفترة دولتان كبيرتان على حظ كبير من الحضارة أولاهما دولة الفرس فى الشرق وثانيتهما دولة الروم أو الدولة البيزنطية فى الغرب . وكانت هذه الدولة الأخيرة تسيطر على العراق والشام ومصر وشمال أفريقيا . وكان أهل الشام قبل الإسلام معظمهم من الأراميين أى الأعرابيين الشماليين الذين كانوا يعرفون بالسريانيين . وكانت حضارة الشام قبل الإسلام عربية لكثرة القبائل العربية بها ومجئ الشعراء العرب إليها مثل الأعشي وامرؤ القيس وحسان بن ثابت ولذا كان هناك نفر من العرب يعرفون اللغة اليونانية .

وجاء الإسلام وكان ثورة إجتماعية شاملة ضد التفكك والتخلف وسرعان ما وحد العرب تحت لوائه . ولكن الإسلام لم يكن لأهل الجزيرة العربية فحسب وإنما للناس قاطبة من عرب ومن عجم . ومن ثم بدأت رسالة الإسلام تأخذ طريقها إلى خارج الجزيرة لتبشر بالدين الجديد . وقد استطاع العرب تحت لواء هذا الدين الجديد أن يهزموا أكبر دولتين فى عصرهما . (أى أوائل القرن السابع الميلادى) . ولم يمض على وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم سوى ثلاثة أرباع

قرن من الزمان إلا وكان الإسلام يرفرف على رقعة هائلة تمتد من المحيط الهندى شرقا حتى المحيط الأطلسي غربا . فقد فتح العرب دمشق سنة ٦٢٥ م . والعراق سنة ٦٣٧م ومصر وفارس سنة ٦٤١م وبرقة سنة ٦٤٣م وواصلوا فتحهم لشمال أفريقيا سنة ٦٦٤م ولم تأت سنة ٧٠٨ م إلا وكانت لهم السيطرة عليها تماما ودخل العرب أسبانيا سنة ٧١١م . وقد إنتشر الإسلام بسرعة كبيرة فى مناطق أخرى من العالم حتى أصبح يضم اليوم ما يقرب من بليون مسلم فى جميع أنحاء العالم . وقد صاحب المد العربى إنتشار الإسلام . بل وعندما إنحسر الإمتداد العربى بقي الرسلام كما هو بل وإتسعت رقعته .

والمهم من كل هذا هو أن نبين أن ما ما يعرف الآن بالوطن العربى دخل إلى العروبة عن طريق الإسلام . ومع حركة التعريب اللغوى والثقافى التى شملت هذا الوطن إنصهر فى بوتقة العروبة على مر الزمن وكون معها وحدة عضوية متجانسة. وقد ساعد على ذلك وحدة الأرض والتاريخ والآمال والإنتماء المصيرى. وهكذا يتضح أن كلمة عرب بمعناها الواسع لا يقصد بها أساس عرقى عنصرى وإنما هو مفهوم ثقافى يطلق على الشعوب والأقوام التى دخلت فى الإسلام . وإنصهرت فى بوتقة الثقافة العربية من خلال الإسلام . واتخذوا اللغة العربية ميراثا مشتركا وكتبوا بها مؤلفاتهم فى مختلف العلوم والفنون والآداب فى عصرازدهار الإسلام .

بين العروبة والإسلام :

إن التمييز الحادث بين العروبة والإسلام لا يمكن أن نفهمه إلا من خلال النظرة الفاحصة المتهملة للأصول التاريخية التى تكون بها العالم الرسلامى . فالإسلام فى جوهره الأساسى لم يقم على دعوة عنصرية عرقية كاليهودية مثلا التى يدعى أبناؤها أنهم شعب الله المختار . وإنما كان الإسلام للناس كافة. ومن هنا كان لابد أن يمتد الإسلام خارج جزيرة العرب . وكان حملة لوائه العرب أنفسهم لأنه جاء قرآنا عربيا بلسانهم وعلى يد نبى عربى من بنى جلدتهم .وهكذا كان المد الدينى الإسلامى مقترنا بالمد الثقافى العربى . وكان هذا المد هائلا وشمل مختلف أرجاء المعمورة . ولكن النتيجة لم تكن واحدة بالنسبة لكل أرجاء العالم الإسلامى . ذلك أنه حيثما تم إنصهار الشعوب فى بوتقة العروبة والرسلام

تكونت الثمرة الناضجة التى تمثل الآن ما يعرف بالعالم العربى . أما حيثما لم يكتمل الإنصهار فى بوتقة العروبة والإسلام إنحسر مد العروبة لكن بقى مد الإسلام وهذه المناطق تعتبر ثمرة لم تنضج بعد . وقد ترتب على هذا الوضع وجود تمييز درج الناس عليه بين العالم العربى والعالم الإسلامى . ومثل هذا التمييز أوجد كثيرا من البلبلة في العقول . وإذا أردنا أن نضع الأمور فى مكانها الصحيح ، فلنا العالم الإسلامى الناطق بالعربية والعالم الإسلامى غير الناطق بالعربية . ولو تصورنا أن العالم الإسلامى غير الناطق بالعربية أصبح يتحدث العربية لاختفى هذا التمييز . ومن هنا يمكن أن نفهم جوهر الوحدة الإسلامية الحقيقية. إن إنضمام الصومال وموريتانيا إلى عضوية الجامعة العربية حدث له معناه وفحواه . وهو ما يؤكد القضية التى نحن بصددها . ونتمنى أن نرى العالم الإسلامى كله وقد تحققت وحدته الفكرية على أساس من اللغة العربية. لقد عرف العالم الإسلامى قمة رزدهار ومجده عندما كانت اللغة العربية أساس هذه الوحدة الفكرية . وكانت اللغة الراقية للعالم والجنس البشرى طيلة أربعة قرون من الزمان منذ القرن الثامن حتى القرن الثانى عشر الميلادي. وتعلمها كثير من غير أبنائها باعتبارها لغة الثقافة والعلم وقد كتبوا وألفوا بها . ولم يكن علماء المسلمين من مختلف الأجناس يشعرون بأى غضاضة بالكتابة العربية . ولذا نجد جميع علماء الإسلام من عرب وفرس وترك يؤلفون بالعربية مع أنهم كانوا يعرفون لغاتهم الأصلية . وقد روى عن العالم الإسلامى الكبير البيرونى قوله : " والله لأن أهجى بالعربية أحب إلى من أن أمدح بالفارسية . يضاف إلى ذلك أن اللغة العربية هى لغة القرآن الكريم " إنا أنزلناه قرآنا عربيا لكم لعلكم تتقون " . وتعلمها من كمال تمام الدين . وقد روى عن عمر بن الخطاب قوله " تعلموا العربية فإنها من دينكم " . ولا شك أن الأمر هنا موجه إلى كل المسلمين .

ويقول العلامة ابن تيمية : " إن اللغة العربية من الدين ومعرفتها فرض واجب . ذلك أن فهم الكتاب والسنة فرض ولا يفهم إلا باللغة العربية وما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب " . ويرى الإمام الشافعى أن على كل مسلم أن يتعلم العربية وأن تعلم اللغة العربية فرض على كل مسلم . وهكذا يصبح من واجب كل مسلم أن يتعلم العربية . وإذا كان غير المسلم يتحتم عليه أن يتعلم اللغة

القومية لدولته إلى جانب لغته الأم لدواعى الحياة والمعيشة كما فى دول مختلفة من العالم فى سويسرا ودول الكومنولث المستقلة والهند وغيرها فما بالك بالمسلم الذى يعتبر تعلم اللغة العربية بالنسبة له من تمام دينه .

إن على العالم الإسلامى غير الناطق بالعربية أن يسعى سعيا حثيثا لا هوادة فيه إلى نشر تعليم اللغة العربية بين أبنائه بنشر مراكز تعليمها على أوسع نطاق. كما يجب أن يجعل تعليم اللغة العربية إجبارياً من السنوات الأولى للتعليم فى مدارسه ويجب على العالم الإسلامى العربى أن يشجع كل خطوة فى هذا الإتجاه وأن يقدم لها الدعم والعون المادى والبشرى على السواء .

السمات العامة للتربية الإسلامية فى فترة البناء :

تميزت الفترة الأولى من ظهور الإسلام (١١ - ٤٠ هـ =٦٣٢ -٦٦١م) بنظام الحكم الشورى للخلفاء الأربعة الأوائل وهم أبو بكر وعمروعثمان وعلى الذين عاصروا الرسول الكريم وتأثروا به . كما أنهم قادوا الفتوحات الأولى للإسلام . وعملوا على تثبيت أركان الدين والدولة . وفى العصر الأموى أصبح منصب الخليفة وراثيا فالخليفة يوصى بمن يخلفه . وقد شهد ميلاد الدولة الأموية بعد انتصار معاوية على على بن أبى طالب فى قضية التحكيم ظهور طائفه الخوارج وإستمرت خلافة الأمويين ما يقرب من تسعين عاما بين عام ٤٠- ١٣٢ هـ (٦٦١ - ٧٥٠م) . وفى بداية حكمهم نقلوا عاصمة الدولة من المدينة إلى دمشق . وكانت الدولة الأموية دولة عربية خالصة على الرغم من أنها نقلت عاصمتها من قلب العروبة إلى منطقة تلتقى فيها الحضارة الرومانية والفارسية . وقد إزدهر الأدب والشعر بصفة عامة كما تجلت روائع الفن الإسلامى فى مسجد دمشق . كما شهد العصر الأموى بداية حركة الترجمه إلى العربية إلا أنها كانت مقصورة على أفراد وتمثل إهتماما فرديا أو جهودا شخصية . أما فى العصر العباسى فكانت تمثل مدرسة كاملة ترعاها الدولة وتباركها . كذلك إهتمت الترجمة فى العصر الأموى بالعلوم مثل الطب والكيمياء ولم تتعداها إلى العلوم العقلية فى الرياضيات والمنطق والفلسفة . ولذا كانت هذه العلوم العقلية وليدة الدولة العباسية ذاتها .

ومن أهم السمات العامة للتربية الإسلامية فى فترة البناء ما يأتى :

١- كانت عربية إسلامية خالصة :

تميزت هذه الفترة من التربية الإسلامية التى تمتد منذ ظهور الإسلام حتى نهاية الدولة الأموية بأنها كانت إسلامية عربية خالصة . وقد يرجع ذلك إلى غلبة العرب وأن العناصر الجديدة لم تكن قد إنصهرت إنصهارا ثقافيا كاملا . كما أن العناصر العربية هى التى كانت توجه الحكم والسياسة والدين والثقافة بصورة رئيسية عربية خالصة . وقد يرجع ذلك إلى غلبة العرب وأن العناصر . وفى هذه الفترة لا سيما فى عهد الأمويين نظمت حلقات الدروس فى المساجد . وقد ساعد على ذلك ظهور المذاهب والفرق الإسلامية والدينية المختلفة ومنها الخوارج والشيعه والمعتزلة . وقد اعتنق بعض الخلفاء الأمويين مذهب الإعتزال الذى يعتبر من المدارس التقدمية فى الإسلام وهو مذهب النزعة العقلية . وقد عمل إنتشار المذاهب والفرق الإسلامية على زيادة إهتمام العلماء ببحث المسائل الدينية المختلفة ومنها مسائل القضاء والقدر والجبر والإختيار وإرتكاب الكبيرة . وهكذا كان الإهتمام مركزا على الجوانب الدينية فى الإسلام . كما أن المسلمين لم يشغلوا يشىء إلا بلغتهم وثقافتهم وفى ذلك يقول صاعد الأندلسى فى كتابة طبقات الأمم (ص ٤٧) :

«كانت العرب فى صدر الإسلام لا تعنى بشىء من العلم إلا بلغتها رمعرفة أحكام شريعتها حاشا صناعة الطب فإنها كانت موجودة عند أفراد من العرب غير منكرة عند جماهيرهم لحاجة الناس طراً إليها . ولما كان عندهم من الأثر عن النبى صلى الله عليه وسلم فى الحث عليها حيث يقول:ياعباد الله تداووا فإن الله عز وجل لم يضع داء إلا وضع له دواء إلاداء واحدا هو الهرم "أى الكبر الشيخوخة» .

٢- إستهدفت إرساء قواعد الدين الإسلامى الجديد :

كان من الطبيعى أن تستهدف التربية الإسلامية فى هذه الفترة الأولى من حياة الإسلام العمل على نشر الدين وتعاليمه. ولذلك نجد أن هذه الفترة تميزت بالفتوحات الإسلامية لنشر الدين وتثبيت أركانه . وإلى جانب إرساء قواعد الدين وتثبيت أركانه شغل خلفاء المسلمين الأوائل بإرساء قواعد الحكم أيضا باعتبار أن الإسلام دين ودولة . فالحاكم هو فى نفس الوقت خليفة المؤمنين .

وفى عهد عمر بن الخطاب كان من الطبيعى أمام إتساع الدولة أن يهتم بالأمور الدينية والشرعية والإصلاحات الإدارية . وفى عهده أنشئت الدواوين ووضعت سجلات لدخل الدولة . وفى صدر الإسلام ظهرت الخطابة كفن هام له دوره فى نشر الدعوة الإسلامية وعلا شأنها على الشعر ولاسيما بعد أن هاجم القرآن الشعراء بقوله " والشعراء يتبعهم الغاوون ألا إنهم فى كل واد يهيمون ويقولون ما لا يفعلون إلا الذين آمنوا " . وكان الرسول هو وأصحابه يبثون الدعوة ويعلمون الناس فى المدينة . وكان يرسل دعاته ورسله إلى الجهات النائية من شبه الجزيرة ويقرءوهم القرآن الكريم . وكان الخلفاء يرسلون العلماء إلى الأمصار مع الجيوش لنشر الدعوة الإسلامية فيها . وكان علماء المسلمين يعلمون غيرهم من الناس بما فى ذلك الموالى . وكان من بين هؤلاء الموالى علماء فقهاء مثل ابن سيرين الذى تعلم على يد زيدين ثابت وأنس بن مالك وشريح وغيرهم . وصار من فقهاء البصرة . ومن المعروف أن أباه كان من سبى ميسان ومولى أنس بن مالك وأمه صفية مولاة أبى بكر وكانت قبطية . وأصبح محمد بن سيرين ثقة وفقيها يفتى فيما يعرض له من الشئون . وهو أحد الفقهاء السبعة بالمدينة جمع بين الحديث والفقه والزهد . وكان يعيش من التجارة بالزيت . وكان من أحفظ الناس لأحكام عمر بن الخطاب وأقضيته حتى سمى راوية عمر . توفى عام ٩٤هـ . وكان معاصراً للحسن البصرى . وكان صديقين حينا وبينهما وحشة حينا آخر. وسبب الوحشة كما يقول أحمد أمين فى فجر الإسلام (ص:٢٩٤) " إختلاف طبعهما . فقد كان الحسن البصرى صريحا شديدا حزينًا غضوبا لا يخشى أن يقول ما يعتقد حتى فى المشاكل السياسية الخطرة . أما ابن سيرين فكان حليما ضحوكا يتحرج أن يقول ما يؤخذ عليه . وقد اشتهر فيما بعد بتفسير الأحلام وزيف عليه كتاب فى ذلك . وقد ذكره ابن النديم فى الفهرست ونسبه إليه . ولكن لا نجد أثرا لشهرته فى تعبير الرؤى فى كتب المتقدمين أمثال طبقات ابن سعد . ومات ابن سيرين عام ١١٠هـ . يضاف إلى ذلك أن الصحابة بعد فتح الممالك تفرقوا فى الأمصار وكان من بينهم علماء رحلوا للتعليم ونشرالدين فكانوا نواة لمدارسها .

كما كان الخلفاء يوصون ولاتهم فى الأمصار بضرورة الإهتمام بنشر الدين وتعاليمه . وقد أرسل الخليفة الأموى عمر بن عبد العزيز إلى شمال أفريقيا عشرة من الفقهاء لتعليم أبناء البربر تعاليم الدين الإسلامى .

٢- شهدت ميلاد الفرق الدينية والكلامية :

يقول ابن حزم فى كتاب الفصل فى الملل والأهواء والنحل (حـ٢ :ص٢٦٥) فى كلامه عن الفرق الإسلامية :

" إن فرق المقرين بملة الإسلام خمسة . وهم أهل السنة والمعتزلة والمرجئة والشيعة والخوارج . ثم افترقت كل فرقة من هذه على فرق . وأكثر افتراق أهل السنة فى الفتيا ونبذ يسيرة من الإعتقادات . . . ثم سائر الفرق الأربعة التى ذكرناها ففيها ما يخالف أهل السنة الخلاف البعيد وفيها ما يخلفهم الخلاف القريب .

ويقول آحمد أمين (١٩٧٩ : ٢٥٢) : " كانت الخلافة أول مسألة اشتد فيها الخلاف بين المسلمين (بعد موت النبى ﷺ) وتشعبت فيها آراؤهم وتكون حولها أهم الفرق (الدينية) الإسلامية فى العصر الأول وهم الخوارج والشيعة والمرجئة . فقد كان من الطبيعى بعد موت الرسول (ﷺ) أن تظهر مشكلة اختيارمن يخلفه فى الحكم والخلافة لاسيما وأنه لم يعين خلفا له يتولى أمر المسلمين من بعده .كما أن القرآن لم يشر إلى نظام الحكم الذى يتبعه المسلمون بعد النبى وأخذ الأنصار زمام المبادرة فأسرعوا قبل دفنه واجتمعوا فى سقيفة بني ساعدة . وفيها انقسموا إلى رأيين : أحدهما يقول بأن يكون بإختبار الخليفة من الأنصار لأنهم ناصروا الرسول وآذروه وأعزوا دينه حتى دانت له جزيرة العرب . والرأى الآخر يقول بأن يكون اختيارالخليفة من المهاجرين لأنهم أول من آمن بالرسول (ص) وصبروا على الأذى معه . كما أنهم من قريش والعرب والمسلمون لايدينون إلا لهم .

وكان هناك رأى ثالث يقول بأن تكون الخلافة فى بيت النبى (ص) وآله . ويقول أحمد أمين .ص٢٥٣) إن هذه الآراء الثلاثة ظلت تتعارض ووجد فى العصور المختلفة من يؤيدها ويدافع عنها حتى الرأى الأول الخاص بالأنصار .فقد كان هناك قوم يعتنقونه وإن لم يظهر ظهورا بينا فى التاريخ . أما الرأيان الآخران فكانت الحرب بينهما أحكم والجدال أشد . وعلى كل حال فقد تم إختيار أبى بكر كأول خليفة بعد الرسول (١١-٤٠هـ-٦٣٢-٦٦١م) وخلف عمر بن الخطاب أبا بكر (١٣-٢٣هـ) وجاء بعده عثمان بن عفان ثالث الخلفاء الراشدين (٢٣-٣٥هـ) . وبعد مقتله بايع كثير من المسلمين على بن أبى طالب رابع

الخلفاء الراشدين بالخلافة (٣٥-٤٠هـ) . وكانت هناك طائفة لم تبايع عليًا منهم طلحة والزبير ومعاوية وألصقوا به تهمة ضلوعه فى مقتل عثمان وتقاعسه فى نصرته وقد أنتهى أمر طلحة والزبير سريعا بانهزامهما وقتلهما فى موقعة الجمل . أما معاوية فقد اشتد الخلاف بينه وبين على . وكان معاوية آنذاك واليا على بلاد الشام سبق أن عينه عثمان وعزله على عن هذه الولاية كما عزل كل الولاة الذين عينهم عثمان . وأطاع هؤلاء الولاة أمر عزلهم إلا معاوية فإنه أبى واستكبر ومكنتة ثروة بلاد الشام من تكوين حزب قوى يناصره على أعدائه . وقامت بعد ذلك الحرب بينه وبين على فى موقعة صفين المشهورة إنتهت بخدعة معاوية المشهورة بطلب تحكيم كتاب الله بينهما وإيعازه إلى جنوده برفع المصاحف على أسنة الرماح وإنتهى الأمر بمقتل على وفوز معاوية بالخلافة وتأسيس الدولة الأموية التى استمرت ما يقرب من تسعين عاما (٤١ إلى ١٣٢هـ = ٦٦١-٧٥٠) . وكان نتيجة هذا الصراع لاسيما بعد الفتنة الكبرى ومقتل عثمان قيام ثلاث فرق دينية من أكبر الفرق الإسلامية هى : الخوارج والشيعة والمرجئة كما سبق أن أشرنا . وسنفصل الكلام عن كل واحدة منها .

١ - الخوارج : هم الذين خرجوا على سيدنا على رضى الله عنه عندما قبل التحكيم مع معاوية . ومن هنا استمدوا إسمهم . ويمثل الخوارج المبادئ الديمقراطية المتطرفة . فهم يعتقدون بأن الخليفة إذا بويع لا يصح له أن ينزل عن الخلافة . كما جعلوا حق الخلافة متاحا لجميع المسلمين للأحرار والأرقاء على السواء . وقد خالفوا بهذا نظرية الشيعة التى تقول بانحصار الخلافة فى آل بيت النبى (حسن إبراهيم وآخران : ص ٣٤) كما خالف الخوارج أهل السنة وقالوا بأن مرتكب الكبيرة كافر وليس بمؤمن . كما خالفوا المعتزلة فى هذا أيضا . فهؤلاء يقولون بأن مرتكب الكبيرة ليس بكافر ولا بمؤمن وإنما هو فى منزلة بين المنزلتين وقد كان الخوارج شوكة فى جنب الدولة الأموية يهددونها ويحاربونها حرباً متواصلة . واستمروا على ذلك فى الدولة العباسية أيضا لكنهم لم يكونوا بنفس القوة . فقد ضعف شأنهم وانحط قوادهم (أحمد أمين :١٩٧٩ ص٢٥٧-٢٥٨) وقد تفرقوا إلى فرق بلغت نحو العشرين كل فرقة تخالف الأخرى فى بعض تعاليمها ومن أشهرها فرقة الإباضية أتباع عبد الله بن إباض التميمي . ولا يزال أتباعه فى المغرب وغيره إلى اليوم (المرجع السابق) .

٢ ـــ الشيعة : هم أتباع سيدنا على الذين شايعوه ونصروه ومن هنا استمدوا اسمهم . وهم يقولون بأن النبى (ص) عين عليا إماما وأوصى به خليفة للمسلمين من بعده بنصوص ينقلونها ويأولونها على مقتضى مذهبهم لا يعرفها جهابذة السنة ولا نقلة الشريعة،كما يقول ابن خلدون فى مقدمته . ولذلك لقب على بالوصى وهى كلمة انتشرت بين الشيعة واستعملوها . وقد ذهبوا إلى القول بعصمة الأئمة على ومن بعده فلا يجوز الخطأ عليهم ولا يصدر منهم إلا ما كان صوابا . وتعتقد غلاة الشيعة بأن عليا رضى الله عنه ، أفضل الخلق بعد النبى وأنه معصوم،بل إنهم ألهوه .فمنهم من قال : " حل فى على جزء إلهى واتحد بجسده فيه وبه كان يعلم الغيب (أحمد أمين : ١٩٧٩ ص ٢٦٩) . وينبغى هنا أن نشير إلى ما حدث بين سيدنا على وبين عبد الله بن سبأ اليهودى الذى يعتبر مؤسس الشيعة عندما رأى عليا يرفع شيئا ثقيلا لعله غطاء بئر إذا لم تخنى الذاكرة فقال له : والله ما رفعته بقوة جسمانية وإنما بقوة إلهيه ملكوتيه " فرد عليه على بقوله " لو عدت إلى ذلك لرجمتك " ومن المعروف أن عبد الله بن سبأ دخل فى الإسلام ليهدمه ويبث فيه تعاليمه السرية الهدامة ومنها تأليهه لسيدنا على وتأليبه الأمصار على عثمان بدعوى أنه أخذ الخلافة بدون حق وقوله بأن سيدنا محمداً يرجع وأن عليا يرجع . . وهذا القول ترديد لفكرة " الرجعه" التى اخذها عبد الله بن سبأ من اليهودية ، ديانته الاصليه . فمن المعروف فى هذه الديانه أن النبى " إلياس" صعد الى السماء وسيرجع ليعيد الدين والقانون. وقد شاعت نفس هذه الفكره فى المسيحيه. إبان عصورها الاولى . ويقول احمد امين إن هذه الفكره (أى فكرة الرجعة أو العودة) تطورت عند الشيعة الى العقيدة باختفاء الأئمة وأن الإمام المختص سيعود ليملأ الارض عدلا ومنها نبتت فكره المهدى المنتظر . ومن غلاة الشيعة أيضا مايسمون بالشيعة الغرابية الذين يقولون بأن جبريل أخطأ فى النزول بالرساله على محمد بدلا من على لأن كلا منهما كان يشبه الآخر كما يشبه الغراب الغراب . ومن هنا كانت تسميتهم بالغرابيه . وأساس نظرية الشيعة كما يعرض لها احمد امين (١٩٧٩ حتى ص ٢٧١) هى الخليفه أو كما يسمونه هم " الإمام " . فعلى هو الإمام بعد محمد (ص). ثم يتسلسل الأئمة بترتيب من عند الله . وطاعته جزء من الإيمان فهو فوق الناس ومعصوم من الخطأ لأنه أكبر معلم . وهذا يخالف نظرة أهل السنة

الذين يعتبرون الخليفة أو الامام نائبا عن صاحب الشريعة فى حفظ الدين . وهو رئيس السلطة الإدارية والقضائية والحربية . لكن ليست له سلطه تشريعية إلا بمقدار تفسيره لأمر او اجتهاده فيما ليس فيه نص .

ومن طوائف الشيعة من يسمون بالإسماعيلية أو الباطنية الذين يقولون بأن للقرآن ظاهرا وباطنا وأن النبى (ص) علم سيدنا عليا الإثنين معا . فكان يعلم ظاهر القرآن وباطنه . وكل إمام ورث هذا العلم من بعده . ومن هنا كان الإمام أكبر معلم . والعلم الحق هو ما أخذ عنه . وسميت طائفة الإسماعيلية بهذا الإسم لأنهم يقفون بأئمتهم عند إسماعيل بن جعفر الصادق . ويقول عنهم احمد امين (ص ٢٧٢) إنهم لعبوا دورا طويلا فى تاريخ الاسلام وأخذوا مذهب الأفلاطونية الحديثة وطبقوه على مذهبهم الشيعى تطبيقا غريبا . واستخدموا مانقله إخوان الصفا فى رسائلهم من هذا المذهب الأفلاطونى . ويقول احمد امين إن من آثار دعايتهم الدولة الفاطمية فى المغرب ومصر ولايزال لهم بقايا إلى اليوم فى الشام والعجم والهند وكان رئيسهم " أغاخان" الزعيم المشهور . ومن أشهر فرق الشيعة "الإثنا عشرية" الذين يسلسلون أئمتهم إلى إثنى عشر إماما وعقيدتهم هى العقيدة الرسمية لدولة إيران إلى اليوم (المرجع السابق) . ومن أهم فرق الشيعة الزيدية والإمامية . أما الزيدية فهم أتباع زيد بن حسن بن على بن الحسين بن على بن أبى طالب،ومذهبهم أقرب مذاهب الشيعة إلى أهل السنة.ولاتزال الزيدية فى اليمن حتى الآن . أما الإمامية فهم فرق متعددة لا تتفق على أشخاص الأئمة. وسموا بالإمامية لأن أهم عقائدهم تتركز على الإمام ، والاعتراف به عندهم جزء من الإيمان . وهم يقولون بعودة إمام منتظر وإن اختلفوا فى تحديده. فمنهم من يرى أنه جعفر الصادق ومنهم من يرى أنه محمد بن عبد الله بن الحسن بن الحسين بن على بن أبى طالب . ومنهم من يرى أنه محمد بن الحنفية . وهؤلاء يزعمون أنه حى لم يمت وينتظر أمر الله له بالخروج .

٣ ـ المرجئة : ظهرت طائفة المرجئة كحزب سياسى محايد فى بداية عهدها إبان الفتنة الكبرى ومقتل عثمان وماثار بين المسلمين آنذاك من خلاف حول الخلافة ومن أحق بها . وفيما بعد أخذوا يبحثون فى الأمور الدينية مثل تحديد الكافر والمؤمن والكفر والإيمان،وقد وقف أصحاب هذه الطائفة موقف الحياد بين أصحاب وجهات النظر المختلفة . فهم لايخطئون طائفة ولاينحازون فى الرأى

لطائفة أخرى . وقد سموا بالمرجئة لأنهم أرجأوا الحكم لله وحده فى أمر المسلم مرتكب المعصية أو الكبيرة . ويقولون بأنه لا تضر مع الإيمان معصية كما لا تنفع مع الكفر طاعة . كما يقولون بأنه لا يصح تكفير المسلم مهما ارتكب من المعاصى مرجئين الفصل فى أمره لله وحده . وقد ارتضوا حكم بنى أمية وأفل نجمهم بزوال الدولة .

٤- المعتزلة : هم أتباع واصل بن عطاء بعدما اعتزل مجلس أستاذه الحسن البصرى فى قصة مشهورة معروفة . فقد اختلف واصل مع أستاذه فى أمر مرتكب الكبيرة أو المعصية هل هو كافر أم مؤمن ؟ وكان رأى واصل مخالفا لرأى أستاذه إذ أنه رأى أنه ليس بكافر ولا بؤمن وإنما هو فى منزلة بين المنزلتين . وبعدها اعتزل مجلس أستاذه . وعندها قال أستاذه مقولته المشهورة لقد اعتزلنا واصل . ومن هنا سمى هو وأتباعه بالمعتزلة.والغريب أن أحمد أمين يرى أن هذا الرأى ضعيف على الرغم من أنه يورد فى نفس الصفحة (٢٨٨) رواية هذا الرأى على لسان المرتضى فى " المنية والأمل " ،والشهر ستانى فى"الملل والنحل" وابن قتيبة فى " المعارف " وابن رستة فى " الأعلاق النفسية " والشريشى فى "المقامات" وابن خلكان فى" ترجمة قتادة" . ويتفق أحمد أمين مع رأى المستشرق الإيطالى "نلينو" (ص ص ٢٩٠-٢٩١) فى القول بأن هذه الكلمة (المعتزلة) سميت بها فئة خاصة قبل مدرسة الحسن البصرى بنحو مائة عام وأن إطلاقها على مدرسة واصل بن عطاء وعمرو بن عبيد كان إحياء للأسم القديم لا إبتكاراً. وواصل بن عطاء هو من الموالى . وقد ولد فى المدينة سنة ٨٠ هـ ثم انتقل إلى البصرة وسمع من الحسن البصرى وغيره وتوفى عام ١٣١ هـ . وعمرو بن عبيد كان من الموالى أيضا وتتلمذ على الحسن البصرى واعتنق رأى واصل بن عطاء فى الإعتزال . وتوفى عام ١٤٥ هـ .وينقل أحمد أمين (ص ٩٦) عن أحمد بن يحيى المرتضى فى كتابه المسمى " بالمنية والأمل فى شرح كتاب الملل والنحل " قوله بأن مذهب الإعتزال يرجع إلى الصدر الأول للإسلام . فقد عد من الطبقة الأولى للمعتزلة الخلفاء الأربعة وعبد الله بن مسعود وعبد الله بن عباس وغيرهم. ومن الطبقة الثانية الحسن والحسين ومحمد بن الحنفية وسعيد بن المسبب وغيرهم . ومن الطبقة الثالثة الحسن بن الحسين وعبد الله بن الحسن وأبو هاشم عبد الله بن محمد بن الحنفية وهو الذى أخذ عنه واصل بن عطاء . ومن الطبقة

الرابعة غيلان الدمشقى وواصل بن عطاء . ويقول المرتضى عن واصل بن عطاء " إنه كان أعلم الناس بكلام غالية الشيعة ومارقة الخوارج وكلام الزنادقة والدهرية والمرجئة وسائر المخالفين ". وتصفه زوجته فتقول " كان إذا جنّه الليل صف قدميه يصلى ولوح ودواه بجانبه فإذا مرت به آية فيها حجة على مخالف جلس فكتبها ثم عاد لصلاته . ولم يكتف بذلك بل بعث دعاته إلى الأمصار يجادلون أصحاب التعاليم المخالفة وينشرون مبادئه . فبعث عبد الله بن الحارث إلى المغرب وحفص بن سالم إلى خراسان.كما بعث آخرين إلى اليمن والجزيرة وأرمينية (أحمد أمين : فجر الإسلام : ٤٧٥ ٤٧٦) . وقد نشأ الإعتزال فى البصرة وسرعان ما انتشر فى العراق واعتنقه من خلفاء بنى أميه يزيد بن الوليد ومروان بن محمد . وفى العصر العباسى تكونت مدرستان كبيرتان للإعتزال مدرسة البصرة ومدرسة بغداد وكان بينهما خلاف وجدال فى كثير من المسائل .

وكانت المعتزلة أسرع الفرق الكلامية استفادة من الفلسفة اليونانية وصبغها صبغة إسلامية والاستفادة بها فى نظرياتهم وجدلهم . وكان من أشهر من استخدم الفلسفة من المعتزلة أبو الهذيل بن العلاف والنظام والجاحظ . ويقول أحمد أمين إن المعتزلة هم الذين خلقوا علم الكلام فى الإسلام وأنهم أول من تسلح من المسلمين بسلاح خصومهم فى الدين . ويعنى بهم من دخل فى الإسلام من اليهود والنصارى والمجوس والدهر بين . وأثاروا كثيرا من الشبهات والشكوك حوله لأنهم لم يكونوا منصفين أو مخلصين فى إسلامهم . وقد تصدى المعتزلة لهم وجادلواهم جدالا عنيفا وردوا عليهم شبهاتهم وشكوكهم .

وكان المعتزلة يسمون أنفسهم أهل العدل والتوحيد . أما العدل فلأنهم نزهوا الله عما يقول خصومهم من أنه قدّر على الناس المعاصى ثم عذبهم عليها . وقالوا إن الله لا يخلق أفعال الناس وإنما هم الذين يمثلون أعمالهم . وإن الإنسان حر فى أفعاله ومن أجل هذا يحاسب عليها سواء كانت خيرا أو شرا.وينال عليها ثوابا أو عقابا.وفى هذا عدل . أما التوحيد فلأنهم نفوا صفات الله وعدوا القول بها تعديدا له (أحمد أمين : ١٩٧٩ ص ٢٩٦) . ومن تعاليم المعتزلة أيضا القول بالمنزلة بين المنزلتين فى أمر مرتكب الكبيرة كما أشرنا.فهو ليس بكافر ولا بمؤمن.وإنما هو فاسق وله منزلة بين الكفر والإيمان ويخلد فى النار . كما أنهم يقولون بسلطة العقل وقدرته على معرفة الحسن والقبيح ولو لم يرد بها شرع .

ولذلك تعتبر المعتزلة من أكبر المدارس العقلية الفكرية فى الإسلام إن لم تكن أكبرها على الإطلاق . ويعلق أحمد أمين على المعتزلة بأنهم كانوا مكروهين من كثير من المسلمين لأسباب أهمها أنهم خالفوا أهل الحديث فى كثير من آرائهم فحمل عليهم المحدثون حملات عنيفة . ومنها أنهم حولوا العقيدة الإسلامية البسيطة إلى عقيدة فلسفية عميقة . ومنها أنهم حملوا الناس على القول برأيهم بالسيف والقوة فى أيام سلطتهم فى عهد المأمون والمعتصم . ومنها أيضا أنهم أنزلوا الصحابة منزلة سائر الناس ولم يقروا لهم بعصمة (أحمد أمين : ص ص ٤٧٦ - ٤٧٧) .

٤- إعتمدت أساسا على العلوم النقلية واللسانية :

إعتمدت التربية الإسلامية خلال هذه الفترة على العلوم النقلية وتشمل علوم الدين المختلفة من قراءات وتفسير وحديث وفقه وما يتصل بها من علوم لسانية وهى النحو واللغة والأدب . وهذه النزعة النقلية واللسانية للجانب الثقافى من التربية الإسلامية تتمشى مع ما سبق أن أشرنا إليه من كون التربية فى هذه الفترة عربية إسلامية خالصة واستهدفت إرساء قواعد الدين بصورة رئيسية .

٥- إهتمت بالكلمة المكتوبة كوسيلة هامة للإتصال :

إلى جانب ما أشرنا إليه من إستخدام الخطابة كأسلوب هام فى التربية الإسلامية فى صدر الإسلام برزت أيضا أهمية الكلمة المكتوبة كوسيلة هامة للإتصال ولم تكن هذه الأهمية موجودة من قبل .

فقد كان مجئ الإسلام عاملا هاما فى ظهور أهمية الكتابة . وبرزت أهميتها أول ما برزت عندما أراد النبى صلى الله عليه وسلم كتابة الوحى وما ينزل عليه من آيات القرآن الكريم . وقد استعان بمن كانوا يعرفون الكتابة آنذاك. وكان أول من كتب له أبى بن كعب الأنصارى وزيد بن ثابت الأنصارى . إذ كانا يقومان بكتابة ما يوحى إليه به صلى الله عليه وسلم . وممن كتب له أيضا عبد الله بن سعد بن أبى سرح القرشى قبل أن يرتد ، وعثمان بن عفان وشرحبيل بن حسنة وأبان بن سعيد والعلاء بن الحضرمى ومعاوية بن سفيان وحنظلة بن الربيع . ويروى أن هؤلاء الكتبة للوحى لم يكونوا مهرة فى الكتابة . ولم تكن كتابتهم تسير علي نمط واحد أو تخضع لقواعد واحدة من الكتابة أو

الإملاء . فكانوا لا يميزون بين مواضع الألف يحذفونها في موضع ويضيفونها فى موضع آخر مع تساوى الموضعين فى الإملاء . وكتبوا التاء المربوطة مفتوحة وغير ذلك . ويقول ابن خلدون في تعليل ذلك : " هو ضعفهم فى صناعة الخط والكتابة وأنهم لم يبلغوا حد الإجادة فيها ".

وكان كتيبة الوحى يكتبون على الرقاع والأضلاع وسعف النخل والحجارة والرقائق . كذلك كان نشر الدين الإسلامى عاملا هاما فى ظهور أهمية القراءة والكتابة . فالمسلمون الأوائل بدأوا يحسون بالحاجة إلى القراءة والكتابة ليعرفوا أمور دينهم على الوجة الصحيح . وآيات القرآن الكريم كانت تكتب ويتلوها من يعرف القراءة على من لا يعرف . وكان من الطبيعى إذن أن يحس المسلمون بحاجتهم إلى تعلم القراءة والكتابة . وقد أقبل الناس على القرآن يقرأونه ويفهمون معانيه ويفسرون آياته ويستنبطون منه لأحكام . كما أن حاجة الرسول صلى الله عليه وسلم إلى نشر الدين تطلبت منه الإتصال بمن جاوره من الملوك والأمراء عن طريق الكتابة إليهم وبعث الرسائل لهم . وفى ذلك يقول ابن هشام : " فبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم رسلا من أصحابه . وكتب معهم كتابا إلى الملوك يدعوهم فيه إلى الإسلام . فبعث دحية بن خليفة الكلبى إلى قيصر ملك الروم وبعث عبد الله بن حذاقة السهمى إلى كسرى ملك فارس ، وبعث عمرو بن أمية الضمرى إلى النجاشى ملك الحبشة . وبعث بن أبى بلتعة إلى المقوقس ملك الأسكندرية . وبعث عمرو بن العاص السهمى إلى جيفر وعباد ابنى الجلندى الأزديين ملكى عمان . وبعث سليط بن عمرو أحد بنى عامر بن لؤى إلى ثمامة بن أثال وخوذة بن الحنفيين ملكى اليمامة . وبعث العلاء بن الحضرمى إلى المنذر بن ساوى العبدى ملك البحرين . وبعث شجاع بن وهب الأسدى إلى الحارث بن شمر الغسانى ملك تخوم الشام ، وبعث المهاجر بن أبى أمية المخزومى إلى الحارث بن عبد كلال الحميرى ملك اليمن . وهذه الرسائل مكتوبة بالعربية لكنه إحتاج إلى من يحسن الرومية والفارسية والحبشية والقبطية لترجمة مضمون هذه الرسائل إلى من وجهت إليهم من غير العرب .

ومن ناحية أخرى نجد أن الحاجة إلى كتابة المواثيق والعهود ومعاهدات الصلح - منها صلح الحديبية الذى يدلل به بعض المفكرين ومنهم عباس العقاد على أن الرسول صلى الله عليه وسلم لم يكن أميا لأنه وقع عليه - كانت عاملا هاما فى

تأكيد الحاجة إلى تعليم الكتابة منذ بداية عهد النبى صلى الله عليه وسلم .كذلك نجد أن القرآن الكريم قد حث المسلمين بل وأمرهم بأن يكتبوا الدين ضمانا لحقوق الدائن وإلزاما للمدين . قال تعالى : " يأيها الذين آمنوا إذا تداينتم بدين إلى أجل مسمى فاكتبوه وليكتب بينكم كاتب بالعدل " * ومن تعلم الكتابة من العرب تعلمها بخط من أخذ عنهم . ولذا تعددت الخطوط العربية فى الكتابة فكان منها الخط النبطى الذى تطور عنه خط النسخ ، والسريانى بالعراق الذى تطور عنه الخط الكوفى نسبة إلى مدينة الكوفة . وكان هذا الخط يعرف قبل الإسلام بالخط الحيرى نسبة إلى مدينة الحيرة بالعراق وهى المدينة التى بنى المسلمون الكوفة بجوارها .

٦- أظهرت الحاجة لتعليم اللغات الأجنبية :

ظهرت الحاجة إلى تعلم اللغات الأجنبية منذ أيام الإسلام الأولى وان كان ذلك على نطاق ضيق . فقد كان نتيجة لاتصال المسلمين بالأقطار الأخرى وإتساع رقعة الإسلام خارج حدود الجزيرة العربية ، أن برزت الحاجة إلى تعلم اللغات الأجنبية ، وقد حث النبى (ص) بعض اصحابه على أن يتعلموا اللغات الأخرى غير العربية لدواعى الحاجة إليها . وفى الحديث الشريف أنه " من تعلم لغة قوم أمن شرهم " وقد دعا النبى أصحابه لتعلم العبرية والسريانية ليدون بها رسائله . ويروى عن زيد بن ثابت أن النبى (ص) طلب منه أن يتعلم الكتابة اليهودية (العبرية) ليتولى مراسلات النبى معهم ففعل زيد . وكان يقوم بالكتابة لهم على لسان النبى . كما كان يقرأ للنبى مايرسلون له . وهكذا كان تعلم اللغات الأجنبية مطلبا للتربية الإسلامية منذ ظهورها للوفاء باحتياجاتها التى فرضتها عليها الطبيعة الإنسانية العالميه للدين الإسلامى .

٧- اعتمدت على الكتّاب والمسجد :

اعتمدت التربيه الإسلاميه على الكُتّاب والمسجد بصوره رئيسيه كمراكز للتعليم . ولم تكن المدارس قد أنشئت بعد ،كما أن المكتبات لم يكن لها شأن كبير

---

* لتفصيل الكلام عن هذا الموضوع وغيره أنظر لنفس المؤلف كتاب : التربية الإسلامية أصولها وتطورها في البلاد العربية ، عالم لكتب ، القاهرة ،٢٠٠٠ .

فى هذه الفترة . وقد لعب الكتاب والمسجد دورا هاما فى التربية الإسلامية فى هذه الفترة . ونظرا لأن هذه المراكز قد استمرت تلعب هذا الدور الهام فيما بعد فإننا سنفصل الكلام عنها فى كلامنا عن مراكز التعليم .

المرحلة الثانية : مرحلة العصر الذهبى أو الازدهار :

مقدمة تاريخية :

فى هذه الفترة من التربية الإسلامية بلغت بلاد الإسلام أقصى حدودها من المحيط الأطلسى فى أقصى الغرب إلى حدود الصين فى أقصى الشرق . ومن وسط آسيا فى الشمال إلى وسط أفريقيا فى الجنوب . وامتد الإسلام فى أوروبا حتى جبال البرانس وبلاد الغال جنوب فرنسا . وصهرت أمم هذه الأقطار الواسعة البالغة الكثيرة فى بوتقة الإسلام . فأسهمت فى حضارة تعد من أسطع ماعرف العالم من الحضارات الفكرية والمادية على السواء .

وكان أكثر أدوار الحضارة الإسلامية ازدهارا هو دور الخلافة العباسية ببغداد التى امتدت خمسه قرون (٧٥٠ - ١٢٥٨م) ودور الأمويين بأسبانيا (٧١١ - ١٤٩٢م) الذى امتد ما يقرب من ثمانية قرون . يقول غوستاف لوبون فى (حضارة الإسلام) : " كانت بغداد وقرطبة هما القاعدتان اللتان كان السلطان فيهما للإسلام من مراكز الحضارة التى أضاءت العالم بنورها الوهاج " ولهذا سنخصص هذه المقدمة التاريخية للكلام عن الدولة الإسلامية فى المشرق والدولة الإسلامية فى المغرب .

أولا : الدولة الإسلامية فى المشرق : ترتبط هذه الفترة التاريخية فى المشرق بالدولة العباسية كما قلنا . وكانت دولة عربية اللسان فارسية اللون عالمية الفكر والثقافة . وكان العراق على وجه الخصوص حافلا بالعلماء وفيهم الأطباء والمنجمون والرياضيون وغيرهم ممن تجمعوا من بلاد فارس وما بين النهرين . ومنهم السريان والفرس والروم والهنود . فلما أراد الخلفاء نقل علوم اليونان وغيرهم إلى لسانهم وجدوا بين ظهرانيهم من يلبى الطلب ويفى بالغرض (جرجى زيدان : حـ٣ص١٥٢)

وفي هذه الفترة إنتشرت اللغة العربية فى جميع أنحاء آسيا إنتشارا سريعا فحلت محل اللغات القديمة بها حتى أصبحت اللغة العربية بالنسبة لدول الشرق

كاللاتينية بالنسبة لدول الغرب . وقد تمكن العباسيون بفضل الإزدهار الذى غمرهم من القيام بكثير من الأعمال العظيمة ذات النفع العام فى شتى الميادين . منها شق الطرق التى تربطها بجميع البلاد وإنشاء مرابط للخيل والإستراحات أو الفنادق للقوافل وحفر صهاريج المياه التى كانت تزود المسافرين بالماء . وتقدمت الزراعة والصناعة . واستغلت الثروات الطبيعية التى كانت تملأ الخلافة شرقا وغربا فاستغلت مناجم الحديد بخراسان ومناجم الرصاص بكرمان والرخام بطوروس . كما استغلت مصادر النفط والأحجار الكريمة ، وازدهرت الفنون والآداب . وظهرت " ألف ليلة وليلة " التى غذت خيال الشعراء والأدباء وارتبطت بهارون الرشيد ، وبنيت المدارس والمستشفيات والمختبرات الطبية والمراصد الفلكية . ومن أئمة علماء هذه الفترة فقيها الإسلام العظيمان أبو حنيفة ومالك اللذان عاشا أوائل الحكم العباسى . وعاشا فى عهد الخليفة لعباسى الثانى المنصور (٧٥٤ -٧٧٥م) . وكانا يقومان بإلقاء دروسهما فى المساجد .

ويبرز الخليفة المأمون شديد الإهتمام بالتعليم والأدب . وكان يجمع من الأقاليم التابعة له كسوريا وأفريقيا ومصر ما يوجد منها من كتب بدلا من الضرائب . وكانت مئات الجمال ترى وهى تدخل بغداد حاملة ورقا وكتبا فقط . وكانت تترجم للعربية الكتب القيمة . وكان بلاط المأمون يبدو وكأنه مجلس للعلوم والآداب أكثر من كونه للحكومة والخلافة . إذ كان يتألف من العلماء والنقاد والمترجمين والشراح .

وكان المأمون يختلي بالحكماء ويأنس بمناظرتهم ويلتذ بحديثهم إيمانا منه بأن أهل العلم هم صفوة الله من خلقه ونخبته من عباده . فلهذا السبب كان أهل العلم مصابيح الدجى وسادة البشر ، توحش الدنيا لفقدهم . بل إن المأمون لما فرض السلم على قيصر الروم طلب أن تكون الجزية مجموعة من الكتب . وإزدهرت بغداد لا كعاصمة الخلافة العباسية بل كمركز للثقافة والفنون والآداب لم تشهد له البشرية مثيلا . وحملت بغداد شعلة العلم والمعرفة إلى كل ربوع آسيا : فى الهندوستان تحت رعاية الغزنويين فى مطلع القرن الحادى عشر على يد البيرونى ولدى السلاجقة فى أواخر القرن الحادى عشر على يد عمر الخيام ولدى المغول حوالى منتصف القرن الثالث عشر على يد نصر الدين الطوسى ومرصد مراغة ، وفى الصين حوالى أخريات القرن الثالث عشر على يد "كوشوكينج" ،

ولدى العثمانيين فى النصف الأول من القرن الرابع عشر .

وفى تلخيص هذه النهضة الثقافية والعلمية للمسلمين يقول جرجى زيدان حـ٣ ص ص١٨٢-١٨٣) :

" وفى الجملة فإن المسلمين نقلوا إلى لسانهم معظم ما كان معروفا من العلم والفلسفة والطب والنجوم والرياضيات والأدبيات عند سائر الأمم المتمدنة فى ذلك العهد ... فأخذوا من كل أمه أحسن ما عندها . فكان اعتمادهم فى الفلسفة والطب والهندسة والموسيقى والمنطق والنجوم على اليونان ، وفى السير والآداب والحكم والتاريخ والموسيقى على الفرس ، وفى الفلاحة والزراعة والتنجيم والسحر والطلاسم على الأنباط والكلدان ، وفى الكيمياء والتشريح على المصريين . فكأنهم ورثوا أهم علوم الأشوريين والبابليين والمصريين والفرس والهنود واليونان . وقد مزجوا ذلك كله وعجنوه واستخرجوا منه علوم التمدن الإسلامى ويلاحظ أن العرب نقلوا من علوم تلك الأمم فى قرن وبعض القرن ما لم تستطع الرومان بعضه فى عدة قرون وذلك شأن المسلمين فى أكثر أسباب تمدنهم العجيب ... وقد استطاع المسلمون بعد ذلك أن يصبغوا هذه العلوم بالصبغة الإسلامية وأن يضيفوا إليها . فلما نهض أهل أوربا إلى استرجاع علوم اليونان أخذوا معظمها عن اللغة العربية وفيها الصبغة الإسلامية .

وقد عرض أحمد أمين إلى التزاوج بين الثقافة العربية الإسلامية وغيرها من الثقافات المعاصرة من يونانية وفارسية ورومانية وغيرها ، ويقول إنه من هذا التزواج نتجت المذاهب الدينية والفلسفة الإسلامية والحركات العلمية والفنون الأدبية . ويخلص بعد ذلك إلى القول (ص١٣٤) :

"إذا فمن الخطأ البين الفكرة الشائعة أن العرب المسلمين جميعا كانوا بمعزل عما حولهم من الثقافات والأديان إلى العصر العباسى وأن آراءهم وآدابهم وعلومهم نبتت وحدها من عقول عربية من غير أن تغذى بغيرها.فقد رأينا أنهم حتى فى جاهليتهم لم يكونوا بمعزل وأنهم كانوا بعد الإسلام أكثر إتصالا . ولا يقدح هذا فى أية أمة. فالعلم ملك شائع ومرفق مباح يغترف منه الناس جميعا . وليس له حدود فاصلة كالتى ترسمها السياسة الدولية. وإنما الذى يقدح فى الأمة حقا أن تغمض عيونها ،وتسد آذانها عما حولها من نظريات وأفكار أو أن يدفعها التعصب الأعمى أن تنسب لنفسها ما ليس لها ،وتعزو إليها خلق وابتداع ما لم تبتدع ".

ثانيا : الدولة الإسلامية فى المغرب :

يتضمن الكلام عن الدولة الإسلامية فى المغرب فى العصور الوسطى الكلام عن شمال أفريقيا والأندلس .

(١) فى شمالى أفريقيا :

قبل الفتح الإسلامى كان ما يعرف الآن بالمغرب جزءا من الإمبراطورية الرومانية . كما كانت مصر وبلاد الشام جزءا من هذه الإمبراطورية أيضا .وقد عمل الرومان على نشر ثقافتهم اللاتينية فى بلاد شمال أفريقيا ونقلوا إليها مدارسهم وأنظمتهم التعليمية . وكما كانت الآداب والفنون اليونانية مزدهرة فى روما فإنها قد وجدت لها مراكز خصبة فى شمال أفريقيا طيلة القرنين الأولين من إستيلاء الرومان على أفريقيا . وكانت قرطاجنة التى بعثت من جديد بعد أن دمرها الرومان مركزا هاما للثقافة والفنون الهلينية . وقد ذاع صيتها وعلا كعبها كجامعة فى العلوم والآداب والفنون الهلينية فى العالم الرومانى حتى أصبحت تفاخر وتنافس جامعتى روما وأثينا . وكانت اللغتان اليونانية واللاتينية تحيان بها جنبا إلى جنب .

وإلى جانب المدارس ومراكز الثقافة الرومانية ، كانت هناك أيضا المعابد والهياكل الدينية بما فيها من محاضرات وندوات وكذلك المسارح والملاعب التى عملت القرى والمدن الأفريقية . وعملت على نشر الثقافة الرومانية . وفيما بعد مع بداية القرن الثالث الميلادى تعاقب علي عرش روما أباطرة أفارقة من آل البينوس مواليد " سوسة " وآل سفيروس من أبناء طرابلس الغرب وكرينوس الشرشابى وآل غرديانوس القرطاجنى . وكان هؤلاء الأباطرة شغوفين بالعلم مكرمين لأهله . كما كانوا يعتزون بأفريقيتهم ويحنون لوطنهم ويعطفون على أبناء جلدتهم . فأغدقوا عليهم العطايا وخلعوا عليهم الوظائف السامية . كما بنوا المدارس والمعابد بأفريقيا .

وإبان القرن الرابع الميلادى والنصف الأول من القرن الخامس الميلادى بدأت المسيحية بعد أن اعترف بها دينا رسميا فى روما تغزو شمال أفريقيا . ووجدت هناك من يرجون لها . ولما إحتل البيزنطيون شمال أفريقيا إبان القرن السادس الميلادى لم يعنوا كثيرا بالثقافة والعلم إذ كان عصرهم عصر حروب ومقاومة

وثورات وإنحطاط فكرى وثقافى . (إبراهيم التوزرى : حـ١ص ٢٨-٧٣) . وكان ذلك إيذانا بميلاد عصر جديد برز نوره وأخذ يمتد سناه نحو الغرب وكان ذلك مع بشائر الفتح الإسلامى . وبدون الدخول فى تفصيلات تاريخية يمكن القول بأنه عندما تقدمت الجيوش العربية فى شمال أفريقيا أنشأ القائد العربى عقبة بن نافع مدينة القيروان عام ٥٠هـ (٦٧٠)م وأصبحت مركزا سياسيا وحربيا هاما للعرب . وتم لهم السيطرة على البربر الذين دخلوا فى دين الله وأقبلوا على تعلم اللغة العربية . وأصبحت القيروان إلى جانب كونها عاصمة سياسية ودينية منتجعا للعلم والثقافة يفد إليها طلاب العلم من مختلف الأصقاع .

وفى عهد الدولة الأغلبية التى أسسها إبراهيم بن الأغلب التميمى الوالى العربى فى القيروان فى الفترة ١٨٥هـ - ٢٩٥ هـ (٨٠٠-٩٠٩م) إنتشرت اللغة العربية وإزدهرت العلوم . وخلفت الدولة الأغلبية الدولة الفاطمية العبيدية التى عملت على تشجيع العلوم والمعارف على الرغم من الصراعات والفتن المذهبية التى كانت تقلقها وتعكر صفوها . وبلغت العلوم والمعارف أوج إزدهارها فى عهد الدولة الصنهاجية البربرية (الزيرية) التى خلفت الفاطميين بعد رحيلهم إلى مصر عام ٤٦٢هـ (٩٧٣م) .

وإنقرضت هذه الدولة على يد الموحدين المغاربة عام ٥٥٦هـ (١١٦٠م) وعندها إختفت هذه النهضة الثقافية الفكرية . وهكذا كانت مدينة القيروان مركزا هاما من مراكز الثقافة العربية الإسلامية خلال العصور الوسطى وسنشير إلى بعض جوانب الحركة الثقافية فيها فيما بعد .

(ب) فى الأندلس :

فتح العرب أسبانيا فى القرن الأول الهجرى (أوائل السابع الميلادى) . وأطلق العرب إسم " الأندلس " على جميع بقاع أسبانيا التى خضعت للمسلمين . وترجع هذه التسمية العربية إلى القبائل التنى كانت تسكن أسبانيا . فقد ظلت أسبانيا تحت حكم الرومان حتى أغارت عليها قبائل تعرف بقبائل الوندال فى القرن الخامس الميلادى . ومنذ ذلك الوقت أطلق على هذه البلاد " وندالوسيا " أى بلاد الوندال . فأطلق عليها العرب " الأندلس " ويورد ليفى بروفنسال فى كتابه " حضارة العرب فى أسبانيا " دليلا على لسان " الفارو " القرطبى المسيحى

الذى كان من غلاة المتعصبين فى شبه الجزيرة الأندلسية فى القرن التاسع يوضح فيه مدى إنتشار الثقافة العربية بين المسيحيين ويصرخ مما أصاب أهله من إنتشارها يقول فيها . " أبناء ديني يحبون إنشاد الأشعار العربية بل إنهم يدرسون مؤلفات علماء الكلام لا ليدحضوها ويفندوها وإنما ليقوموا نطقهم العربى تقويما صحيحا . إن جميع شبان النصارى بما لهم من نبوغ لا يعرفون غير اللغة العربية وآدابها . إنهم يقرأون الكتب العربية ويدرسونها بإهتمام بالغ . وكونوا لأنفسهم مكتبات منها أنفقوا عليها أموالا كثيرة معلنين فى كل مكان إعجابهم بهذه الكتب والآداب . واحسرتاه لقد نسى النصارى لسانهم الدينى . ولا تكاد تجد بين كل ألف منا واحدا يستطيع أن يكتب بصورة لائقة رسالة باللاتينية إلى صديق له . أما إذا كان الأمر يتعلق بكتابة رسالة بالعربية وجدت الكثير من الناس قادرا على التعبير بهذه اللغة تعبيرا مناسبا . بل ان من بينهم من يقدر على نظم القصائد بالعربية بصورة قد تفوق من الناحية الفنية ماينظم العرب أنفسهم " وهذا يوضح مدى انتشار الثقافة العربية فى الأندلس آنذاك . ومع أن الأندلس لم يكن لها صلة بالشرق إلا لمدة حوالى ٤٤ سنة من آخر سنوات الدولة الأموية وقطعت هذه الصلة بقيام الدوله العباسية فإن العرب فى أسبانيا استطاعوا فى أقل من قرن بالأندلس أن يحيوا ميت الأرض ويعمروا خراب المدن ويقيموا أفخم المبانى ويوطدوا وثيق الصلات التجاريه بجميع الأمم .

ومن الأندلس كان العرب يصدرون منتجات المناجم ومصانع الأسلحة ومصانع الحرير والجلود والسكر إلى الشرق وأفريقيا. وأنشأوا المدارس والمساجد والفنادق والمستشفيات فى كل مكان إلى جانب أنهم شقوا الطرق والجسور. وكانت الزراعة دراسة قائمه على معرفة تامة بالأقاليم والأرض ونمو النبات وتكاثر الحيوان لدرجة يقال معها أحيانا إنه لم يتوفر لأى أمة متمدنه فى أوربا وآسيا أو أفريقيا من أصول فن الزراعة بمثل ماتوفر لعرب الأندلس ولم تصل أى بلد من الازدهار الزراعى درجة أعلى مما وصلت إليه الأندلس العربية لاسيما مملكة غرناطة . فقد كان إقليم الأندلس يدر ثلاثة محاصيل فى كل عام . وكان العرب أول من أدخل إلى الأندلس زراعة الأرز والموز واللوز والفستق والنخيل وقصب السكر . وجلبوا إليها الزهور والخضر التى لم تكن معروفه ومنها انتشرت فيما بعد إلى أوربا. ولا تزال معظم أسماء الزهور المزروعة فى اللغة الأسبانية شاهدا على ما استعير

مباشرة من العرب والمسلمين . كما كان للصناعة نهضة . فاستغلت مناجم الزئبق والياقوت كما استخرج اللؤلؤ والمرجان من الشواطىء وطورت صناعه الجلود ودباغتها ونسج القطن والكتان والقنب .

أما بالنسبة للناحية العقلية والفكرية فكان للأندلس نشاط بالغ فى ميدان العقل والفكر إلى جانب الازدهار المادى . وبلغت أسماء ابن رشد وابن ماجه وابن عربي وابن حزم شهرتها . وكانت الأندلس في عهد العرب أعظم دول الغرب في هذا العصر إزدهارا وحضارة . وظهرت قرطبة أكبر عواصم أوربا آنذاك نورا . وكثرت القصور والمدارس والمراصد والمكتبات . وقد أنشأ العرب مدرسة الطب في مونبليه في جنوب فرنسا . ويروى مؤلفو العرب أنه كان يوجد في الأندلس في ذلك الحين سبعون مكتبة عامة وأن مكتبة الخليفة الحاكم بقرطبة كانت تشتمل على أربعمائة ألف مجلد منها ٤٤ مجلد للفهارس وحدها . وكانت بلاطات ملوك المسلمين في المدن الأندلسية المختلفة مثل طليطلة وبطليموس وبلنسية والمرية وغرناطة وأشبيلية على الخصوص يعمل فيها ندوات الشعراء والأدباء والعلماء والفلاسفة والأطباء والمتخصصين في العلوم المختلفة . وكانوا يحصلون على مكافآت مادية مجزية يدفعها لهم أمراء متنورون نصراء للعلم والأدب .

وقد ظلت الحياة الفكرية مزدهرة . واستمرت بالرغم من التدهور السياسي حتى انقراض إمارة غرناطة التي كانت أخر الإمارات الإسلامية . وقد كانت الحياة العقلية والفكرية مزدهرة في هذه الإمارات لاسيما في مدينتيها الكبيرتين مالقة والمرية . وجاءت النهاية الحزينة في الثاني من يناير ١٤٩٠م الذي كان يوما حزينا مشئوما استسلمت فيه غرناطة آخر الإمارات الإسلامية . وبعدها بدأ إضطهاد العرب بل والموريسيكين منهم (وهم المسلمون الذين تنصروا سرا) . واستمر الإضطهاد طيلة حوالى قرن من الزمان بلغ ضحاياه في تقدير المؤرخين ثلاثة ملايين من العرب . وينتهي دور الإضطهادات عام ١٥٥٦م بطرد جميع العرب من الأندلس إلى أفريقية ونقل مليون منهم بطريقة بالغة القسوة . ويروي المؤرخون أنه ذبح في الطريق أكثر من ثلاثة أرباعهم وحرقت الكتب والمخطوطات العربية الثمينة . وفى غرناطة وحدها أحرق ما يقرب من ثمانين ألف مخطوط عربى . وقد كانت النهاية نهاية الأندلس الإسلامية ونهاية أسبانيا المسيحية أيضا . إذ خسرت بفقد العرب شريان حياتها الدافق . وترك العرب وراءهم فراغا كبيرا

إنعكس على الحياة فى أسبانيا لعدة قرون تالية . ولم يملأ هذا الفراغ كل الذهب الذى جمعه غزاة الأسبان من " المكسيك " و " بيرو " وجاءوا به إلى أسبانيا وطنهم الأم . فقد جفت المياه الجارية ونضبت إلينابيع الدافقة وذبلت الزهور إليانعة وعم الأرض البوار والخراب وخلت البيوت من أهلها والمدن من سكانها . وتدهورت الفنون والحرف ولم تلبث الدولة التى كانت على رأس جميع الأمم أن هوت إلى الحضيض . ويحدد القرن التاسع الهجرى (السادس عشر الميلادى) النهاية الحزينة لسقوط الحضارة الإسلامية بعد أن كانت منارة الإنسانية طيلة لعصور الوسطى . تلك سنة الله ولله فى خلقة شئون .

وفى الشرق قامت على أنقاض الدولة العباسية دول وإمارات . وكانت مصر فى العهد الفاطمي في القرن الحادي عشر الميلادي وارثة الخلافة في بغداد بعد إنحطاط مركزها السياسى والفكرى . وقامت إمارات آل ساسان وآل بوية الفارسية ودول الأتراك السلاجقة والخوارزميين والمغول . وامتدت الحضارة الإسلامية إلى الهند والصين . وحمل الأغالبة فى شمال أفريقيا حضارة العرب إلى صقلية . وكذلك كانت الدولة العثمانية وريثة أيضا للدولة العباسية وعرفت هذه الممالك الإسلامية كثيرا من الآدباء والعلماء والمفكرين الذين أسهموا فى بناء صرح الإنسانية . ومن هؤلاء الفردوسى صاحب الشاهنامة وأحد كبار الشعراء الحماسيين عاش فى بلاط السلطان محمود الغزنوى فى دولة بنى بويه . وفى فارس السلجوقية ظهر الفيلسوف والعالم الإسلامى الشهير أبو حامد الغزالى الملقب بحجة الإسلام وابن سينا الذى ولد فى بخارى وتوفى فى همذان . كما ظهر أيضا عمر الخيام العالم الرياضى المشهور بشاعريته لاسيما رباعياته التى لاقت شهرة كبيرة لا فى العالم الإسلامى فحسب بل فى دول الغرب أيضا .

السمات العامة للتربية الإسلامية فى العصر الذهبى :

كان من أهم السمات العامة للتربية الإسلامية فى هذه الفترة دخول العلوم العقلية وإنشاء المدارس وظهور الآراء التربوية المتميزة وهو ما سنفصل الكلام عنه فى السطور التالية :

١- دخول العلوم العقلية :

يقصد بالعلوم العقلية علوم الفلسفة والرياضيات ، والهندسة والجبر والفلك

والطب والطبيعة والكيمياء والموسيقى والتاريخ والجغرافيا . وقد سبق أن أشرنا إلى فضل المسلمين على هذه العلوم . بيد أنه لا يمكن أن نغفل أثر حركة الترجمة الهائلة التى قام بها المسلمون فى العصر العباسى لترجمة علوم الإغريق وكتبهم . وقد بلغت الثقافة العربية قمة إزدهارها فى هذه الفترة عندما إنفتحت على الثقافات الأخرى وتفاعلت معها . وقد بدأ العرب فى نقل الترجمات لعلوم اليونان والرومان إلى العربية . وكان الخليفة المنصور له شرف المبادرة فى إتخاذ الخطوة الأولى لترجمة كتب إليونان ودراستها وسار على نهجه الخلفاء المهدى والرشيد والمأمون .

ولاشك أن العرب فى نقلهم لعلوم إليونان والرومان قد نقلوها بعد تطويعها لثقافتهم الإسلامية . فالإسلام لا يعرف التعصب ولا يعرف الإنغلاق . وقد لعب العرب دور الوسيط فى نقل هذه العلوم . وقد عبر أحد المؤرخين وهى شهادة شاهد من غير أهله - بقوله : " كان العرب مستعدين إستعدادا عجيبا لتمثيل دور الوسيط . وكانوا ذوى نشاط منقطع النظير يعتبر آيه على دورهم الممتاز فى تاريخ الدنيا . وكانوا على عكس بنى إسرائيل المتعصبين راغبين فى مصاهرة الأمم المغلوبة من غير جحود لخلقهم القومى وتقاليدهم على الرغم من تغلبهم فى مختلف الأمصار" .

ولو أن دور الحضارة الإسلامية إقتصر على إنقاذ علوم القدماء ، وعلى الإحتفاظ بها ذخيرة كاملة تسلم إلى الأجيال القادمة لاعتبر هذا الدور خدمة جليلة للإنسانية لا تقدر بثمن . بيد أن دور العرب المسلمين لم يقتصر على مجرد حفظهم لعلوم إليونان والرومان وإنما أضافوا لها وزادوا عليها . ذلك أنهم لم يتلقوا هذه العلوم كتلامذة وإنما كأساتذة . ويعتقد كثير من المؤرخين أنه بدون هذا الدور الذى قام به العرب بالنسبة لعلوم إليونان والرومان لتعذر ظهور عصر النهضة الأوربية . ويقول المؤرخ الفرنسى " سيديللو " فى كتابه عن تاريخ العرب " باريس ١٨٥٤م) " إن العرب وحدهم كانوا ممثلي الحضارة فى القرون الوسطى فدحروا توحش أوربا التى زلزلتها غارات أمم الشمال " . ومع هذا ردد كثير من الأوربيين الدعوى القائلة بأن حضارة العرب فى القرون الوسطى لم تكن إلا ظل الحضارة إليونانية ، وأن العرب كانوا مجرد ناقلين أو حافظين لهذه الحضارة . وفى هذه الدعوى كثير من الزيف والخطأ والتعصب . وقد رفضها المنصفون من

العلماء الأوربيين أنفسهم . وفى هذا يقول العلامة " دريبر " Draper " إدعينا طويلا أن المسلمين لم يفعلوا شيئا أكثر من نقل علوم إليونان . ونحن لا نستطيع أن نسير فى مثل هذا النهج الغامض دون أن نتهم بالجهل والخطأ " . ويقول العالم الفرنسى " سيديللو " Sidillot التى سبقت الإشارة إليه فى كتابه " تاريخ العرب العام " إن العرب كانوا أساتذة أوربا فى جميع فروع المعرفة وقد حاول الأوربيون أن يقللوا من شأن العرب . ولكن الحقيقة ناصعة وليس من مفر أمامنا إلا أن نرد للعرب عاجلا أو آجلا ما يستحقونه من عدل .

وعلى كل حال فإن دخول العلوم العقليه تمثل مرحله جديدة فى التربية الإسلامية مكنت الفكر الإسلامى من القيام بدوره فى إثراء الفكر العالمى ودخلت هذه العلوم إلى منهاج التربية إلاسلامية فى مراكز التربية والتعليم المختلفة وفى مقدمتها المدارس .

٢- نشأة المدارس :

شهدت هذه الفترة ظهور المدارس ولم تكن معروفة من قبل.ويقال إن نظام الملك هو أول من أنشأ المدارس فى الإسلام.فكان إنشاؤها يمثل قمة التربية المدرسية الإسلامية . وسنتناول الكلام بالتفصيل عن المدارس فى كلامنا فيما بعد عن مراكز التعليم فى الإسلام .

٣- ظهور الآراء التربوية المتميزة :

كان من أهم السمات التى تميزت بها التربية الإسلامية خلال هذه الفترة تصدى علماء المسلمين للكتابة عن موضوع التربية والتعليم كتابة مستفيضة تعكس اهتماما خاصا بها . وكان أول المؤلفين فى هذا الموضوع ابن سحنون فى القرن الثالث الهجرى والقابسى فى الرابع الهجرى . وغيرهما كثيرون ممن تناولوا الكلام فى هذا الموضوع من أشهرهم ابن مسكويه والغزالى فى القرن السادس الهجرى وابن خلدون فى القرن الثامن الهجرى . وألف برهان الدين الزرنوجى المتوفى عام ٥٩١هـ كتاب " تعليم المتعلم طريق التعليم " الذى ترجم إلى اللاتينية وحظى بشهرة كبيرة عند المسلمين . ويقول عنه الأهوانى إن قيمته ضئيلة الشأن لا تتعدى حجمه الصغير . ويبرر ذلك بقوله إن صاحبه لم يأت بجديد وإنه كثيرا ما كان ينزل إلى مستوى العامة فى الاعتقاد بأوهام لا تستند إلى أساس

علمى (أحمد فؤاد الأهوانى : ص ٢١٠) وربما كان هذا الحكم قاسيا على الزرنوجى فهو لا يقف وحيداً في النقل عن السلف كما أن كتابه لايخلو من قيمة تربوية.وقد اعتبره العالم الإسلامى إبراهيم سلامة واحداً من أهم كتابين فى التربية وثانيها هو كتاب القابسى . كما أن المتأخرين من دراسى الزرنوجى قد اعتبروا كتابه ذا أهميه تربوية ونفسية .

ويلاحظ أن من ألف فى التعليم من المتأخرين اعتمد بصوره أساسية على تلخيص آراء المتقدمين وأحيانا بدون ذكر المصادر التى أخذوا عنها . فالقابسي فى رسالته المفصلة لأحوال المتعليمن وأحكام المعلمين والمتعلمين نقل كثيرا من آراء ابن سحنون أول من ألف فى الموضوع " رساله آداب المعلمين " . والغزالى نقل عن ابن مسكويه فى تهذيب الأخلاق . والعجيب أن ابن مسكويه فى تهذيب الاخلاق نقل بعض الآراء عن بروسبن وغيره من الإغريق.وشمس الدين الإنبابى فى رسالته " رياضه الصبيان " نقل أيضا عن ابن مسكويه . وشيخ الإسلام ابو يحيى زكريا الأنصارى فى كتابه " اللؤلؤالنظيم فى روم التعلم والتعليم " نقل عن الغزالى . وهكذا كان الخلف ينقل عن السلف .كما لم يجد علماء المسلمين حرجا فى النقل عن الإغريق وفى مقدمتهم أرسطو الذى لقبوه بالمعلم الأول . وسنتناول فيما بعد تفصيل الكلام عن بعض مشاهير علماء المسلمين الذين تحدثوا عن التربية والتعليم عند الكلام عن أعلام التربية فى الإسلام .

مراكز التعليم الإسلامى

كان المسجد والكتاب من أهم مراكز التعليم الإسلامى فى العصورالأولى وعرفت المدارس فيما بعد . وقامت بدور كبير فى التعليم فى البلاد الإسلامية. وإلى جوار هذه المراكز كانت هناك أيضا المكتبات ودور الحكمة وبلاط الخلفاء وحوانيت الوراقين والرباطات والبيمارستانات كمراكز تعليمية مع تفاوت نسبى فى الأدوار بينها .

أولا- المساجد :

لعبت المساجد دورا تربويا هاما فى أول الدعوة الإسلامية.وكانت مركزا للحياة السياسية والاجتماعية والثقافية والدينية وكانت تقوم بوظائف متعددة أهمها :

١ - أنها كانت دورا للعبادة والصلاة وهذه هي وظيفتها الأساسية كما أشار

إليها القرأن الكريم فى قوله تعالى فى سوره النور فى بيوت أذن لله ان ترفع ويذكر فيها اسمه يسبح له فيها بالغدو والآصال . ومن هذه الوظيفة إشتقت المساجد اسمها فهى أماكن للسجود لله عز وجل وإقامة شعائره . وقد اطلق الرسول (ص) كلمه "مسجد" على أي مكان فى الأرض يمكن أن تؤدى فيه الصلاة قال عليه الصلاة والسلام وجعلت لى الأرض مسجدا وطهورا وذلك تيسيرا للمسلمين .

٢ - أنها كانت مركزا لتصريف شئون الدولة قبل إنشاء الدواوين الحكومية . فكان الرسول (ص) يدير شئون الدولة فيها ومايتطلبه نشرالدعوة الجديدة من إعلان وتشاور ودراسة وتخطيط وإعداد وتدبير . كما كان يستقبل فيها الوفود والسفراء الذين يأتون إليه من أجل مبالغة أو إشهار إسلام أو عقد معاهدة أو طلب مساعدة أو معونة أو غير ذلك .

٣ - أنها كانت مكانا إعلاميا هاما تذاع فيه الأخبار الهامة التى تتعلق بمصالح المسلمين مثل إعلان الحروب أو تجهيز الجيوش للغزوات ومن الأمثلة على ذلك أن الخليفة عمر أعلن من على المنبر تقهقر جيوش المسلمين فى العراق واستحث قومه على السير إلى هذه البلاد . كما وقف الخليفة عثمان على المنبر يدافع عن نفسه . وكان الخليفة بعد مبايعته يصعد المنبر ويلقى خطبته الأولى مضمنا إياها سياسته فى الحكم . كما كان يلقى خطبه على الناس أثناء خلافته أو يتشاور معهم فى الأمور الهامة التى تعنيهم . كما كانت مكانا لإعلان الزواج وإشهاره .

٤ - أنها كانت مكانا لجمع الصدقات والأموال والتبرعات وتوزيعها على أصحابها وعلى المحتاجين .كما كانت مأوى للفقراء والغرباء وعلاج المرضى

٥ - أنها كانت مكانا للتقاضى وفض المنازعات والصلح بين المتخاصمين وكان القضاة يجتمعون فيها للنظر فى الشكاوى والخصومات وإصدار الأحكام بشأنها .

٦ - أنها كانت مراكز تربوية وثقافية هامة لتعليم الكبار يعقد بها حلقات العلماء لدراسة القرآن الكريم والفقه واللغة وعلوم الدين . كما كانت أماكن للفتوى . فقد كان التعليم يمارس فى المساجد فى كل البلاد الإسلامية عدة قرون قبل أن تبنى المدارس فى القرن الخامس الهجرى.

وحلقات مالك فى الحرم المدنى ومسلم ابن خالد الزنجى فى الحرم المكى والحسن البصرى وأجلة العلماء فى مصر بجامع عمرو وبالأزهر وكلها معروفة مشهورة (مجمع البحوث الإسلامية ح٣ ص١٥٦).كما كانت أيضا تستخدم كمعاهد لتعليم الناشئين أصول الدين واللغة والأدب .وكان مسجد رسول الله (ص) يغذى القلوب والأرواح بالصلاة والذكر وقراءة القرآن ويغذى العقول والأفكار بالعلم والمعرفة الشاملة (المرجع السابق) .

ومن أشهر المساجد والجوامع المعروفة : المسجد النبوى الشريف بالمدينة والجامع العتيق أو جامع عمرو المؤسس سنه ٢١هـ فى القاهرة وجامع ابن طولون فى القاهرة أيضا ومسجد الكوفة (١٤هـ) ومسجد البصرة (١٧هـ) الذى كان يضم حلقات الشعر والأدب والجدل ومسجد دمشق ويعرف الآن بالمسجد الأموى (بنى ١٩هـ) ويضرب به المثل فى جماله وحسن نظامه ومسجد القيروان لعقبة بن نافع (٥١ هـ) فى تونس وجامع الزيتونة فى تونس وجامع القرويين فى فاس وجامع قرطبة فى الأندلس والجامع الكبير فى صنعاء والجامع الأزهر الذى بناه الفاطميون وسموه بالأزهر تيمنا بفاطمة الزهراء بنت الرسول (ص) جدة الفاطميين. وكان كعبة لكل طلاب العلم من مشرق العالم الإسلامى وغربه . وكان يدعو لمذهب الفاطميين وهو أساس إنشائه . ولكن كان يدرس فيه إلى جانب ذلك العلوم العقلية والنقلية بما فيها من فلسفة ومنطق وطب ورياضيات .

ويميز المؤرخون فى الإسلام بين نوعين من المساجد المسجد الصغير وهو لقضاء الصلوات العادية والمسجد الجامع وهو مسجد كبير واسع الأركان تقام فيه الصلوات الخمس وصلاة الجمعة وصلاة العيدين . وكان مركزا للحياة الدينية والسياسية والثقافية والإجتماعية والقضائية . ويذكر ابن خلدون أن المساجد الكبرى العظيمة أو الجامعة هى التى كان يتولى شئونها الخلفاء أو الحكام فيعينون أئمتها وأهل العلم والفتوى والتدريس بها . أما المساجد الصغيرة فلم تكن تحظى بهذه الرعاية . ويفصل ابن خلدون القول فيقول : (المقدمة : طبعة دار الفكر ص ٢١٩ - ٢٢٠) :

« فاعلم أن المساجد فى المدينة صنفان : مساجد عظيمة كثيرة الغاشية معدة للصلوات المشهودة ، وأخرى دونها مختصة بقوم أو محلة للصلوات العامة . فأما المساجد العظيمة فأمرها راجع إلى الخليفة أو من يفوض إليه من سلطان أو من

وزير أو قاض فينصب لها الإمام فى الصوات الخمس والجمعة والعيدين والخسوفين والإستسقاء . وتعين ذلك إنما هو من طريق الأولى والإستحسان ، ولئلا يفتات الرعايا عليه فى شئ من النظر فى المصالح العامة . وأما المساجد المختصة بقوم أو محلة فأمرها إلى الجيران ولا تحتاج إلى نظر خليفة ولا سلطان . وأما الفتيا فللخليفة تصفح أهل العلم والتدريس ، ورد الفتيا إلى من هو أهل لها وإعانته على ذلك ومنع من ليس أهلا لهـا وزجـره . لأنهـا من مـصـالح المسلمين فى أديانهم. فتجب عليه مراعاتها لئلا يتعرض لذلك من ليس له بأهل فيضل الناس. وللمدرس الإنتصاب لتعليم العلم وبثه . والجلوس لذلك فى المساجد . فإن كانت من المساجد العظام التى للسلطان الولاية عليها والنظر فى أئمتها كما مر فلا بد من إستئذانه فى ذلك ، وإن كانت من مساجد العامة فلا يتوقف ذلك على إذن على أنه ينبغى أن يكون لكل واحد من المفتين والمدرسين زاجر من نفسه يمنعه عن التصدى لما ليس له بأهل فيدل به المستهدى ويفصل به المسترشد » .

المسجد كمركز تعليمى :

كان النبى صلى الله عليه وسلم أول من إتخذ المسجد للدعوة والتعليم . ففى أول الأمر كان يتخذ من منزله ومن دار الأرقم بن أبى الأرقم مكانا لنشر الدعوة . وبعد الهجرة كان إنشاء المساجد . فانتقل الرسول صلى الله عليه وسلم بنشاطه الدينى والتعليمى إلى المساجد . وكان مسجد قباء أول المساجد التى بنيت فى الإسلام وأنشئ بعده مسجد الرسول صلى الله عليه وسلم بالمربد بالمدينة المنورة . وتوالى بعدها إنشاء المساجد . وكان التعليم فى المساجد يقوم على تعليم أمور الدين وتذكير الناس بالآخرة . وكان التعليم فى هذه الأمور يعتمد على الأسلوب القصصى ممتزجا بالعلوم والحكمة والموعظة . كما كانت تدرس أيضا العلوم الدينية من قرآن وتفسير وحديث . وكان أصحاب المذاهب والملل والنحل المختلفة يجتمعون فى المساجد ويلقون الدروس وفقا لمذاهبهم . وأحيانا كان يسير التدريس فى المساجد على مذهب معين كالشيعة مثلا . وكان يحرم التدريس فيها أحيانا إلا من كان على مذهب أهل السنة . وقد إتسعت الدراسة بالمساجد وتنوعت فشملت علوم الكلام والفقه والفلسفة والنحو والأدب والتاريخ والحساب والفلك والطب والعلوم الطبيعية .

وكان يقوم بالتعليم بالمسجد أحد الشيوخ ممن يأنس فى نفسه المقدرة على

التعليم . وكان الشيخ يجلس على حصير أو بساط ووسادة . وأحيانا كان يجلس على كرسى مرتفع حتى يسمعه الحاضرون . وكان الطلاب يجلسون من حوله فى حلقة تتفاوت فى حجمها حسب مكانة الشيخ العلمية وحسب ظروف العمل للطلاب . وكان الشيخ يفتتح الدرس بالبسملة والحمد الله والحوقلة والصلاة على النبى . وقد يتلوا آيات من القرآن الكريم أو الحديث الشريف تتصل بطلب العلم وتحث عليه . ثم يبدأ فى الكلام عن موضوع درسه . وكانت الدروس تتنوع . فمنها ما يهدف إلى التوعية العامة بأمور الدين وأصوله وأحكامه . ومنها ما كان دروسا منظمة فى علم من العلوم . وفى هذه الحالة كان الشيخ يستمد درسه من معلوماته أو من مذكرات كتبها لنفسه . ويقوم بإملائها على تلاميذه . ومن أشهر الأمالى المعروفة آمالى أبى على القالى وآمالى سعيد بن الحداد وأمالى ابن طالب فى ثلاثة أجزاء .

وكان الشيخ يقوم بالإملاء يتؤدة وتأن وبترتيب المسائل والأمور . ويقوم الطلاب بتسجيل ما يملى عليهم فى كناشاتهم . وقد يقوم الشيخ بتملية النص ثم يقوم بشرحه . ويقوم الطلاب بتسجيل هذا الشرح على هامش النص . وعندما يكمل الشيخ أماليه كانت تعرض عليه أو يقوم الطلاب بقراءتها عليه لتصحيح ما قد يكون بها من أخطاء . ثم يوقع الشيخ على نسخة الطالب مجيزا إياه على روايته وتدريس هذه الأمالى من بعده . وكان للطالب أن يسأل أستاذه بتأدب للإستيضاح . وعليه أن يختار الوقت المناسب للسؤال . وكان الأستاذ أحيانا هو الذى يوجه الأسئلة لاختبار فهم طلابه . وكان يقوم بالإجابة على ما يصعب من الأشياء . وكان الشيخ ينهى درسه عادة بعبارة " والله أعلم ورسوله " . ثم تتلى فاتحة الكتاب وبعدها يتقدم الطلاب بشكر الشيخ والترحم على والديه والدعاء له. وقد يقومون بالسلام عليه وتقبيل يده .

وكان الشيوخ والعلماء يقومون فى المساجد إحتسابا لوجه الله وتجنبا للعنة التى أوجبها الإسلام على من أخفى علمه عى الناس . وكان الشيوخ يعيشون من التكسب من كد يمينهم وعملهم . كما كانوا يتلقون المساعدة والعطايا والهدايا من الملوك والأمراء والأعيان وأهل الخير من العامة . وكان الموسرون من الطلبة لا يبخلون بمالهم على مشايخهم . كما كان المشايخ يقبلون الهدايا من طلابهم .

وفى تقويم المسجد كمركز تعليمى يمكن القول بأن العلماء المسلمين فى آلاف المساجد المنتشرة فى البلاد الإسلامية من قرطبة فى غرب أوربا إلى سمرقند فى وسط آسيا لم يكونوا فى عددهم أقل من عدد ما فيها من الأعمدة. وكانت إيواناتها تردد أصداء علمهم وفكرهم وبلاغتهم. كما خرجت هذه المساجد خيرة العلماء والمفكرين والقادة والمصلحين الذين قدموا أجل الخدمات لأمتهم الإسلامية.

المساجد فى العصر الحديث :

شهدت المساجد فى العصر الحديث نهضة قوية مباركة فى البلاد الإسلامية والأجنبية على السواء سواء من حيث الكم أو الكيف فأعدادها فى تزايد مستمر وبناؤها يتمشى مع روح العصر الحديث من حيث هندسته ومواد بنائه ومرافقه وتجهيزاته وفرشه وتأثيثه وإدارته وصيانته .

وجاء تطور المساجد فى العصر الحديث متمشيا مع التطور السياسى والاجتماعى للبلاد الإسلامية وبدرجات متفاوته حسب درجة هذا التطور فى كل بلد على حدة . ويتضح من هذا التطور بصفة عامة أن وظائف السياسة والتشريع والقضاء والفتوى قد استقلت بنفسها وأوكلت إلى أجهزة متخصصة من أجهزة الدولة . وتدعم الدور الدينى والثقافى والاجتماعى للمساجد . ففى كثير من مساجد إليوم تقام الإحتفالات الدينية والإجتماعية فى المناسبات المختلفة كما فى الأعياد الدينية والمناسبات الوطنية والقومية والاجتماعية كحفلات عقد القرآن والزواج وإجتماعات العزاء . وفى كثير من مساجد اليوم توجد دروس وحلقات دينية للكبار ومكاتب لتحفيظ القرآن الكريم وتعليم الآميين القراءة والكتابة وفصول التقوية لتلاميذ المدارس ومكتبة عامة لخدمة الزائرين والمترددين . كما توجد أيضا وحدات علاجية لعلاج المرضى بالمجان أو بأجور زهيدة . كما تقوم بعض المساجد بأعمال البر والإحسان وجمع الزكاة والتبرعات الخيرية من القادرين وتوزيعها على الفقراء والمحتاجين .

ثانيا : الكتاب :

يقول ابن منظور فى كتابه لسان العرب : " الكتاب " موضع تعليم الكتاب أى الكتابة . وكان الكتاب أحد مراكز التعليم فى الإسلام ويقال إنه عرف فى بلاد العرب قبل الإسلام على نطاق ضيق محدود . وقد يطلق على الكتاب أحيانا إسم " مكتب " وكان الكتاب عبارة عن مكان مستقل أو غرفة فى منزل أو حجرة مجاورة للمسجد أو ملحقة به أو في خيمة من جملة خيام الحى فى البادية (خيمة المؤدب) كما كان يعرف فى تونس فى شمال أفريقية . واختلف حجم الكتاب من حجرة صغيرة إلى مكان واسع يتسع لأعداد كبيرة من التلاميذ فقد روى ابن خلدون أن كتاب أبى قاسم البلخى كان به ثلاثه آلاف تلميذ وكان فسيحا جدا لدرجة أن البلخى كان يركب حمارا ليمر به على التلاميذ ويشرف على تعليمهم . وقد انتشرت الكتاتيب منذ القرن الاول الهجرى فى الأمصار الإسلامية ويرى أن الكتاتيب أنشئت فى مدينة القيروان منذ النصف الثانى من القرن الأول الهجرى .

هدف الكتاب :

كان الهدف الأساسى من الكتاب تحفيظ القرآن الكريم وتعليم القرآن والكتابة لأن حفظ القرآن لا يسهل إلا بتعلمها . وكان يشترط فى تعليم القرآن حسن الترتيل وجودة قراءته . ولما كانت معرفة القرآن معرفة صحيحة تستلزم الإلمام بقواعد الإعراب كان معلم الكتاب يعلم تلاميذه قواعد النحو واللغة وكان يدرس أحيانا الحساب وأيام العرب وتواريخها . وكان الكتاب يمثل بدايه مراحل التعليم ينتقل منه الصبى إلى إكمال تعليمه فى المسجد حيث يتوسع فى طلب العلم .

الدراسة فى الكتاب :

كانت الدراسة فى الكتاب عادة تمتد من يوم السبت إلى الخميس باستثناء يوم الجمعه والنصف الثانى من يوم الخميس . وكان الصبيان يبدأون يومهم المدرسى بحفظ القرآن عندما يكونون مكتملى النشاط ويستمر ذلك إلى الضحى ثم ينقلون بعد ذلك إلى تعلم الكتابة حتى الظهر . ثم ينصرف التلاميذ إلى بيوتهم . وكان فى بعض الكتاتيب فتره فى المساء يدرس فيها الصبيان

النحو والحساب وأيام العرب وتاريخهم . وكان يوم الخميس يخصص عادة للمراجعة . كما كانت الدراسة تعطل بمناسبة الأعياد ، وكان التلاميذ يذهبون إلى الكتاب فى الصباح الباكر . فيجدون معلمهم جالسا فى المكان المخصص له فيجلسون من حوله على اليمين واليسار قعودا على الحصير المصنوعة من السمار أو نبات الحلفاء . وقد كان ذلك الأثاث المتواضع الشائع للكتاب . وكان كل منهم يضع فى حجره لوحه المصنوع من الخشب المصقوق أو الصفيح ، وعلى اللوح ما كتبه بالأمس . فيشرع كل منهم فى الحفظ وتتصاعد أصواتهم متشابكة مختلطة لإختلاف ما يقرأه كل منهم عن الآخر بتفاوت مستوياتهم . ويقوم معلم الكتاب بالإستماع إلى كل واحد منهم بعد الآخر للتأكد من حفظهم لما كتبوه على الألواح . يقوم بعدها الصبى بمسح اللوح بوضعه فى إناء به ماء طاهر ثم يجففه. وفى بداية تعلم الصبى للكتابه كان المعلم يقوم بإملاء آية أو آيات من القرآن على كل واحد . ويطالبه بكتابتها ثم ينتقل إلى صبى ثان ثم ثالث وهكذا ثم يعود إلى الصبى الأول ليراجع له كتابته . أما كبار التلاميذ فكانوا يقومون بنسخ كتاباتهم على الألواح من المصحف مباشرة . وكان المعلم يستعين بهؤلاء التلاميذ الكبار كعرفاء يساعدونه فى تعليم المبتدئين . ولكل تلميذ لوح ودواة وقلم متواضع من القش أو القصب ومصحف فى بعض الأحيان .

وكان الصبى يتم دراسته فى الكتاب عادة بحفظ القرآن كله . وهو ما يسمى (بالختمة) أى أن الصبى يختم القرآن كله . وكانت تعتبر مناسبة سعيدة قد تشهد إحتفالا متواضعا . وقد تعطل الدراسة يوما أو يومين إحتفاء بهذه المناسبة . وأحيانا كثيرة كان الصبى يكتفى وفقا لقدرته بحفظ نصف القرآن أو ثلثه أو ما تيسر له منه .

آداب الكتاب :

كان للكتاب آداب مرعية وأصول متبعة فى تربية الصبيان وتأديبهم . ولم تكن هذه الآداب مقتصرة على الجانب التعليمى فقط وإنما امتدت لتشمل الجوانب الدينية والخلقية والنفسية والصحية . وقد أفاض علماء المسلمين المهتمون بالتربية والتعليم فى تفصيل الكلام عن هذه الآداب بدرجة تبعث علي الدهشة . وسنتحدث عنها بشئ من التفصيل فى السطور التالية :

١- الإهتمام بالناحية التعليمية : وهى الوظيفة الأولى لكتاب . ولذلك حث علماء المسلمين معلمى الكتاب على أن يكون همهم الأكبر هو تعليم الصبيان لاجلب الرزق وتكسب العيش من وراء تعليمهم . ونصحوهم بأن يخصص كل وقت الصبى فى الكتاب للتعليم . ومن هنا حرموا عليهم الإشتغال بأى شئ آخر يلهيهم عن تعليم الصبية مثل نسخ الكتب أو نقلها أو التجارة أو ترك الكتاب لأداء واجبات إجتماعية أخرى مثل حضور جنازة أو الصلاة على الميت أو حضور مجالس التقاضى أو التخاصم أو ما شابه ذلك . كما يجب على معلم الكتاب أن يقوم بتعليم الجميع بنفسه ما أمكنه ذلك لاسيما إذا كانوا صغاراً . فإن عجز عن ذلك فليأخذ من يستنبيه من الحفاظ المأمونين شرعا بأجرة أو بغيرها (أنظر : إن الحاج : المدخل حـ٢ ص ٩٧) . كما يجب علي المعلم أن يمنع الصبيان من اللعب الذى يفصلهم عن الدرس أو من الخروج من الدرس بدون سبب مشروع .

٢- الإهتمام بالناحية الدينية : وهو لايقل عن الإهتمام بالناحية التعليمية. ذلك أن تعليم الدين هدف رئيسى فى الإسلام عملا بتعاليم القرآن الكريم وهدى الرسول (ص) فى قوله : خيركم من تعلم القرآن وعلمه " ولذلك إمتزج تعليم الدين بالتعليم المعرفى فى الإسلام . وكانت دور العبادة أماكن للتعليم لإرتباط كل منهما بالآخر . ولذلك كان على المؤدب أن يعلم تلاميذه إلى جانب القراءة والكتابة ، القرآن الكريم ومبادئ الدين وآدابه وأداء الواجبات الدينية وفى مقدمتها الصلاة وما يتصل بها من معرفة الوضوء الصحيح . وإذا بلغ الصبى سن العاشرة كان من واجب المؤدب أن يحثه على الصلاة وأن يعاقبه على تركها بالضرب اللين .

٣- الإهتمام بالناحية الخلقية : كان من آداب الكتاب تهذيب نفوس الصبيان وتربيتها على الفضيلة والأخلاق الحسنة . ومعلم الكتاب مسئول عن أخلاق صبيانه الذين يعلمهم . ولذلك أوجب عليه علماء المسلمين ألايدع عنده أحداً من الصبيان ذوى الخصال الذميمة إذا فشل فى إصلاحه حتى يكون ذلك عقابا رادعا للصبى . كما أوجبوا عليه تعليم الصبية الآداب الأخلاقية العامة مثل إحترام الوالدين وتقبيل أيديهما وإحترام الكبير سنا وإلقاء السلام على من يقابلهم أو يدخل عليهم ويحببهم فى كل ما هو جميل ويكرههم فى كل ما هو

قبيح أو شر أو خارج عن قانون الشرع .

٤- الإهتمام بالناحية النفسية : إهتم المربون من علماء المسلمين بالناحية النفسية للمتعلم . فأوجبوا على معلم الكتاب أن يعلم صبيانه حسب قدراتهم ومداركهم وأن يتمشى مع كل واحد منهم بحسب طاقته ولا يرهقه بالدرس والتحصيل فوق الطاقة . كما لا ينبغى للمعلم أن يعامل تلاميذه بقسوة أو بعنف وأن يكون رحيما فى عقابهم أو ضربهم أو تأديبهم أو زجرهم . ووضع علماء المسلمين شروطا للضرب من حيث أماكنه وعدد ضرباته وأوجبوا على معلم الكتاب ألا يترك أحدا من الصبيان يأتى إلى المكتب بغذائه أو بفضة أو فلوس ليشترى شيئا من المكتب خوفا على إنكسار خاطر الفقير الذى لا يستطيع شراء شئ . كما ينبغى على المعلم ألا يدع أحداً من البياعين يقف على المكتب ليبيع للصبيان دفعا للضرر أو المفاسد . كما لا يسمح لابن الغنى بإحضار دكة (مقعد) أو غيرها ليجلس عليها فى الكتاب لأن فى ذلك ترفيعا له على غيره وإنكساراً لخاطر اليتيم . (المرجع السابق) .

٥- الإهتمام بالناحية الصحية : كان الإهتمام بالناحية الصحية للصبى من الأمور التى كان يحرص عليها معلم الكتاب . ويقول ابن الحاج (حـ٢ص١٠١) إنه " إذا اشتكى أحد من الصبيان وهو فى المكتب بوجع عينيه أو شئ من بدنه وعلم صدقه فى ذلك أن يصرفه إلى بيته ولا يتركه يقعد فى المكتب " . وفى هذه الحالة يتولى ولى أمر الصبى علاجه حتى يشفى وقاية لنفسه ولغيره حتى لا تنتقل لغيره من الصبيان عدوى المرض إذا كان معديا . وهذا يؤكد حرص التربية الإسلامية على العمل بمأثور القول " العقل السليم فى الجسم السليم " .

نقد طريقة التعليم بالكتاب :

عرض ابن خلدون لاختلاف الأمصار الإسلامية فى تعليم الوالدان . وذكر أن هذه الأمصار تختلف فيما بينها من حيث المواد التى تمزجها مع تعليم القرآن وتحفيظه كله أو جزئه . وهو ما يمثل البرنامج الإجبارى الرئيسى للكتاب . ويورد ابن خلدون طريقة أبى بكر بن العربى الأندلسى التى تقوم على إرجاء تعليم القرآن والبدء بتعليم العربية والشعر والحساب حتى يسهل على الطفل بعد ذلك فهم القرآن وحفظه . ومع أن ابن خلدون إستحسن هذه الطريقة إلا أنه يقول إن

العوائد لا تساعد عليها وهى أملك بالأحوال . كما إنتقد ابن خلدون طريقة التلقين التى كانت سائدة فى التعليم وفضل عليها طريقة المحاورة والمناظرة . وقد عرضنا لتفصيل ذلك عند الكلام عن آراء ابن خلدون . وبالرغم من هذه الإنتقادات فلا يمكن أن ننكر الدور الهام الذى لعبه الكتاب فى الحياة الثقافية والفكرية وكان القاعدة العريضة التى تعلم فيها كثير من علمائنا النابهين .

معلم الكتاب :

كان من أهم الشروط التى ينبغى توافرها فى المعلم أن يكون حافظا للقرآن الكريم عالما بأمور الدين وعارفا بالقراءة والكتابة والنحو ولا بأس من إلمامه بفنون المعرفة الأخرى كالحساب واللغة والأدب . وإلى جانب هذا الشرط الرئيسى كانت هناك شروط دينية وخلقية . فمن الشروط الدينية أن يكون المعلم تقيا ورعا قائما بفروض دينه مشهودا له بالخلق الكريم . ومن الناحية الخلقية يجب أن يكون رفيقا بالصبيان رحيما بهم وأن يسوى فى المعاملة بينهم . وقد ورد عن النبى صلى الله عليه وسلم قوله " أيما مؤدب ولى ثلاثة من صبية هذه الأمة فلم يعلمهم بالسوية فقيرهم مع غنيهم وغنيهم مع فقيرهم حشر يوم القيامة مع الخائنين " . وكان المعلم يتخذ معه عريفا يساعده إذا زاد عدد التلاميذ . واشترط فيه أن يكون قد حفظ القرآن وهو مستغن عن التعليم . وكان المعلم يلتزم بالوقار مع صبيانه فلا يتبسط فى الأمور معهم فيتجرأون عليه . وعليه أن يحسن رعاية تلاميذه لأنه راع لتلاميذه وهو مسئول عن رعيته ولا يجوز للمعلم أن يسخر تلاميذه لخدمته أو قضاء حوائجه .

وكان المعلم هو الذى يقوم بتأجير الكتاب وتأثيثه . وفى بعض الأحيان كان آباء الصبيان يتعاونون فى تأجير المكان للمعلم . وكان الكتاب يضم معلما واحداً . وفى بعض الأحيان كان يضم أكثر من معلم . وقد ذكر ابن حوقل أنه رأى فى مدينة " بلرمو " بصقلية كتابا واحدا يقوم بالعمل فيه خمسة معلمين . ويرجع ذلك إلى إعفاء المعلمين من الجهاد ففزع كثيرا من الرجال إلى هذه المهنة . وحسنه لديهم جهلهم فرارا من الجهاد وشرفه والغزو وعزه (ابن حوقل : حـ١ص١٢٩) .

وكانت الدرة والفلقة من عدة المعلم يستخدمها فى عقاب المقصرين من

تلاميذه . ولكن الضرب بالدرة أو الفلقة كان لا يستخدم عادة إلا إذا فشل النصح والتقريع بالكلام غير البذئ أو الجارح . وكان الضرب عادة بعيدا عن العنف والقسوة وفى أماكن من الجسم لا يترتب عليها إلحاق ضرر بالطفل. وعادة ما يكون الضرب على الرجلين فى حدود ضربة واحدة إلى ثلاث .

وكان المعلم يتقاضى أجرا عن التعليم شهريا أو سنويا وذلك بالإتفاق مع آباء التلاميذ . وأحيانا يترك تحديد الأجر بما تجود به همتهم . وقد رأى معظم فقهاء المسلمين جواز أخذ المعلم أجرا على التعليم على الرغم من أن بعضهم ومن بينهم الغزالى إستقبح ذلك . وقد سبق أن ناقشنا هذا الموضوع فى مكان آخر بالتفصيل فى كتابنا عن التربية الإسلامية .

ثالثا : المدارس :

هناك شبه إتفاق على أن نظام الملك الوزير السلجوقى الفارسى هو أول من بنى المدارس فى الإسلام فى القرن الخامس الهجرى مع أنه وجد فى نيسابور البعيدة مدارس قبل ذلك التاريخ . وكان أشهر هذه المدارس المدارس النظامية فى بغداد مع أنه أنشأ مدارس نظامية أخرى فى بلخ وأصفهان والبصرة والموصل وهرات ومرو . ويقول " السبكى " فى " طبقات الشافعية " " إنه ليس صحيحا أن نظام الملك هو أول من بنى المدارس فى الإسلام فقد وجد فى نيسابور مدارس قبل المدارس النظامية منها المدرسة السعيدية التى أنشأها نصر بن سبستكين حاكم نيسابور والمدرسة البيهقية التى بناها الشيخ أحمد البيهقى فى نيسابور أيضا " ويتفق كل من المقريزى والسيوطى مع السبكى فى هذا الرأى . ويروى أن المدارس الإسلامية الأولى بنيت على الطراز المعمارى للمساجد ولم يكن يميز المدرسة عن المسجد إلا وجود الإيوان وهو قاعة الدرس بالإضافة إلى أماكن إقامة المعلمين والطلاب وما يتطلبه ذلك من مرافق خاصة . وربما يرجع ذلك إلى تداخل وظيفة المدرسة أول ظهورها بوظيفة المسجد . فقد كان يعين للمدارس مؤذنون ويقام فيها منابر للخطابة . وأقيمت فيها الصلاة كالمسجد . كما استخدمت فى بعض الأغراض الأخرى للمسجد كمركز للتقاضى وفض المظالم .

وكانت المدرسة تتكون عادة من صحن أو فناء ومن إيوانات تحيط بها على قباب وكانت تلحق بها مكتبة . وكان برنامج الدراسة يتضمن موادا أساسية هى

علوم الدين والعلوم العقلية وأخرى فرعية هى الحساب والتاريخ والأدب وبعض العلوم العقلية الأخرى .

وقد تعرض ابن بطوطة فى رحلته المشهورة المسماة "تحفة النظار فى غرائب الأمصار وعجائب الأسفار" إلى إشارات عن المدارس والتعليم فى البلاد التى زارها . ووصف المدرسة المستنصرية التى بناها أمير المؤمنين العباسى المستنصر بالله فى بغداد عام ٦٣١هـ (١٢٣٤م) بأنها كانت أشبه بمدينة فيها أربعة أروقة يختص كل منها بمذهب خاص من مذاهب السنة . وكان عدد طلابها ثلاثمائه موزعين على هذه الأورقة . وكان الطلاب يقيمون إقامة داخلية بالمدرسة وكانت إقامتهم وتعليمهم بالمجان . كما كان الطالب يعطى دينارا من الذهب فى الشهر . وعندما زارها ابن بطوطة كان يدرس بها المذاهب الأربعة فيقول فى وصفها : " لكل مذهب إيوان فيه المسجد وموضع التدريس وجلوس المدرس فى قبة خشب صغيرة على كرسى عليه البسط ويقعد المدرس وعليه السكينة والوقار لابسا ثياب السواد معتما وعلى يمينه ويساره معيدان يعيدان كل ما يمليه . وهكذا ترتيب كل مجلس من هذه المجالس الأربعة . وفى داخل هذه المدرسة الحمام للطلبة ودار الوضوء " . ووصف جامع دمشق المعروف بجامع بنى أمية وعرض باختصار لمدرسيه ومعلميه ووصف طرقهم فى التعليم وأشهر المدرسين به. وذكر أيضا مدارس الشافعية كالعادلية والظاهرية وإن كانت مجرد إشارة إلى الأسماء فقط دون التعرض بالتفصيل لوصفها . وذكر بعض علماء مصر والإسكندرية وذكر أن مدارسها يعييها الحصر لكثرتها . وابن جبير الرحالة العربى المشهور فى القرن الثانى عشر وصف مدارس بغداد وعد منها ثلاثين مدرسة . وأهمها المدرسة النظامية التى أنشئت ٤٥٧هـ - ١٠٦٥م " وتم بناؤها فى عامين . وكان التلاميذ يتلقون العلم بالمجان . كما كانوا يحصلون على الطعام والعناية الطبية . ويتناول كل منهم دينارا من الذهب كل شهر لنفقاته . ويرجح أن النساء كن أيضا يذهبن إلى المدارس فى بعض الأحوال ذلك لأننا سمعنا عن اشتغال النساء بالتدريس (جلال مظهر : ص ١٦٧) .

وبعد نظام الملك جاء محمود نور الدين زنكى فأنشأ مدرسة دمشق للحديث وأوقف عليها أموالا كثيرة . وبنى مدارس أخرى فى حلب وحمص وغيرها من بلاد الشام . ثم جاء صلاح الدين فأكثر من إنشاء المدارس بمصر والشام . وكان

يحضر بعض الدروس فيها . وقد وضع لها نظاما ونظم أجر المعلم وكان أجره آنذاك أربعين دينار وعشرين دينارا للمعيد . وكان له فى كل يوم ستون رطلا من العيش عدا الكعك واللحم فى عيدى الفطر والأضحى . وكان يطلق على أجر المعلمين وغيرهم فى أيام المماليك جامكية (جمع جوامك). وكانت المدارس التى أنشأها صلاح الدين فى مصر على غرار المدرسة النظامية في بغداد والمدارس التى أنشأها الملك العادل نور الدين زنكى فى دمشق . وفى عهد الأيوبيين. والمماليك ازدهرت المدارس كما ازدهرت سوق العلم فى مصر . وكانت أول مدرسة نظامية أنشئت فى القاهرة فى عهد الأيوبيين وهى المدرسه الناصرية التى بناها السلطان العادل زين الدين كتبغا المنصورى وأتمها السلطان محمد بن قلاوون سنة ٧٠٣ هـ. وقد وصفها المقريزى فى خططه بأنها من أجمل مبانى القاهرة وبأنها من أعجب ما صنعته يد بشر .

وعمت حركة إنشاء المدارس كل العالم الإسلامى ويذكر المؤرخون أنه كان فى الصالحيه وهى أحد أحياء دمشق قرابة ٣٦ مدرسة لتعليم مختلف العلوم من مختلف التخصصات التى كان لها شأن . فكانت هذه المدارس داخلة فى نظام الأوقاف الأسلامية . يضاف إليها المستشفيات والبيمارستانات والملاجىء التى يأوى إليها ذوو العاهات وأصحاب الحاجات . وكانت المنشآت التعليمية والخيرية أحسن حالا وأكثر متانة ورونقا من قصور الأثرياء ذوى الجاه والسلطان آنذاك وشملت النهضه أيضا شمال أفريقيا . ومن أشهر المدارس هناك مدرسة القيروان السنية . وفى مصر يذكر المقريزى أنه كان فى القاهرة وحدها ١٣ مدرسة .

وكانت طريقة التعليم فى هذه المدارس تختلف باختلاف الأماكن.فكانت هناك الطريقة " القيروانية " و " القرطبية " و " البغدادية " و " المصرية " . وقد كتب ابن خلدون فى مقدمته فصلا ممتعا عن تعليم الولدان واختلاف مذاهب الأمصار الإسلامية فى طرقه سنشير إلى تفصيل الكلام عنه فيما بعد .

رابعا - المكتبات :

لم يكن للمكتبات شأن كبير فى العصر الأموى . ولكنها انتشرت فى العصر العباسى مع انتشار استخدام الورق فى نسخ الكتب وظهور كثير من الوراقين وانتشار حلقات الأدباء والعلماء .

وكان استخدام الورق فى الكتابة معروفا فى البلاد الإسلامية منذ القرن الثامن الميلاد . ويقال إنه نقل عن بلاد الصين التى عرفت الورق فى وقت مبكر وكان للمسلمين فضل إدخاله إلى أوروبا إذ كانت الأندلس أول من عرفت الورق عن طريق البلاد العربية فى منتصف القرن العاشر الميلادى فى حين لم تعرفه ألمانيا إلا فى النصف الأول من القرن الثالث عشر ، وانجلترا فى مطلع القرن الرابع عشر الميلادى . وقد أنشىء أول مصنع للورق فى البلاد الإسلامية فى بغداد عام ٧٩٤ م على يد الفاضل بن يحيى وزير هارون الرشيد . وكان من الطبيعى أن يسهل ذلك تأليف الكتب وتداولها .

وقد حرص المسلمون على اقتناء الكتب تقديرا منهم لقيمة العلم ولم يبخلوا بالأموال فى شراء الكتب النفيسة القيمة يجلبونها من كل البلاد . وصارت المكتبات من أهم مراكز التربية والثقافة الإسلامية . وكانت هناك مكتبات عامة فى المدن تقام لها أبنية خاصة أو تلحق بالمساجد والمدارس والرباطات والبيمارستانات . وكانت هذه المكتبات مفتوحة لراغبى العلم يجلسون فى الأروقة المخصصة للاطلاع . فقد كانت هناك حجرات خاصة لرواد المكتبة وحجرات خاصة للنساخ يقومون فيها بنسخ الكتب . وكان أثاث المكتبات العامة متواضعا بسيطا إذ كانت تفرش أرضها بالبسط أو الحصر يجلس عليها القراء. كما كان بالمكتبة خزانات للكتب وفهارس لها. وكان يشرف على المكتبة خازن كان عادة من رجال العلم والأدب . وكان هناك النساخ والمجلدون والمترجمون والخدم الذين يقومون بخدمة القراء .

ومن أشهر المكتبات العامة مكتبة " بيت الحكمة " فى بغداد التى بناها هارون الرشيد و" بيت الحكمة " فى رقادة " بشمال أفريقيا و " دار الحكمة " بالقاهرة التى بناها الحاكم بأمر الله الفاطمى وسيأتى تفصيل الكلام عنها .

وكانت هناك مكتبة الموصل التى أسسها بعض محبى الخير سنه ٩٥٠ م . وكان الطلبة يتزودون فيها بالورق والكتب ، ومكتبة الرى كانت تضم عددا كبيرا من الكتب لدرجة أن فهارس كتبها وصلت إلى عشره أجزاء ومكتبة البصرة كانت تمنح معاشات شهريه للعلماء المشتغلين فيها ومكتبة " مرو " ومكتبة "خوارزم " التى يروى أن ياقوت الجغرافى الحموى قضى ثلاث سنوات فيها يجمع معلومات لمعجم بلدانه. وكانت توجد فى معظم المدن دور عامة للكتب مفتوحة لطلاب

العلم. وكانت هذه المكتبات تعطى رواتب وإعانات لمن يشتغلون فيها من الطلاب.

وعندما قوض التتار أو المغول بغداد على يد هولاكو سنه ٦٥٦هـ - ١٢٥٨م وأنهوا الخلافه العباسيه بقتل المستعصم بالله آخر خلفائها كان يوجد بها ٣٦ مكتبة عامة . وكانت هناك أيضا مكتبة القيروان بشمال أفريقيا التى كانت ملحقه بجامع القيروان . وكان لها نفس نظام المكتبات فى الشرق إلا أن أدوات الكتابة كان يصنع أغلبها بمدينه القيروان . فكانوا يكتبون على جلود الخرفان المصقولة أو على ورق البردى المجلوب من الإسكندرية . وفيما بعد كان يصنع الورق من خرق القماش البالى . وكانت النساء يقمن بصنعه وتغطيته بطبقة من الغراء لتزيد تماسكه وصقله . وكان الحبر يصنع من الصمغ أو المواد الكيميائية . وكانت المحابر تصنع من الخزف أوالزجاج أو النحاس وكانت تجفف أحيانا بالرمل الناعم الملون .

وكانت توجد فى معظم المساجد العامة مكتبات عامة . كما كانت هناك مكتبات خاصةيبنيها الأمراء فى قصورهم أو العلماء فى بيوتهم . وكانت هذه المكتبات ضخمة جدا لدرجة أنه يروى أن الصاحب بن عباد فى القرن العاشر كانت تضم مكتبته من الكتب ما يوازى كل الكتب التى كانت تضمها مكتبات أوربا مجتمعة فى ذلك الوقت . كما يروى أيضا أن أحد أطباء العيون العرب رفض دعوة سلطان بخارى للإقامه ببلاطه لأنه كان يحتاج إلى ٤٠٠ بعير لنقل مكتبته. وعندما مات الواقدى ترك وراءه ستمائة صندوق مملوءة بالكتب يحتاج كل منها إلى رجلين لنقله . وقد زخرت بالكتب مكتبة قرطبة التى أنشأها الحاكم المستنصر فى مقره بقرطبة فى منتصف القرن الرابع الهجرى . وكانت تضم بين خزائنها ٤٠٠ ألف مجلد فى وقت لم تعرف فيه الطباعة . وكانت تحتوى على ١٤ مجلدا للفهارس فقط . وكانت تضم الباحثين والعلماء الذين كانوا يعملون لحساب الخليفة الأموى فى الأندلس . وانتشروا فى جميع أنحاء العالم الإسلامى لجلب الكتب والمؤلفات وكان بها عدد كبير من الناسخين والمجلدين والمزخرفين. وهذا يدل على مدى إهتمام المسلمين بإقتناء الكتب وجمعها وأحيانا ما كانوا هم أنفسهم يقومون باستنساخها . وكانت المكتبات الخاصة فى هذه الفترة مما لا يحصى ولا يعد .

خامسا : دور المحكمة :

شهد تطور الحركة الفكرية والثقافية فى العصر العباسى ميلاد دور الحكمة التى كانت تعتبر مظهرا لما وصل إليه الرقى الفكرى . كما أن إسمها يعكس مدى الإحترام الشديد للعلم بإعتباره مفتاح الحكمة . ويمكن القول مما يورده المؤرخون عن دور الحكمة أنها كانت مركزا علميا للبحث والدراسة . ولذا نجد بعض الكتابات تطلق عليها إسم الجامعة . ولها من الجامعة وظيفة البحث والدراسة . وبعضهم ينظر إليها على أنها دار الكتب . والواقع أن هذا لا يقلل من أهمية دور الحكمة كمراكز للبحث والدراسة . فمدرسة الأسكندرية التى كانت الحاضرة الثقافية والفكرية للعصر الهلينستى بعد أثينا أخذت شهرتها ومكانتها من مكتبتها ومتحفها .

وما نريد أن نخلص إليه هو أن دور الحكمة كانت مراكز للدراسة والبحث يقوم العلماء ومحبو العلم بالوفود إليها ليجدوا فى مكتبتها غايتهم . كما كانت تدرس فى بعضها العلوم . وكان يلحق ببعضها مساكن لإقامة الطلاب وكان يصرف لهم الغذاء والكساء ، وأهم دور الحكمة المعروفة " بيت الحكمة " فى بغداد و " بيت الحكمة " فى رقادة بشمال زفريقية و " دار الحكمة " فى القاهرة كما أشرنا . وسنفصل الكلام عن كل واحدة منها فى السطور التالية :

(أ) بيت الحكمة فى بغداد :

أسسها هارون الرشيد وجمع فيها الكتب المؤلفة والمترجمة . وجعلها مركزا للترجمة والنقل . وكان لها مدير يشرف على شئونها يسميه المؤرخون العرب صاحب بيت الحكمة . وتوسع المأمون فيها وألحق بها عددا كبيرا من أشهر علماء عصره ومترجميه . وأصبحت مركزا للترجمة والنسخ والمطالعة والتأليف . فكان يجتمع فيها القراء والمؤلفون للإطلاع على المصادر التى يريدون الرجوع إليها . ويجتمع فيها المترجمون ومعهم الكتاب الحذاق يكتبون ما يملون عليهم . والنساخ لهم أماكن خاصة بهم ينسخون لأنفسهم أو لغيرهم بالأجر .

كان " بيت الحكمة " أكبر خزائن الكتب فى العصر العباسى. فظل قائما حتى هدم المغول بغداد سنة ٦٥٦هـ . ورموا بكل ما فيه من الكتب فى نهر دجلة والفرات . وكان ذلك من أكبر الخسائر التى لحقت بالبشرية فى تطورها لاسيما

إذا تذكرنا ما كان فى الخزائن من كنوز علمية وفكرية ونفسية لا تقدر بثمن

(ب) بيت الحكمة فى رقادة :

بناه الأمراء الأغالبة بمدينة رقادة بشمال أفريقيا . وأرادوا له أن يكون على غرار بيت الحكمة الذى أسسه العباسيون فى بغداد . وينسب بناء بيت الحكمة إلى إبراهيم الثانى الأغلبى الذى اشتهر بولعه الشديد بحب العلوم والحكمة . وهو الذى أنشأ مدينة رقادة سنة ٢٧٤ هـ (٨٧٩م) . ومن المرجح أن بيت الحكمة كان ملحقا بقصر رقادة ، وكان يضم مجالس أو غرفا كثيرة بعضها للمكتبة وبعضها للنسخ وبعضها للدرس والمناقشة والمناظرة وبعضها للرصد . وكانت هذه الغرف مفروشة بالحصر واللباد والبسط القيروانية الشهيرة . وكان للأمير فيه سرير يجلس عليه ليشرف فيه على المناقشات والمناظرات التى كانت تدور بين العلماء فى حضرته . وكان محبو العلم والطلاب يفدون أيضا إلى بيت الحكمة للاطلاع ونسخ الكتب . وكان من يتولى الإشراف على بيت الحكمة يسمى (صاحب بيت الحكمة) وكان أبو اليسر إبراهيم الشيبانى البغدادى تلميذ الجاحظ أول من تولى هذا المنصب . وكان إلى جانب هذا يقوم بتدريس الأدب فى بيت الحكمة . وكان الأمراء الأغالبة يوفدون فى كل عام سفارة إلى البلاط العباسى لتجديد العهد ودفع الخراج السنوى . وكانوا يكلفون رئيس الوفد بأن يشترى لهم أنفس الكتب المؤلفة والمترجمة وأن يجلب إلى رقادة فطاحل علماء العصر . وهكذا وجدت فى بيت الحكمة مصنفات فى جميع العلوم والفنون ومن مختلف الملل والنحل كما وجد علماء أجلاء من مختلف أقطار العالم الاسلامى .

ولما انقرضت دوله بنى الأغلب سنة ٢٩٦ هـ آل بيت الحكمه إلى بنى عبيد للدعوه الفاطميه الاسماعلية . وعندما أنشأ عبد الله المهدى الفاطمى مدينة المهدية سنة ٣٠٨ هـ بتونس نقل إليها بيت الحكمة مما كان فيه من أثاث ونفائس وكتب وأدوات والآت الرصد . فأفل نجم رقادة إلى الأبد . وتعطلت الرسالة الثقافية لبيت الحكمة وتحولت إلى حركة إسماعيلية بعد أن شع بعلومه وثقافته طيلة أربعين عاما . ولما إنتقل الفاطميون إلى القاهرة حملوا معهم ما تجمع لديهم من الكنوز والنفائس العلمية . وهكذا كانت مكتبة بيت الحكمة فى رقادة النواة الأولى لمكتبة دار الحكمة التى بناها الفاطميون فى مصر . كما كانت بيت الحكمة فى القيروان نواة المدرسة الطبية القيروانية الشهيرة التى إنتشر تأثيرها طيلة

ثلاثة قرون متتالية .

(ح) دار الحكمة بالقاهرة :

أنشأها الحاكم بأمر الله الفاطمى سنة ٣٩٥هـ . وقد كانت كما أرادها أروع من نظيرتها فى بغداد . ويؤكد ذلك وصف المقريزى لها (ص٢٥٥) بأنها كانت من عجائب الدنيا . ولم يكن لها نظير فى الأمصار الإسلامية . كما أنها حوت عددا من الكتب يزيد على المليون ونصف . وضمت النفيس النادر من المخطوطات فى العلوم والآداب المختلفة . ويروى أنها كانت تضم سته آلاف كتاب فى الطب وحده . وكان فى هذه المكتبة خريطة جغرافية دقيقة مرسومة على الحرير وصورة لأقاليم الأرض وجبالها وبحارها ومدنها وأنهارها . وقد أنفق عليها الحاكم بأمر الله بسخاء فأمدها بكل ما كانت تحتاجه من النساخين والورق والأقلام . وكانت موئلا للعلماء والأدباء . وظلت دار الحكمة قائمة حتى أيام صلاح الدين الأيوبى الذى هدمها وبنى عليها مدرسة للشافعية .

سادسا - حوانيت الوراقين :

ظهرت فى مطلع الدولة العباسية . وكانت تبيع الكتب الهامة . كما كان الوراقون يقومون بنسخ الكتب الهامة فيها . وإلى جانب هذا كانت تقوم بمهمة المكتبة العامة التى يفد إليها الناس للإطلاع . وكانت تعقد بها المناقشات والمناظرات التى يشترك فيها الوراقون أنفسهم . فقد كانوا على حظ من الثقافة والإطلاع . وكانوا يحرصون على إجتذاب العلماء إلى حوانيتهم . وقد إرتبط ظهور حوانيت الوراقين بإختراع الورق للكتابة . ومع أن أصل صناعة الورق ترجع إلى الصين منذ عام ١٠٥م إلا أن تطوير هذه الصناعة بحيث يستخدم فى أغراض الكتابة يرجع إلى العرب . وقد تأسست أول صناعة للورق فى بغداد سنة ٧٩٤م. وذلك بفضل الفضل بن يحيى فى عصر الرشيد . ومن بعدها انتشرت هذه الصناعة بسرعة فى جميع أنحاء العالم الإسلامى . فدخلت سوريا ومصر وشمال أفريقيا والأندلس . ويقول القلقشندى فى صبح الأعشى : إن الرشيد أمر ألا يكتب الناس إلا فى الكاغد أى الورق بعد أن كانوا يكتبون على اللخاف والرق . وقد سبق أن أشرنا إلى أن أول مصنع للورق فى البلاد العربية الإسلامية أنشئ فى بغداد سنة ٧٩١م على يد الفضل بن يحيى وزير هارون الرشيد . وقد

كان هذا الإختراع عاملا هاما فى إنتشار الكتب فى كل مكان فى العالم الإسلامى . ويورد اليعقوبى أنه كان فى زمانه (٨٩١م) أكثر من مائه وراق (بائع كتب) فى بغداد وأن محلاتهم كانت مراكز للنسخ والخطاطين والمنتديات الأدبية . وكان كثير من طلاب العلم يكسبون عيشهم عن طريق نسخ المخطوطات وبيعها للوراقين .

سابعا : الرباطات :

يختلف معنى الرباطات فى الشرق الإسلامى عنه فى الغرب الإسلامى والرباطات جمع رباط . ويقصد بالرباط فى الشرق الإسلامى البيوت التى كان يقيم بها الفقراء ويتفرغون للعبادة والتعليم . ومنها رباط البغدادية للشيخة زينب البغدادية بنى ٦٨٤هـ . وكانت تسكنه مع عدد من النساء اللاتى إنقطعن للتعليم والعبادة .

أما الرباط فى المغرب الإسلامى فهو ثكنة عسكرية محصنة ذات صحن واسع تحيط به غرف . وقد يكون على طابق واحد أو على طابقين تعلوه صومعة مستديرة للآذان وخصوصا لمراقبة السواحل إتقاء الغارات البحرية الموجهة من طرف أساطيل الروم . فالرباط حصن دفاعى أخذ تسميته من مرابطة المجاهدين فى سبيل الله فيه . وكان هؤلاء المجاهدون يرابطون فيه ويقضون يومهم وليلهم فى العمل أو العبادة . وجميع الرباطات فى المغرب العربى بنيت على ساحل البحر . وكانت تتصل ببعضها بواسطة العلامات النارية أو الحمام الزاجل . وكان لكل رباط من الرجال رباط للنساء يتعبدن فيه ويساعدن الرجال فى الأشغال الفلاحية وغيرها . وكان المرابطون يقومون بعدة أشغال . منها صنع الورق والحبر. وهما لازمان لما كانوا يقومون به من نسخ المصاحف وكتب الفقه والحديث . وكان المؤلفون وأصحاب التصانيف يعطون مؤلفاتهم الأصلية التى كتبوها بخط أيديهم إلى الرباطات لتنسخ منها نسخ أخرى . ويحتفظ بالأصل للرجوع إليه عند الإلتباس . وكان المرابطون يقومون بنسخ الكتب وتوزيعها على طلاب العلم مجانا . وكان الرباط مدرسة يؤمها العلماء والطلبة . وكان العلماء يرابطون فيه فترة من العام قد تكون شهرا ليدرسوا العلم إحتسابا لوجه الله . كما كان الطبيب يرابط أيضا فترة من أجل مداواة المرضى . وكذلك رجل البريد . فالكل يرابط من أجل الجهاد فى سبيل الله . وفى كل رباط مكتبة مقامة فى الجدار

على هيئة طاقات فى الحائط بها النسخ ازصلية والفرعية للمؤلفات والتصانيف . وأقدم الرباطات التى شيدها العرب بإفريقية هو رباط المنستير الذى بناه الأمير هرثمة بن أيمن وإلى القيروان سنة ١٨١هـ . وهو مازال قائما حى اليوم . ومن الرباطات الأخرى الموجودة حتى الآن رباط سوسة والرباط الأعلى الأسفل بتونس.

ثامنا - البيمارستانات والمستشفيات

البيمارستانات كلمة فارسية من كلمتين : بيمار : مريض وستان : دار . فهى إذن دور المرضى . وظلت هذه الكلمة تطلق على دور العلاج والمرضى حتى حلت محلها كلمة مستشفى عند إنشاء مستشفى أبى زعبل فى مصر ١٨٢٥م . وكانت أهم الأماكن لعلاج المرض ودراسة الطب . يقول المقريزى : إن أول من بنى البيمارستانات فى الإسلام الوليد بن عبد الملك . وهذا خلاف ما ذكره ديورانت أن أول بيمارستان معروف لنا أنشئ فى بغداد أيام هارون الرشيد (ديورانت : حـ١٣ص١٩٠) .

وقد إنتشرت دور الإستشفاء أو المستشفيات فى العالم الإسلامى تحصيها كتب التاريخ بثلاث وأربعين دارا كانت منتشرة من فارس إلى مراكش ومن شمال سوريا إلى مصر.وكان فى بغداد وحدها سنة ٩٣١م ثمانمائة وستون طبيبا مرخصا.وكانت أجورهم ترتفع حسب قربهم من بلاط الخلفاء.وقد حقق بعضهم ثروات هائلة.فقد جمع ابن بختيشوع طبيب هارون الرشيد والمأمون والبرامكة ثروة تقدر بحوالى سبعة ملايين دينار.ويقول عنه المؤرخون إنه كان يتقاضى من الخليفة مائه ألف درهم نظير حجامته مرتين فى العام ومثل هذا المبلغ لإعطائه مسهلا كل نصف عام.وقد أسس ابن طولون أول بيمارستان فى مصر سنة ٨٧٢م.ومن بعده كان هناك البيمارستان المنصورى الكبير الذى بنى ٦٨٣هـ وكان من أشهر البيمارستانات.وأنشأ نور الدين فى دمشق سنة ١٦٠م بيمارستانا ظل ثلاثة قرون يعالج المرضى من غير أجر ويمدهم بالدواء من غير ثمن ولما وفد ابن جبير إلى بغداد سنة ١١٨٤ م دهش من بيمارستانها العظيم الذى كان يرتفع كما ترتفع القصور الملكية على شاطئ نهر دجلة . وكان يطعم المرضى ويعالجهم ويمدهم بالدواء من غير ثمن . وربما أن بيمارستان السلطان قلاوون الذى تأسس بالقاهرة سنة ١٢٨٥م أعظم البيمارستانات العالم الإسلامى وأكثرها شهرة فى العصر الوسيط . وقد أورد له المقريزى وصفا رائعا فى خططه (حـ٤:ص٢٦٠) .

وكانت هذه البيمارستانات معدة ومنظمة جيدا فكان بها قسم للرجال وآخر للحريم . وكل قسم مزود بالآلات والعدد المشرفين والخدم . وفى كل قسم قاعات لمختلف الأمراض منها قاعة للأمراض الباطنية وأخرى للجراحة وثالثة للحاملة ورابعة للتجبير . وكان للبيمارستان صيدلية سميت " شرانجاز " فى العصر المتأخر . ولها رئيس يسمى صيدلى البيمارستان . وكان لكل بيمارستان رئيس أطباء يلقى دروسه على طلبة الطب . وكان من يتم دراسته منهم يقدم له رسالة فى نوع الطب الذى يختاره وبعدها يأذن له بممارسة المهنة ويعطيه ترخيصا كتابيا أو إجازة بذلك . ولم يكن يجوز لأحد أن يمارس هذه المهنة إلا إذا تقدم لإمتحان يعقد لهذا الغرض .

أعلام التربية فى الإسلام

مقدمة :

سنحاول فى الصفحات التالية أن نعرض لأهم آراء أعلام التربية فى الإسلام مبتدئين برائدهم ابن سحنون .

١- ابن سحنون وآراؤه التربوية

(٢٠٢-٢٥٦ هـ)

الإسم الكامل له هو محمد بن سعيد بن حبيب التنوخى القيروانى . ولد بالقيروان بتونس سنة ٢٠٢ هـ ومات سنة ٢٥٦هـ . ودفن بجوار أبيه فى القيروان. وقد نشأ ابن سحنون فى بيئة مثقفة متدينة فقد كانت القيروان إذ ذاك وهى مهبط رأسه دار السنة ومحط طلاب علوم الشريعة من سائرا أنحاء المغرب. (ابن سحنون : ص١٥) . وكان أبوه الإمام سحنون عالما متدينا ذائع الصيت وفقيه أفريقية بلا منازع . كما كان قاضيا متنورا عادلا تولى القضاء فى عهد الأمير أبى العباس أحمد بن الأغلب . وباشر الحسبة والمظالم بنفسه . واستحق أن يلقب بسراج القيروان . وقد تلقى ابنه محمد العلم عنه وعن غيره من العلماء. وكان أبوه سحنون يقول لمعلم إبنه : لاتؤدبه إلا بالمدح ولطيف الكلام . ليس هو من يؤدب بالضرب والتعنيف . وإنى أرجو أن يكون نسيج وحده وفريد زمانه وأتركه على نحلتى (المرجع السابق : ص١٦). وارتحل إلى الشرق حبا فى الاستزادة فى طلب العلم . فسافر إلى مصر وهو فى طريقه إلى الحج والنفى

بعلمائها ثم رحل إلى المدينة والنقى أيضا بعلمائها وعاد إلى بلاده بعد أن أدى فريضة الحج وإكتسب مزيدا من العلم والمعرفة . ويرجع الفضل إلى ابن سحنون فى نشر مذهب أهل السنة بين سكان شمال أفريقيا لاسيما مذهب مالك بن أنس وكان لإنتشار المذهب المالكى فى شمال أفريقيا والأندلس الفضل فى رواج هذا المذهب فى مصر فى أواخر القرن السادس بمن رحل إليها من علماء هذه البلاد بعد إنقطاع علماء هذا المذهب فى الديار المصرية فى أواخر القرن الرابع الهجرى تحت حكم الفاطميين .

كتبه ومؤلفاته : كان محمد بن سحنون من أكثر أهل زمانه تأليفا للكتب وقد ألف كتبا كثيرة تزيد على العشرين مصنفا فى مختلف العلوم من أهمها (إنظر ابن سحنون : ص ص ٢٥-٢٧) .

١ - **كتاب الجامع** : وهو أكبر مؤلفاته يشتمل على فنون شتى ويعتبر موسوعة كبيرة لأشهر العلوم فى عصره . ويقع فى جزء نتناول السير والفرائض والأمثال وآداب القضاء والتاريخ وطبقات وغير ذلك من الفنون .

٢ - **المسند فى الحديث** مصر كتاب كبير جدا .

٣ - **الإمامة** الذى يقال إنه لما وصل إلى بغداد كتب بماء الذهب وأهدى للخليفة.

٤ - **مسائل الجهاد** فى عشرين جزءا .

٥ - **طبقات العلوم** فى سبعة أجزاء .

٦ - **كتاب التاريخ** فى ستة أجزاء .

٧ - **آداب القاضى** .

٨ - **أحكام القرآن** .

٩ - **تفسير الموطأ** فى أربعة أجزاء .

١٠ - **الرد على أهل البدع** فى ثلاثة أجزاء .

١١ - **كتاب الأشربة وغريب الحديث** فى ثلاثه أجزاء .

١٢ - **كتاب الإيمان والرد على أهل الشرك** .

١٣ - **ما يجب على المتناظرين من حسن الأدب** فى جزءين .

١٤ - **الحجة على القدرية** .

١٥- الحجة على النصارى .

١٦- الرد على الفكرية .

١٧- وهناك كتب أخرى مثل الورع ورسالة فى معنى السنة والإباحة ورسالة فيمن سب النبى ﷺ وشرح أربعة كتب من مدونة سحنون . ومما يؤسف له أن هذه الكتب كلا مفقودة أو مجهولة المكان . وما نعرفه من كتب ووصل الينا كتابان هما :

١ - أجوبة محمد بن سحنون رواية محمد بن سالم القطان عنه وهو كتاب فى الفقة

٢- كتاب آداب المعلمين .

وينبغى أن نشير هنا إلى أن شهرة ابن سحنون بالنسبة لدراسى التربية الإسلامية ترتبط بهذا الكتاب الآخير المعروف " آداب المعلمين " الذى نشر ١٣٤٨هـ (٩٢٩م) .

وقامت بنشره اللجنة التونسية لنشر المخطوطات العربية على أساس نسخة خطية من مخطوطه يرجع تاريخها إلي القرن الثامن عشر . وقامت مطبعة العرب بتونس بطبع الكتاب على ١٩٣١ بتحقيق حسن حسنى عبد الوهاب . ثم قامت دار الكتب الشرقية بتونس بنشره عام ١٩٧٢ بمراجعة وتعليق محمد العروسى المطوى .

وقد نسب ابن خلدون فى مقدمته هذا الكتاب خطأ إلى محمد بن أبى زيد والكتاب نفسه صغير الحكم عظيم القدر . فهو يقع فى إثنتى عشرة صفحة فى النسخة الخطية و٢٦ صفحة فى النسخة المنشورة . وقد نقل ابن سحنون هذا الكتاب عن أبيه كما يتضح من الذييل المكتوب فى نهاية الكتاب وكما يتضح أيضا من محنويات الكتاب نفسه . ويتضمن الكتاب عشرة أبواب على الترتيب هى :

١- ما جاء فى تعليم القرآن العزيز .

٢- ما جاء فى العدل بين الصبيان .

٣- باب ما يكره محوه من ذكر الله تعالى .

٤- ماجاء فى الأدب وما يجوز فى ذلك وما لا يجوز (العقاب) .

٥- ماجاء فى الختم وما يجب فى ذلك للمعلم (من حيث الأجر) .

٦- ما جاء فى القضاء بعطية العيد .

٧- ما ينبغى أن يخلى الصبيان فيه (العطلات المدرسية)

٨- ما يجب على المعلم من لزوم الصبيان .

٩- ما جاء فى أجازة المعلم ومتى تجب (أجر المعلم)

١٠ - ماجاء فى أجازة المصحف وكتب الفقه وماشابهها .

وهناك تداخل أحيانا وتكرار أيضا في الآراء التى يوردها ابن سحنون تحت هذه العناوين . بل زنه قد يورد تحت العنوان كلام لا يدخل فى بابه أو موضوعه. وفى ضوء هذا التنبيه وهذه الإشارة سنعرض لأهم الآراء والمبادئ التى أوردها ابن سحنون تحت هذه العناوين مه التزامنا بترتيبها كما أوردها .

ولا يعتبر ذلك نقدا لابن سحنون أو تقليلا لأهمية الآراء التى أوردها . فهو صاحب فضل وسبق كبير باعتباره أول من ألف فى التربية الرسلامية من العرب والمسلمين . فلم يرد قبله كتاب هذا الموضوع . وهو بهذا يعتبر رائدا في الكتابة فى التربية الإسلامية . وقد إعتمد عليه من ألف بعده فى نفس النوضوع . ومنهم القابسى فى رسالته عن أحوال المعلمين والمتعلمين . بل إن القابسى كان ينقل إحيانا نقلا حرفيا عن ابن سحنون . وأحيانا أخرى كان ينقل بتصرف فى العبارة دون إخلال بالمعنى .

أهم الآراء التى وردت فى رسالة ابن سحنون :

لا يورد ابن سحنون آراء وأحكاما مستقلة تعبر عن رأيه . وإنما يورد هذه الآراء منسوبة إلى الأحاديث النبوية أو القرآن الكريم أو الروايات المدققة .

فضل تعليم القرآن وتعلمه : كان أول ما أكده ابن سحنون فضل تعلم القرآن الكريم وتعليمه ويقتبس لذلك أحاديث للنبى كقوله صلى الله عليه وسلم : " زفضلكم من تعلم القرآن وعلمه " ، و " يرفع الله القرآن أقواما " ، و " إن لله أهلين من الناس : حملة القرآن هم أهل الله وخاصته " ، و " من قرأ القرآن بإعراب فله أجرتشهيد " .

العدل بين الصبيان : فى إشارته إلى عدل المؤدب بين الصبيان يورد ابن

سحنون حديث النبى صلى الله عليه وسلم الذى يقول " أيما مؤدب ولى ثلاثة صبية من هذه ازمة فلم يعلمهم بالسوية فقيرهم مع غنيهم وغنيهم مع فقيرهم حشر يوم القيامة مع الخائنين .

ما يكره محوه من ذكر الله تعالى : يستدل ابن سحنون فى الكلام عما يكره محوه من ذكر الله تعالى بما ورد عن أنس بن مالك قوله :" اذا محت صبيه الكتاب (تنزيل رب العالمين) من الواحهم بارجلهم نبذ المعلم اسلامه خلف ظهره ثم لم يبال حين يلقى الله على مايلقاه عليه " ويورد على لسان انس تفسره للطريقه التى للمؤدب " اجانه : وكل صبى يأتى يوم نوبته بماء طاهر يصبه فيها وتمحى الالواح فى حفره فى الارض يصب فيها لينشف كما مسح الالواح بلعقها او بمسحها بالمنديل وما اشبهه .

مايجوز فى الادب وما لا يجوز : يورد ابن سحنون تحت هذا العنوان روايات تتضمن اقوالا للنبى (ص) تحدد مدى مايجوز للمعلم فى عقاب الصبيان وتأديبهم منها قول النبى ﷺ " لايضرب احدكم اكثر من عشره اسواط الا فى حد " وقوله ﷺ " ادب الصبى ثلاث درر فما زاد عليه قوصص (من القصاص) يوم القيامه " وهذا يعنى ان ضرب المعلم الصبى يجوز بين ثلث درر ولا يزيد عن عشره عند تأديبه على اللعب والبطالة ويكون التأديب بهدف منفعته لا بسبب غضب المؤدب. ولايجوز للمؤدب أن يزيد فى ضربه على ثلاث درر فى تأديب الصبى على قراءة القرآن. ويجب أن يكون التأديب على قدر الذنب دون رسراف .

وفى ختمة القرآن وما يجب للمعلم : يفهم مما يورده ابن سحنون أن ختمة القرآن تكون إما بحفظ القرآن كله أو معظمه أو نصفه أو ثلثه أو ربعه . ويكون ذلك حسب قدرة المتعلم . ولا يجوز للمعلم أن يحمل المتعلم فوق ما يريد أن يحفظه من القرآن إلا بإذه أبيه . ويجوز للمعلم أن يأخذ هدايا من الصبيان فى مناسبة الختمة وفى الأعياد فقط . ولا يجوز له أن يأخذ منهم هدايا فيما عدا ذلك إلا بأنذ الآباء .

وفى عطيه العيد : لا يجوز للمعلم أن يكلف الصبيان فوق أجره شيئا من هدية أو غير ذلك . وحرام عليه أن يقبل منهم هدية سألهم عليها . ولا جناح

عليه أن يقبل الهدية إذا جاءت بدون سؤال . ولا يجوز له أن يعاقبهم أو يهددهم على عدم إهدائهم . كما لا يحل له أن يخليهم إذا أهدوا له لأن التخلية داعية إلى الهدية وهو أمر مكروه .

فيما ينبغى أن يخلى الصبيان فيه : يفهم مما يذكره ابن سحنون أن إجازة الصبيان فى الأعياد تكون من يوم إلى ثلاثة فى عيد الفطر ومن ثلاثة أيام إلى خمسة فى عيد الأضحى . ولا يجوز للمعلم أن يرسل أحدا من صبيانه فى طلب من تغيب منهم إلا بإذن أولياء الأمور إلا أن تكون الأماكن قريبة لا تلهى الصبى عن دراسته . وعليه أن يتعهد المتغيبين من الصبيان بنفسه وأن يخبر آباءهم بتغيبهم . ومن الأفضل ألا يكلف أحد صبيانه فى القيام بالضرب وألا يجعل لهم عريفا عليهم إلا إذا كان قد ختم القرآن وعرفه وأصبح مستغنيا عن التعليم . فلا بأس من أن يستعين به لما فى ذلك من منفعة للصبى . وله أن يستأذن والده فى ذلك .ويجوز له أن يستأجر من يعينه إذا لزم الأمر .

ما يجب على المعلم عن لزوم الصبيان : مما يورده ابن سحنون تحت هذا العنوان ما يلى : .

١ - لا يحل للمعلم أن ينشغل عن الصبيان أثناء تعليمهم إلا فى الأوقات التى تتخلل عمله.فلا بأس من أن يتحدث وهو يتفقدهم وعينه عليهم .

٢ - يعرض ابن سحنون لتحريم رمى الفاكهة على الناس عند الإحتفال بختم القرآن لأن ذلك يعتبر طعاما نهبة . وقد نهى الرسول صلى الله عليه وسلم عن أكل الطعام النهبة .

٣ - يجب على المعلم أن يتفرغ لتلاميذه . ولا يترك عمله للصلاة على الجنائز إلا فى حالات الضرورة . ولا يجوز له أن يترك عمله للسير فى الجنائز أو عيادة المرضى .

٤ - ينبغى أن يخصص المعلم لتلاميذه وقتا لتعليم الكتاب . وينبغى أن يعلمهم إعراب القرآن والشكل والهجاء والخط الحسن والقراءة الحسنة والتوقيف والترتيل . أما تعليم الحساب والشعر والعربية والنحو فتعليمها ليس واجبا عليه إلا إذا إشترط عليه ذلك .

٥ - لا يجوز للمعلم أن يضرب الصبي على رأسه أو وجهه . ولا يجوز له أن يمنعه من طعامه وشرابه إذا أرسل فى طلبه .

٦ - لا يجوز للمعلم أن يوكل تعليم الصبية للبعض بل يجب أن يتولى ذلك بنفسه .

٧ - لا يجوز للمعلم أن ينشغل عن الصبيان بأن يكتب لنفسه أو لغيره كتب الفقه إلا بعد إنتهاء قراءة الصبيان .

٨ - على المعلم أن يحضر الدرة والفلقة . وعليه أيضا إستئجار الحانوت . وليس على الصبيان شئ من ذلك كله . ولكن إذا استأجر الآباء المعلم على تعليم الصبيان لمدة سنة فعليهم إستئجار المكان للمعلم .

٩ - على المعلم أن يختبر مدى تقدم صبيانه فى التعليم . وأن يخصص وقتا معلوما لمراجعة حفظ القرآن مثل عشية الأربعاء ويوم الخميس . وأن يعفيهم من الحضور للدراسة يوم الجمعة .

١٠- لا يجوز للمعلم أن يعلم صبيانة قراءة القرآن بالألحان والغناء لأنه مكروه .

١١- من الإشارات الطريفة عن المعلمين لابن سحنون قوله إنهم كانوا يسرون بوقوع الحبر على ثيابهم دلالة على إجتهادهم الشديد فى تعليم الصبيان .

١٢- يجعل المعلم وقت الدراسة بالكتاب من الضحى إلى وقت الظهر .

١٣- يجوز للمعلم أن يجعل صبيانه يملى بعضهم بعضا لما فى ذلك من منفعة لهم ويجب أن يتفقد إملاءهم أو يفحصها بنفسه.

١٤- لا يجوز للمعلم أن ينقل الصبى من سورة إلى سورة إلا إذا حفظها بإعرابها وكتابتها .

١٥- لا يجوز للمعلم أن يرسل الصبيان فى قضاء حوائجه .

١٦- يجب على المعلم أن يأمر الصبى بالصلاة إذا كان ابن سبع سنين . ويضربه عليها إذا كان ابن عشر . وعليه أن يعلمه الوضوء والصلاة لأنها من تمام دينه ويعلمه أيضا سنن الصلاة ، والإبتهال إلى الله .

١٧- لا يجوز تعليم الصبيان فى المسجد لأنهم لا يتحفظون من النجاسة ولم ينصب المسجد لتعليم الصبيان .

١٨- لا يجوز للمعلم أن يعلم أولاد النصارى القرآن .

١٩- من المكروه تعليم الجواري باختلاطهن بالغلمان لأن ذلك فساد لهم .

٢٠- على المعلم أن يؤدب الصبيان إذا آذى بعضهم بعضا .

٢١- إذا أدب المعلم الصبي الذي يجوز له تأديبه فأخطأ فقتأ عينه أو أصابه فقتله كان على المعلم الكفارة في القتل والدية إذا جاوز حد التأديب إلى القسوة . وإذا لم يجاوز المعلم الحد فلا دية عليه . وإذا ضرب المعلم الصبي بشيء غير مسموح به فقتله فعلى المعلم القصاص .

ما جاء في إجارة المعلم ومتى تجب :

من أهم المبادئ التي أوردها ابن سحنون تحت هذا العنوان ما يأتي :

١ - يجوز أن يؤجر المعلم شهريا أو سنويا أو يدفع له الأجر حسب الاتفاق .

٢ - يستحق المعلم الأجر المتفق عليه ولو كان لمدة سنة في حالة مرض الصبي أو خروجه مع والده في سفر .

٣ - يجوز أن يستأجر المعلم لجماعة من الصبيان إذا تراضى الآباء بذلك ، ويقوم كل منهم بدفع نصيبه .

٤ - يمنع المعلم من التعليم إذا عرف عنه التفريط أو التقصير في تعليم تلاميذه.

٥ - يجوز للمعلم أن يعلم مع صبيان أستؤجر على تعليمهم صبيانا آخرين بحيث لا يضر بتعليمهم .

ما جاء في إجارة المصحف وكتب الفقه :

من أهم المبادئ التي أوردها ابن سحنون تحت هذا العنوان ما يأتي :

١ - يجوز أن يستأجر المصحف للقراءة فيه كما يجوز بيعه لأن ما يباع هو الحبر والورق .

٢ - ويجوز أيضا إجارة كتب الفقه وبيعها إذا علم من استأجرها وإشتراها.

أبو الحسن العامري وآراؤه التربوية

(٣٠٠ - ٣٨١ هـ) (٩١١ - ٩٩٢ م)

الإسم الكامل له هو أبو الحسن محمد بن يوسف العامري النيسابوري . ويقول أحد الباحثين إن العامري نسبة تصح إلى قبيلة بين عامر وإلى جد من الموالي يحمل إسم عامر . ولد حوالي عام ٣٠٠ هـ في نيسابور وإليها ينسب وفيها تلقى علومه الأولى . ينتمي إلى أسرة مشهورة بتدينها . وهو فيلسوف ومتكلم عربي مسلم عاش في القرن ا لرابع الهجري وينتمي إلى مدرسة الكندي الفيلسوف العربي المعروف . انتقل إلى بلخ وهو في سن طلب العلم حيث درس علم الكلام والفلسفة على أبي زيد البلخي . وهو أستاذه المباشر الذي تلقى عليه العلم . ويقول د. أحمد عبد الحليم عطية الذي قام بدراسة وتحقيق كتاب العامري : السعادة والإسعاد في السيرة الإنسانية " في تقديمه لهذا الكتاب (ص ٧) إن المصادر لاتذكر أستاذا آخر للعامري سواه . ولكنه يعود فيذكر في (ص ٨٠) أنه تلقى دراسة الفقه على يد أبي بكر محمد القفال الشاشي لمدة تقرب من خمس إلى ست سنوات عندما ذهب إلى منطقة شاش.ويرجح ذهابه إلى "نسف"والتقائه بمحمد بن أحمد النسفي الفيلسوف الاسماعيلي الذي يحتمل أخذه عنه تعاليم الأفلاطونية الحديثة وعلم أحكام النجوم (المرجع السابق) .

عاد العامري ثانية إلى بخارى واستمر بها ما يقرب من عشر سنوات ما بين الفترة من ٣٣٢ - ٣٤٢هـ حيث كتب كتابه " السعادة والإسعاد في السيرة الإنسانية " الذي يعتبر أهم كتبه وربما كتب بعض الكتب الأخرى . وغادر بخارى إلى نيسابور حيث اهتم بالرياضيات والفلك والمنطق . ودرس في هذه المدينة وألف فيها بعض الكتب والشروح على منطق أرسطو . وفي سن الخمسين تقريبا انتقل إلى الري وأقام بها خمس سنين حيث علم وصنف وكون فيها جماعة من تلاميذه منهم أبو القاسم الكاتب وأبو حاتم الرازي . ومن تلاميذه أيضا ابن مسكويه وأبو حيان التوحيدي * وكلاهما حضر مجلسه وتتلمذ على

---

* أبو حيان التوحيدي كما يقول عنه أحمد أمين من أولئك العلماء الأدباء الذين أصيبوا في حياتهم بالبؤس والشقاء . وظل حياته يجاهد ويكافح في التأليف واحترف الوراقة والنسخ وجوب الأقطار يقصد الأمراء والوزراء لعلهم يكافئون علمه وأدبه فلم يحظ من كل ذلك بطائل. وعاش=

يديه ونقل عنه . فإبن مسكويه خصص في كتابه " الحكمة الخالدة " . وهو من تحقيق عبد الرحمن بدوي - فصلا كبيرا عن وصايا العامري وآدابه ، وقد يكون ذلك دليلا على عدم صحة ما يقوله أبو حيان التوحيدي عنه في كتابه الإمتاع والمؤانسة جـ ١ ص ٣٦ وهو: «لقد قطن العامري الري خمس سنين ودرس وأمعلى وضعف وروي فما أخذ مسكويه * عنه كلمة واحدة ولاوعي مسألة حتى كأن بينه وبينه سداً » .

ويرفض باحث آخر كلام التوحيدي ضد ابن مسكويه ويتهمه بالتحامل عليه . يقول عبد العزيز عزب في دراسته عن ابن مسكويه : « أما عن العامري الذي يتحدث التوحيدي عن إهمال مسكويه له وعدم اهتمامه بدروسه وفلسفته وعدم لقائه إبان مروره ببغداد فقد كان من مصادر مسكويه الذي اهتم بالعمري على العكس من قول التوحيدي . فمسكويه في واقع الأمر فعل عكس ذلك مما يدل على تحامل أبي حيان عليه » (العامري ص ٩٢) .

= كما يقول في بعض كتبه على نحو أربعين درهما في الشهر أي ما يساوى جنيها واحداً.ولم يكن حظه بعد وفاته بأحسن منه في حياته . فقد عجب ياقوت من أن مؤرخي الرجال لم يترجموا له مع أنه فيلسوف الأدباء وأديب الفلاسفة . ولم نعثر فيما بين أيدينا من الكتب على ترجمة وافية لحياته إلا نتفا قصيرة وأخبارا ضئيلة . وأراد هو أن ينتقم من الناس الذين كفروا صنيعه وجحدوا علمه وأدبه . فأحرق في أخر أيامه كتبه . وقال : " إني جمعت أكثرها للناس ولطلب المثالة منهم ولعقد الرياسة بينهم ، ولما الجاء عندهم فحرمت ذلك . . . ولقد أضطررت بينهم بعد العشرة والمعرفة في أوقات كثيرة إلى أكل الخضر في الصحراء ، وإلى التكفف الفاضح عند الخاصة والعامة وإلى بيع الدين والمروءة ، وإلى تعاطي الرياء بالسمعة والنفاق ، وإلى مالا يحسن بآلحر أن يرسمه بالقلم ويطرح في قلب صاحبه الألم". وكان من شؤمه أنه لم يبق من كتبه التي ألفها - وتبلغ نحو العشرين - إلا القليل . ولم يطبع منها إلا كتاب الإمتاع والمؤنسة . وهو أمتع كتبه وأنفعها . وكتاب المقابسات والصداقة والصديق ورسالة في العلوم . وما طبع منها أو ما بقي مخطوطاً مملوء بالتحريف والتصحيف إلى حد يقلل من قيمها والانتفاع بها

* مسكويه هو اسمه واسم جده ولذلك يلقب بمسكويه وابن مسكويه

أما التوحيدي فيعتبر العامري أحد أعلام عصره . وقد نقل عنه في كتابه : " الإمتاع والمؤانسة " و " المقابسات " . وقد نقل عنه أيضا الشهرزوري في نزهة المشتاق وصاعد الأندلسي في طبقات الأمم .

شخصية العامري ومكانته العلمية :

ظلت شخصية العامري مجهولة للباحثين والدارسين حتى عهد قريب يرجع بصفة عامة إلى النصف الأخير من القرن العشرين . عندها بدأ الاهتمام بالعامري من جانب الباحثين العرب والمسلمين . من بينهم محمد أحمد عواد الذي أعد رسالة ماجستير بإشراف د. سحبان خليفات عن فلسفة الأخلاق عند أبي الحسن العامري - الجامعة الأردنية ، عمان ، ١٩٧٩ . وألف د. سحبان خليفات كتابا عن رسائل أبي الحسن العامري وشذراته الفلسفية : دراسة نصوص . الجامعة الأردنية ، عمان ، ١٩٨٨ . ويتناول فيه آراء العامري في الميتافيزيقا والأخلاق والتصوف والمنطق والطبيعة .

وقام د. أحمد عبد الحميد غراب بتحقيق كتاب العامري " الإعلام بمناقب الإسلام " نشرته دار الكاتب المصري ، القاهرة ١٩٦٧ . وقام المستشرق روسن بتحقيق كتاب " الأمد على الأبد " وقدم له مينوفي ونشرته دار الكندي ببيروت ١٩٧٩ . وقام الدكتور أحمد عبد الحليم عطية بدراسة وتحقيق كتاب " السعادة والإسعاد في السيرة الإنسانية " دار الثقافة للنشر والتوزيع بالقاهرة ، بدون تاريخ . ويعتبر هذا الكتاب أهم كتب على الإطلاق . يقول محقق الكتاب عن مؤلفه : " إنه يعد من أبرز فلاسفة الأخلاق والسياسة في الإسلام ، ويقول عن الكتاب بنفسه :

« يعد كتابه أوضح صورة لهذا الجانب العملي في الفكر والفلسفة العربية والإسلامية ، وهو جانب هام في العقل العربي الذي عرف كثيرا ، وخاصة في الدراسات المعاصرة بأنه عقل لغوي إنشائي (بلاغي) أو كشفي إلهامي (غنوصي) أو نظري مجرد (برهاني) . »

وقد تعرض د . أحمد عبد الحميد غراب في محاضراته عن علم الأخلاق لطلبة كلية دار العلوم (استنسل ١٩٦٧ - ١٩٦٨) إلى كتاب السعادة والإسعاد ومفهوم الأخلاق عند العامري . وللعامري كتب أخرى منها " القول في الإبصار

والمبصر " و " التقرير لأوجه التقدير " وغير ذلك . ويذكر لنا العامري في حديثه عن مصنفاته في بداية كتابه " الأمد على الأبد " أنه قدم شروحا على أورجانون أرسطو ، فقد شرح الأصول المنطقية . وله تفسير كتاب " البرهان " أفاض فيه ذكر القوانين المنطقية . وقد وضع العامري شرحا على كتاب المقولات لأرسطو (العامري ص ٢٠) .

وينبغي أن نشير ألى أن للعامري كتباً مفقودة لايعرف مكانها وإن عرف أسماؤها، وكتبا أخرى مشكوك في نسبتها إليه . وقد أشرنا إلى قول التوحيدي عن العامري بأنه أحد أعلام عصره . كما أن الشهرستاني يضعه إلى جوار كبار فلاسفة الإسلام مثل الكندي والفارابي وابن سينا .

والواقع أن وجهات النظر تختلف في أمر العامري . فبعضهم ينظر إليه على أنه فيلسوف أرسطي أو أفلاطوني أو جامع بينهما . وآخرون ينظرون إليه مؤكدين على العناصر الأفلاطونية المحدثة في كتاباته . وهناك من ينظر إليه على أنه فارسي وآخرون يجتهدون في بيان عروبته . وهناك من يهتم بالتوجه الإسلامي لكتاباته (العامري ، ص ص ١٧ - ١٨)

العامري وأفلاطون :

كان تأثر العامري بأفلاطون أكثر من تأثره بأرسطو . ويتضح تأثير أفلاطون على العامري من انتمائه لمدرسة الكندي الفلسفية وتتلمذه على أبي زيد البلخي. ومن هنا كثرت إشاراته إلى رجال المدرسة الأفلاطونية في الإسلام . وقد أشار د.عبد الرحمن بدوي إلى ما نقله العامري من محاورات أفلاطون . والحقيقة أن من يتصفح كتاب العامري " السعادة والإسعاد في السيرة الإنسانية " يجد بصفة عامة أنه لا تكاد تخلو صفحة من الكتاب بدون الإشارة إلى أفلاطون أو أرسطو. ويقول " محمد كرد على " عن العامري إنه لكثرة استشهاده بالفلاسفة اليونان ليظن أنه يوناني أو من أتباع اليونان في مذهبه (العامري ص ٢٣ نقلا عن محمد كرد على).

العامري وأرسطو :

يؤكد التوحيدي تبحر العامري في الفلسفة اليونانية وكتب أرسطو ،وأنه قد شرح هذه الكتب وشاخ فيها " . ويوضح د. عبد الرحمن بدوي في تحقيقه ونشره

للترجمة العربية القديمة لكتاب أرسطو " الأخلاق إلى نيقوماخوس " (وهو والد أرسطو) وكالة المطبوعات ، الكويت ١٩٧٩) ما نقله العامري عنه في كتاب السعادة والإسعاد في السيرة الإنسانية . ويستشهد بفقرات في هذا الكتاب ويبين موضعها في النص اليوناني للكتاب ، وفي الترجمة العربية التي نشرها . ويقول د. بدوي في ذلك إن في كتاب " السعادة والإسعاد " للعامري نقولا كثيرة جدا عن كتاب الأخلاق لنيقوماخوس دون ذكر اسم الكتاب ، وأن من السهل ردها إلى نظائرها عند أرسطو . وقد هوجم العامري على أنه من المصنفين في مذاهب اليونان وفلاسفتهم وممن هاجموه ابن تيمية في كتابه الرد على المنطقيين .

تأثره بالمصادر الفارسية :

كان للمصادر الفارسية تأثير على الأفكار والآراء التي عبر عنها العامري لاسيما فيما يتعلق بالسياسة والحكم والرئاسة . وتشمل هذه المصادر الفارسية مصادر إسلامية نقل منها العامري عن ابن المقفع والجاحظ وأبي بكر الرازي وأبي زيد البلخي وهم فرس نسبا لكنهم عرب مسلمون ثقافة وفكراً .

تأثره بالمصادر العربية الإسلامية :

يبدو من كتابة العامري في كتابه " السعادة والإسعاد " على الرغم من كثرة اقتباساته اليونانية عن أفلاطون وأرسطو وغيرهما أنه واحد من علماء الحديث والثقافة القرآنية . فقد وردت في الكتاب آيات قرآنية وأحاديث نبوية وأسماء أنبياء ومفسرين تعطي في مجملها صورة عن الثقافة الدينية للمؤلف . وقد أشار إلى استشهادات كثيرة عن النبي ﷺ والصحابة وعلماء التفسير والمحدثين والفقهاء وآل البيت . وهو ما يؤكد إسلامية العامري وجذوره العربية .

آراؤه التربوية :

تناول العامري في كتابه السعادة والإسعاد في السيرة الإنسانية كثيرا من الموضوعات التربوية والأخلاقية الهامة نعرضها في السطور التالية :

١ - **سعادة الإنسان :** يقسم العامري السعادة الإنسانية إلى سعادة إنسية تتعلق بالبدن والنفس والبهيمية الشهوانية ، وسعادة عقلية تتعلق بالنفس الناطقة النظرية . وهو يعلي من شأن السعادة العقلية . وكلا النوعين من السعادة ينقسم

بدوره إلى نوعين : سعادة مطلقة وهي التي ينال صاحبها الأفضل من الخبرات ، وسعادة مقيدة وهي التي يفعل صاحبها الأفضل على قدر حاله . والسعادة المطلقة هي موضوع الدراسة لدى الفلاسفة . ويعرض العامري لقول أفلاطون في السعادة بأنها الحياة الفاضلة الخالية من الشرور . كما يعرض آراء أرسطو . ويوضح لنا العامري كيف تكتسب السعادة مؤكدا على ضرورة عملية التربية وأهمية المربي. وفي ذلك يقول (ص ١٢١) : « وأقول إن قوام أمر السعادة إنما هو بالمربي والسائس ثم بحسن طاعة المتأدب والمتربي . وملاك الأمر الدوام والصبر من السائس والمسوس » .

ويشير إلى قول أفلاطون (ص ١٢٤) بأن التربية الرديئة تصير الإنسان رديئا . وإنما تقع التربية الرديئة من المربي وذلك بأن يكون رذلا . ويؤكد العامري على أن السعادة مرتبطة أساسا بالعقل لأن الجهل من الآفات المؤدية إلى الشقاء المانعة للسعادة وبزوال الجهل واكتساب المعرفة تكون السعادة .

٢ ـ **الخير والشر** : يتحدث العامري باستفاضة عن الخير والشر . فيعرف الخير كما يعرفه أرسطو في كتابه " الأخلاق إلى نيقوماخوس " بأنه ما يتشوق إليه الكل . ثم يبين تقسيمات الخير والشر إلى الخير المطلق والشر المطلق وما ليس بخير أو شر .

وفي كلامه عن الخير يذكر ثلاثة أقسام له . فهناك خيرات في البدن كالصحة والقوة والجمال . وهناك خيرات في النفس مثل العفة والشجاعة والعدل ، وهناك خيرات خارج البدن والنفس كالثروة والأصدقاء . وقد فصل القول عن كل جانب منها ويمكن الرجوع لمن شاء إلى كتابه عن السعادة والإسعاد في السيرة الإنسانية

٣ ـ **الفضيلة والرذيلة** : يميز العامري بين الفضيلة الخلقية والعقلية ، ويرى أن الفضيلة الخلقية كما يقول أرسطو هي وسط بين رذيلتين . وعكس الفضيلة الرذيلة . وهو يرى أن كل الفضائل والرذائل مكتسبة " وأنها ليست لنا بالطبع ولكنها فينا بالطبع " . وهذا يعني أنها موجودة فينا بالقوة ثم نكتسبها بالفعل . وهذا هو السبيل إلى اكتساب الفضائل والرذائل . فسبيلها الأفعال من خلال التربية والتنشئة . فالأفعال المحمودة تقتني بالفضائل والأفعال ا لذميمة تقتنى بالرذائل وهو كلام نقله عن أرسطو . وقد أفاض بتفصيل عن الفضائل والرذائل .

ويمكن الرجوع إليها لمن يشاء فيي كتابه المشار إليه .

٤ ـ التربية والوراثة والبيئة :يقتبس العامري أبياتا أنشدها المبرد منها :

بدء فساد الطفل من عرق أمه . . . وخاضنة تغذوه بالود والملق

ويفهم من هذا البيت أن بدء فساد الطفل يرجع إلى ما ورثة عن أمه من خصائص وراثية . وهذا صحيح . فقد أكد الإسلام على اختيار ا لزوجة . وقد ورد في الأثر "تخيروا لنطفكم فإن العرق دساس " . وقد يرجع بدء فساد الطفل أيضا إلى الحاضنة التي تدلله بطريقة زائدة . فهذا الأسلوب من التربية يرتبط بنوع المعاملة التي يجدها الطفل في بيئته . ولاشك أن للبيئة شأنها شأن الوراثة لها أثر كبير في تربية الطفل .

مراحل العمر :

يتعرض العامري (ص ٣٤٦) لمراحل عمر الإنسان وينقل عن أفلاطون قوله بأن عنفوان العمر للمرأة من عشرين إلى ثلاثين سنة ، وللرجل من ثلاثين إلى خمسة وخمسين سنة . ويكون سن الخمسين إلى سن الخامسة والثمانين في حد الاكتمال . فإذا جاوز ذلك كان شيخا . ويزداد نمو الإنسان في بدنه وعقله إلى سن الخمسين . ويكون المولود صبيا من حين ولادته إلى أن يبلغ ثم يكون شابا إلى سن الثلاثين ثم كهلا إلى سن الخمسين ثم يكون من بعد ذلك شيخا . وقد يثير هذا الكلام نساؤلات كثيرة من جانب علماء البيولوجيا وعلماء التربية وغيرهم على السواء .

أصناف التربية على الأدب والتأديب :

يورد العامري (ص٣٥١) قول أفلاطون بأن التربية على الأدب قسمان : أحدهما القسم الخداع (أي تصوير الجد في صورة هزل) والآخر النوع الجدي . والابتداء من النوع الخداع لأن الصبيان لايحتملون الجد ماداموا صغاراً لضعف عقولهم . وذلك لأن ضعيف العقل لايرغب في الجد لأنه لايعرف قيمته . وتكون التربية على الأدب . وكذلك التأديب على وجهين : أحدهما بالقول والآخر بالفعل، وكل واحد من هذين يكون بوجهين : أحدهما أن يحملوا على الفعل وعلى القول حتى يقولوا أو يفعلوا . والآخر أن يقال ليسمعوا أو يفعل ليبصروا حتى يتأدبوا . وأقول أيضا (والقول للعامري) التربية على الأدب تكون بوجهين

أحدهما ما ينبغي أن يؤخذ به الصبي والآخر ما ينبغي أن يؤخذ به غيره . وذلك قبل أخذ الدايات والحواضن بعدم تخويف الأطفال وتجنيبهم سماع الأشياء القبيحة أو رؤيتها " .

تربية الصبيان :

يذكر العامري تحت هذا العنوان (ص ٣٥٢) كلام أفلاطون بأن ابتداء أمر تربية الصبيان يكون من النظافة وحملهم على إلف الأشياء الحسنة والنفور والبغض من الأشياء السمجة . وذلك بأن تصان أبصارهم وأسماعهم من القبيح والذميم وأن يبذر في نفوسهم الحسن والجميل . فينبغي أن نحملهم على النظافة في البدن واللباس وفي كل شيئ حتى تقصيص الشعر . . وأن نصون أعينهم من الصور القبيحة ، فإن الردئ يولد الردئ ، كما أن الحسن يولد الحسن . وينبغي أن نجري على أسماعهم وأبصارهم الأقاويل الحسنة والأفعال الفاضلة . ويجب أن نمدح الفضائل بحضرتهم ،وأن نزينها في نفوسهم وخاصة الصدق والوفاء وحسن الطاعة للأكابر والعفة والشجاعة والعدل والحكمة . وينبغي أن نذم الرذائل بحضرتهم ونقبحها في نفوسهم وخاصة الكذب والشره والخيانة والجبن والجهل وعصيان الأكابر . . . وينبغي أن نحملهم على الحياء والجرأة على الأعداء وأن نمنعهم من أقران السوء(ص ٣٥٣)ولاينبغي معاتبة النساء والصبيان.وقد قيل من الجهل العظيم معاتبة الصبيان والنساء.ولو جاز ذلك جاز معاتبة المجنون والسكران (ص ٣٥٤).وينبغي أن يعلموا الرماية والكتابة والسباحة (ص٣٥٩).

ابتداء التأديب من التعويد : ينقل العامري عن أفلاطون قوله إن ابتداء التأديب من التعويد ، وذلك بأن يؤخذ الصبيان باعتياد العادات النافعة الحسنة وألا نتركهم يحيدون عنها أو يخالفونها حتى يصير ذلك عادة لهم . وابتداء أمر التأديب بالرفق فإن لم ينفع فبالعنف (ص ٣٥٥) .

اختلاف طباع الأولاد في تقبل الأدب : يشير العامري في ص ٣٧٦ إلى اختلاف طباع الأولاد في تقبل الأدب . فينقل عن الحكيم (أرسطو) قوله : ويجب أن تعلم أن من الأولاد من ينقاد للأدب محبة له ومنهم من ينقاد حياء لا محبة له ومنهم من لاينقاد له إلا رهبة . وسبيل من هو كذلك أن يهدد ويعاقب .

أدب المأكل والمشرب : يورد العامري بعض آداب المأكل والمشرب التي يجب أن يتعودها الصبيان . منها أن يؤخذوا بغسل اليد قبل الطعام وبعده ، فإن ذلك من السنن الجيدة . وينبغي أن يؤخذوا بتسمية الله في الابتداء وبحمده في الآخر . . وينبغي أن يمنعوا من تعظيم (تكبير) اللقمة ومن مد اليد إلى ما سوى ما يكون أمامهم . . وينبغي أن يمنعوا من الشرب فيما بين الأكل أو بعد الفراغ من الأكل إلى أن تمضي ثلاث ساعات وأقله ساعتان .وينبغي أن يجعلوا الشربة بثلاثة أنفاس ويسموا بعد كل نفس عند الابتداء ويحمدوا الله إذا قطعوا في كل نفس . وروي أن النبي ﷺ كان يشرب الشربة في ثلاث شربات وثلاث تسميات وثلاث تحميدات . وينبغي أن يؤخذوا بصب الماء وترك العب ، فإن النبي ﷺ قال: الكباد من العب (أي في العب ضرر للكبد).

أدب النوم : يقول العامري (ص ٣٦٢) ينبغي أن يمنع الصبيان من نوم أول النهار وآخره. وكانت العرب تقول نوم أول النهار خرق ونوم آخره حمق والنوم فيما بين ذلك خلق . وينبغي أن يمنع الكل من النوم بعد الطعام إلى أن ينزل الطعام من فم المعدة إلى قعرها . وينبغي أن يؤمروا بالنوم على الشق الأيمن وأن يجعلوا أيمانهم تحت خدودهم .

وقد سبق أن أشرنا في كلامنا عن أفلاطون وأرسطو إلى بعض ما ينقله العامري عنهما بشأن التربية والتعليم منها ما يؤخذ به الصبيان من أداب التعلم. كما أن هناك آراءً تفصيلية آخرى يمكن الرجوع إليها في كتابه عن " السعادة والإسعاد في السيرة الإنسانية " .

بدء تعليم الطفل : ينقل العامري قول المبرد بأن أهل الفضل كانوا يقولون بألا ينبغي أن يسلم الصبي إلى المكتب من قبل أن يشتد عظمه ويصلب لحمه ويقوى . وأنشد المبرد :

وإياك أن تدعو لطفلك مكتبا . . . فتكربه والكرب يورثه الحمق

وقال المبرد : " وكان أهل الفضل فيما مضى يقولون لاعبوا أولادكم سبعا وعلموهم سبعا وخذوهم بمجالسة أهل الفضل سبعا " . ويقول العامري إن ما ذكره المبرد عن أهل الفضل قد وجدناه مرويا عن ابن إياس . وكان بعضهم يقول : بادروا بتعليم الصبيان قبل اتصال الأشغال وتفرق المال . (ص ٣٦٧)

العادة والتعود : الكلام عن العادة والتعود يتصل اتصالا مباشرا بالتربية والتعليم لأنهما يستهدفان إكساب العادات المرغوبة للمتعلم وتعويده عليها . ويذكر العامري (ص ٣٥٦) قول أرسطو بأن العادة إنما هي أفعال متكررة على جهة واحدة .والأفعال منها الجيد ومنها الردئ . والجيدة منها تولد الجيدة والرديئة فيها تولد الرديئة . والرداءة كلها إنما تتولد من جهة الإفراط أو القلة . والجودة إنما تتولد من التوسط والاعتدال. والخير كله في العادة الفاضلة . وينبغي أن يعود الصبيان على التعب بسبب الجميل أو النافع ولن يتم ذلك إلا باعتياد الصبر عن لذة الراحة، وعلى قلق النفس وجزع البدن من أذى التعب والغضب . ولا ينبغي أن يربى الأولاد على الدلال والدعة فإن تربية الدلال لاتصبر على مفارقة الشهوة ولاتطيق احتمال النصب والمشقة . ولا ينال الخيرات العظيمة من العلوم الشريفة والأخلاق الفاضلة والصناعات الكريمة إلا بالتزام الكد والتعب لا بالنوم والراحة . ذلك أن النوم والراحة يؤديان إلى الفقر في الدنيا والآخرة . ومن لم يصبر على تعب حسن الخلق احتاج إلى أن يصبر على تعب سوء الخلق .

توجيه المتعلم لما يصلح له : يشير العامري إلى قول أفلاطون " بأنه من البين أن كل واحد من الناس لايصلح لكل صنعة . بل قد يصلح هذا لشيئ لايصلح له ذاك . ويصلح ذاك لشيئ لايصلح له هذا . فمن الواجب أن يتخرج كل واحد فيما يكون مطبوعا فيه. وينبغي أن يجنب مالايكون له فيه طبع . . ومن البين أن الصنعة الواحدة لاتستجيب للواحد على ما ينبغي إلا أن يستمر عليها من الصبا ويتفرد لها ولايخلط بها غيرها . ولهذا أمرت السنة أن ينفرد كل واحد بصنعة واحدة يكون فيها من الصبا (ص ٣٧٧) . وهذا القول يتمشى مع أصول التوجيه التعليمي والإرشاد الأكاديمي كما نفهمه اليوم . ويستطرد العامري (ص ٣٧٨) ناقلا عن أفلاطون قوله " ولا ينبغي أن يؤخذ الحدث بتعليم الصنعة من قبل أن ينتهي البدن إلى كمال النشوة ومن قبل استكمال القوة .وذلك يكون في سن العشرين أو الحادية والعشرين .ولايجوز أن يؤخذوا بها من قبل هذا الوقت ، فإن التعب ينهك الأبدان . وهذا القول يخالف ما استقرت عليه أصول تعليم الصبيان في كل المجتمعات على مر التاريخ . فتأخير سن البدء بالتعلم إلى ما بعد مرحلة المراهقة فيه ضياع لأهم سنوات المتعلم . وقديما قالوا " التعلم في الصغر كالنقش على الحجر " . ومع أن الفكر والتطبيق التربوي الحديث شأنه شأن

القديم يرفض تأخير المتعلم حتى سن متأخرة إلا أننا نعلم أن هذا الرأي هو رأي أفلاطون وحده .

تعليم المرأة :

ينقل العامري عن أفلاطون قوله بأنه ليس في الأعمال عمل يختص به الرجل من حيث أنه رجل وتختص به المرأة من حيث أنها إمرأة . فإنها بطبعها تصلح لجميع ما يصلح له الرجل ، غير أنها تكون في جميع الأعمال أضعف . وقد نجد منهن من تكون قوية على المحاربة ونجد فيهن من تكون محبة للخدمة . وقلّ ما ينتهي عنهن حرفة . ومع أن العامري ينسب هذا الكلام لأفلاطون إلا أنه يعني موافقته عليه وتقبله له . والغريب أنه يورد حديثا للنبي ص على لسان ابن مسعود يقول " لاتعلموا النساء الكتابة " ولسنا ندري مدى صحة هذا الحديث لأنه لايتفق مع روح الإسلام في تعليم المرأة .

٣ - القابسي وآراؤه التربوية

(٣٢٤-٤٠٣هـ) (٩٣٥-١٠١٢م)

الإسم الكامل للقابسي هو أبو الحسن علي بن محمد خلف المعافري المعروف بالقابسي .ولد بالقيروان سنة ٣٢٤هـ (٩٣٥م) وبها تربى وتعلم وعلم بها ومات ودفن سنة ٤٠٣ هـ (١٠١٢م) . وترجع نسبة المعافري على الأرجح إلى قرية المعافرين التي ينتسب إليها . وكانت ضاحية من ضواحي تونس .

وكان القابسي عالما ضريرا فقها ورعا . وله مؤلفات كثيرة تصل إلى ١٥ . كلها في الفقه والحديث والمواعظ باستثناء واحد أفرده لشئون التعليم في الإسلام هى رسالته المفصلة لأحوال المتعلمين وأحكام المعلمين والمتعلمين . وقد صنفها في النصف الثاني من القرن الرابع . وضاع الأصل وبقيت منه نسخة خطية فريدة ترجع إلى عام ٧٠٦م محفوظة بالمكتبة القومية بباريس ومكتوبة بخط مغربي . وهذه الرسالة أكبر في حجمها من رسالة ابن سحنون . وقد تأثر بما كتبه ابن سحنون ونقل عنها نقلا حرفيا في بعض الأحيان كما سبق أن أشرنا . كما نقل أيضا عن الفقهاء الذين أخذ عنهم سحنون وإبنه كإبن القاسم وابن وهب إلا أن للقابسي فضل التوسع والاستفاضة في الأبواب والمعالجة . فرسالته إذن تفصيل لرسالة ابن سحنون كما هو واضح من إسمها .

آراء القابسي التربوية :

تصدى القابسي في رسالته إلى الكلام عن تعليم الصبيان من حيث أغراضه ومناهجه وطرق تدريسه وأماكنه ومراحله . كما تحدث عن بعض الأحكام الخاصة بالمعلم . وقد تناول القابسي في الجزء الأول من رسالته فضل تعلم القرآن وتعليمه. وهو بهذا يشترك مع ابن سحنون ، بل إنه ينقل نفس الأحاديث النبوية إلا أنه يتوسع في الكلام .

الغرض من التعليم معرفة الدين علما وعملا :

يجعل القابسي من تعليم القرآن غرضا هاما لتعليم الصبيان . فالقرآن ضرورة لمعرفة الدين . والصلاة لاتتم إلا بقراءة شيئ من القرآن . وهي مفروضة على المسلمين لأنها ركن من أركان الدين . وهو يتفق مع غيره من علماء المسلمين في أن الغرض الأول من تعليم الصبيان معرفة الدين علما وعملا أو نظرية وتطبيقا وممارسة .

وجوب تعليم الصبيان : يتعرض القابسي لقضية لم ترد عند ابن سحنون وهي قضية القول بضرورة تعليم جميع الصبيان . فتعليمهم واجب وجوبا شرعيا . وهو يدلل على هذا الوجوب بوجوب معرفة القرآن والعبادات وأن ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب. ولذا كان التعليم واجبا لأنه شرط معرفة القرآن والعبادات . وهكذا نجد أن بذور فكرة التعليم الإجباري الإلزامي عند القابسي . وقد كان صريحا كما كان جريئا فيها . وقد استقر هذا المبدأ عند فقهاء المسلمين فيما بعد عندما أصبح طلب العلم فريضة على كل مسلم (ومسلمة) .

وتقتضي ضرورة تعليم الصبيان أن يكون الوالد مكلفا بتعليم إبنه بنفسه . فإن لم يستطع فعليه أن يرسله لتلقي العلم . فإذا لم يكن قادرا على ذلك قام بالتكليف أقرباؤه . فإذا عجز الأهل عن نفقة التعليم قام به المحسنون أو قام معلم الكتاب بتعليم الفقراء احتسابا لوجه الله.أو دفع لهم الحاكم أجر تعليمهم من بيت المال.وهكذا يتحقق تعليم كل المسلمين بصرف النظر عن الغني أو الفقير.

تعليم البنت حق : يعترف القابسي بحق البنت في التعليم إنطلاقا من أن التكاليف الدينية واجبة على الرجل والمرأة . وهو بهذا يتفق مع روح الإسلام الحقيقية التي جعلت من طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة على حد سواء

إلا أنه ذهب إلى عدم الخلط بين الصبيان والإناث.وهو مبدأ سبق أن أكده ابن سحنون لاعتبارات أخلاقية.وينبغي أن تعلم البنت ما فيه صلاحها ويبعدها عن الفتنة .

منهج الدراسة : يذهب القابسي إلى أن الغاية الدينية هي التي تحدد العلوم التي يدرسها الصبيان . وأول هذه العلوم حفظ القرآن وقراءته وكتابته ونطقه وتجويده . أما تعليم الحساب والمواد الأخرى فهو في نظره ليس بشرط لازم . وهو بهذا يتفق مع ابن سحنون .

الدين أصل الأخلاق : يعتبر القابسي الدين أصل الأخلاق . فالدين أساس التربية الخلقية في الإسلام . لذلك يجب أن يعمل التعليم على تهذيب الأخلاق . وأساس الأخلاق عنده الضمير الخلقي الحي المستمد من الدين الذي يعتمد على ما ورد عن النبي ﷺ عندما سئل ما الإحسان؟ قال : "أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فهو يراك ". ويكون اكتساب الأخلاق عن طريق التعليم والقدوة . ولذلك كانت سيرة الرسول ﷺ ذات فائدة تعليمية خلقية عظيمة . قال تعالى :

« لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر ».

الفضائل والرذائل : إن الفضائل من تمام كمال الإنسان . وقد تنبه القابسي إلى أثر تكوين العادة في اكتساب الفضائل لدى الإنسان . ولذا يوصي المعلم بتوجيه الصبيان إلى العادات الحسنة وإبعادهم عن العادات الرذيلة . وأول الصفات الطيبة التي يتحلى بها الصبيان في نظره الطاعة . وهي ليست واجبة عليهم نحو المعلم فحسب ، بل هي واجبة نحو الله والرسول وأولى الأمر كما جاء في القرآن الكريم « وأطيعوا الله والرسول وأولى الأمر منكم » . ومن الصفات الطيبة النظام . فالفوضى مفسدة للصبيان . ويقتضي النظام من الصبيان الانتظام في الحضور وعند الانصراف من الدرس والتحلي بالنظام في الدرس والأعمال المدرسية والعبادات الإسلامية . وخير ما يعود الإنسان عليه الطاعة ولذا كانت ممارستها واجبة . والمعلم مطالب بتعليمها للصبيان باعتبارها أصل الفضائل وعصمة من الرذائل .

الرفق بالصبيان : إن العقوبة مشروعة في الإسلام وجعل لنا في القصاص

حياة . وقد أقر القابسي مبدأ عقاب الصبيان . لكنه يترفق معهم تمشيا مع روح الإسلام التي تتسم بالرحمة والعفو . وينزل المعلم من الصبي منزلة الوالد . وطالبه بأن يكون رفيقا به عادلا في عقابه غير متشدد فيه . ومن الرفق ألا يبادر المعلم إلى العقاب إذا أخطأ الطفل . وإنما ينبهه مرة بعد مرة فإذا لم ينتصح لجأ إلى العقاب. وقد نهى القابسي عن استخدام أسلوب الحرمان من الطعام والشراب في العقاب. بل طلب من المعلم أن يترفق بالصبيان فيأذن لم بالإنصراف إلى تناول الغذاء من طعام وشراب ثم يعودون . وهذا يعني أن الدراسة بالكتاب كانت تمتد إلى العصر. ونهى القابسي عن الانتقام في العقاب . ولذا نهى المعلم عن ضرب الصبيان في حالة الغضب حتى لايكون " ضرب أولاد المسلمين لراحة نفسه " . وأشار القابسي إلى اتباع أسلوب الترغيب والترهيب في معاملة الصبيان فإقر الضرب لعقوبة إلا إلا أنه اشترط لها شروطا من أهمها :

١ - ألا يوقع المعلم الضرب إلا على ذنب .

٢ - أن يكون العقاب على قدر الذنب .

٣ - أن يكون الضرب من واحدة إلى ثلاث . ويستأذن ولي الأمر فيمازاد عن ذلك .

٤ - أن يقوم المعلم بالضرب بنفسه ولا يوكله لواحد من الصبيان .

٥ - أن يكون الضرب على الرجلين ويتجنب الضرب على الوجه والرأس أو الأماكن الحساسة من الجسم .

٦ - أن آلة الضرب هي الدرة أو الفلقة . ويجب أن يكن عود الدرة رطبا مأمونا. وهذه هي نفس الشروط تقريبا التي أشار إليها ابن سحنون من قبل .

نظام الدراسة :

إن نظام الدراسة الذي أشار إليه القابسي يقوم على أساس الدراسة طول أيام الأسبوع باستثناء يوم الجمعة والنصف الثاني من يوم الخميس . ويخصص مساء الأربعاء وأول يوم الخميس للمراجعة والتدقيق من جانب المعلم للصبيان . وتكون الدراسة في أول النهار حتى الضحى مخصصة للقرآن الكريم . ومن الضحى إلى الظهر لتعليم الكتابة . وعند الظهر ينصرف التلاميذ لتناول الغذاء ثم يعودون

بعد صلاة الظهر حيث يدرس الصبيان فيما يتبقى من النهار بقية العلوم كالنحو والحساب والشعر . وهو يتفق في كثير من هذه الأمور مع ابن سحنون .

النهي عن تعليم غير المسلمين :

يتفق القابسي مع ابن سحنون في النهي عن تعليم غير المسلمين في الكتاتيب والنهي أيضا عن تعليم أبناء المسلمين في المدارس النصرانية . ومن الواضح الأساس الذي بنى عليه هذا النهي .

المعلم :

اقتصر القابسي في رسالته على الكلام عن معلمي الكتاتيب الذين يتصلون بأولاد العامة وذاع عنهم الحمق . فقيل في المثل : " أحمق من معلم الكتاب " . وهكذا وصف المعلمون بالحمق وقلة العقل ولم تكن تقبل شهادتهم . وقد انتصر الجاحظ لمعلمي الخاصة وهم المؤدبون الذين كانوا أكثر احتراما من معلمي الصبيان. ولعل هذه الوصمة لحقت بمعلمي الصبية من جراء العناصر الوضيعة التي اشتغلت بالمهنة والممارسات السيئة التي عرفت عنهم مما يتضح مما نهى القابسي المعلمين عنه . ولم تكن هناك شروط يسمح للمعلم بناء عليها بمزاولة المهنة .ولكن كان الأمر يعتمد على الشعور بالقدرة . فمن آنس في نفسه المقدرة على التعليم جاز له ذلك . وقد اشترط القابسي في المعلم معرفة القرآن والنحو والشعر وأيام العرب إلى جانب شخصيته الدينية وسمعته الطيبة . وهو بهذا يتفق مع ابن سحنون . ويتفق معه أيضا في مطالبه المعلم بعدم الانشغال عن تعليم الصبيان وعدم طلب الهدايا منهم أو إرسال تلاميذهم في قضاء حوائجهم والحصول على طعام بإسمهم في مناسبات الأفراح أو إحضار الطعام والحطب من بيوتهم . ولا يجوز للمعلم أن يترك عمله للصلاة على الجنازة أو السير فيها أو عيادة المرضى أو حضور شهادة البيع والنكاح . وربما من هنا جاءت فكرة عدم قبول شهادة معلم الصبية لا لنقص فيه ولكن لأنه منهي عن الإنشغال عن التعليم ، وهو واجبه ، بأعمال أخرى .

وواضح أوجه الاتفاق والشبه الكبير بين ما يقوله القابسي وماذهب إليه ابن سحنون . وكلاهما يتفقان أيضا على أن يأخذ المعلم أجراً نظير عمله إما مشاهرة (أي بالشهر) أو مساناة (أي بالسنة) . وأعطيا للمعلم سلطة كبيرة على

الصبي تساوي سلطة الوالد . ولكنهما حملا المعلم مسئولية النتيجة النهائية لعمله . وليس له أن يعتذر عن فساد النتيجة بنقص سلطته أو إلقاء اللوم على الصبيان . ولهذا صح عقاب المعلم ومحاسبته على التقصير في إهماله . وقد يصل العقاب إلى حد منعه من الاشتغال بالتعليم . ولذلك تعتبر التربية الإسلامية أسبق من التربية الحديثة في الدول المتقدمة لاسيما الولايات المتحدة الأمريكية في الأخذ بمبدأ المسئولية أو المساءلة المهنية Accuontability. وهو المبدأ الذي تحمست له التربية الأمريكية وغيرها في السنوات الأخيرة .

٤ - الغزالي وآراؤه التربوية

(٤٥٠-٥٥٥هـ) (١٠٥٨-١١١١م)

ولد أبو حامد الغزالي بطوس من أعمال خرسان ببلاد فارس سنة ٤٥٠ هـ ١٠٥٨ م ، وتوفي في الطابران عام ٥٥٥ هـ - ١١١١م . ويقال إن تسميته بالغزالي ترجع إلى مهنة والده وهي غزل الصوف . وهناك من يقول إنها نسبة إلى " غزالة "وهو بلد ينسب إليها . ويصف طه عبد الباقي سرور (ص ص ٦ - ٧) العصر الذي نشأ فيه الغزالي بقوله : « كان العصر العباسي الثالث مملوءاً بمئات من الشيع والفرق والمذاهب الدينية والفلسفية والكلامية حتى لقد أصبح لكل لسان ذي مذهب خاص به ولكل قلم ممتلئ أمة فكرية تتبعه . وكان العلماء فيه أشبه بالثوار في عصر الفوضى في كل قرية ثائر وفي كل طريقة فارس ملثم أو سافر . . وكان لابد إذن أن تملأ الدنيا دويا وزلزالا ومن ثم شهد المجتمع أعنف حرب فكرية في التاريخ . . ودخل رجال الدين حلبة الخصومة . فكان لكل منهم عصبة وأنصار يتطاحنون ويتحزبون . فالحنفية تناهض الشافعية في المشرق والمالكية لاتطيق سواها في المغرب والأندلس . والحرب غير خافية بين الأشعرية والمعتزلة وبين الباطنية والسنة . وفي هذا المحيط الغريب الثائر نشأ الغزالي » . وقد درس الغزالي في نيسابور على يد الإمام أبي المعالي الجويني الملقب بإمام الحرمين وإمام الشافعية وأخذ عنه المذاهب وطرق الجدل . كما درس علم الكلام والحكمة والفلسفة . وقرأ للفارابي وابن سينا و غيرهما . ويقول الغزالي في كتابه " المنقذ من الضلال " إنه لايوجد فيلسوف لم يدرس منهاجه ولا متكلم لم يتتبع "كلامه ولا صوفي لم يخض في أسراره" . وقد لقي الوزير السلجوقي نظام الملك فأعجب به الأخير وعلت مكانته لديه . فعينه أستاذا بالمدرسة النظامية التي بناها

ببغداد لنشر المذهب السني بعد أن أنشأ الفاطميون الأزهر بالقاهرة لنشر المذهب الشيعي .

ولقد قام الغزالي بالتدريس في المدرسة النظامية عندما رحل إليها سنة ٤٨٤هـ . وكان عمره آنذاك ٣٤ سنة . واستمر بالتدريس بها طيلة أربع سنوات زهد بعدها في الدنيا وآثر العزلة ورحل إلى البلد الحرام في طلب الحج . وذهب بعدها إلى دمشق حيث اعتكف للزهد والتصوف فترة من حياته . وأقام فترة في الإسكندرية لكنه عاد أخيرا إلى مسقط رأسه " طوس " ليقضي بقية عمره في وعظ الصوفية . واشتغل بتأليف الكتب . وقد ترك الغزالي ما يزيد عن سبعين مؤلفا في الدين والفلسفة والجدل والفقه والأخلاق والتصوف والدفاع عن الدين والرد على الفلاسفة . ويبرز من بينها جميعا كتابه " إحياء علوم الدين " الذي يدل على عبقريته ونفاذ بصيرته . وقد عرض في هذا الكتاب آراءه في التربية والتعليم وفي الأخلاق الحقة . وبين في مقدمة الكتاب سبب تأليفه له فقال : إن طريق الآخرة وما درج عليه السلف الصالح ما سماه الله سبحانه في كتابه فقها وحكمة وعلما وضياء ونورا وهداية ورشدا فقد أصبح بين الخلق مطويا وصار نسيا منسيا . ولما كان هذا ثلما في الدين مهما وخطبا مدلهما رأيت الاشتغال بتحرير هذا الكتاب إحياء لعلوم الدين وكشفا عن مناهج الأئمة المتقدمين وأيضا لمناحي العلوم النافعة عند النبيين والسلف الصالح » .

وقد قسم كتاب الأحياء إلى أربعة أجزاء أو أقسام : القسم الأول خاص بالعبادات وقد ذكر فيه آدابها وسننها وأسرار معالجتها . والقسم الثاني خصصه للعادات وقد احتوى على أسرار المعاملات الجارية بين الخلق ودقائق سننها وخفايا الورع في مجاربها . والقسم الثالث خاص بالمهلكات وعرض فيه إلى الأخلاق المذمومة من حيث حدها وحقيقتها والأسباب التي تتولد عنها والآفات التي تترتب عليها والعلاقات التي تعرف بها وطرق معالجتها وتزكية النفس عنها وتطهير القلب منها . وخصص القسم الأخير للمنجيات . وفيه عرض للأخلاق الحميدة والخصال المرغوبة .

تأثر الغزالي بغيره :

تأثر الغزالي بغيره من العلماء ونقل عنهم . وهو لايخفي ذلك . فقد اعترف صراحة بأنه نقل عن ابن مسكويه في كتابه تهذيب الأخلاق . ويقول زكي مبارك

إن الغزالي نقلا حرفيا عن ابي طالب المكي والمحاسبي وغيرهم من رجال الصوفية. (زكي مبارك : ص ٥٨) . كما أنه تأثر بفلاسفة الإغريق لاسيما أفلاطون ونقل عنهم .

الغزالي وكانط وديكارت :

يقول محمد إقبال في كتابه تجديد الفكر الديني في الإسلام (ص ص ١٠ - ١١) إن التشكك الفلسفي الذي اصطنعه الغزالي قضى على المذهب العقلي في الفلسفة . وهذا التشكك يكاد يكون دعوة للتبشير بمبدأ جديد مثلهامثل الدعوة التي قام بها كانط (١٧٢٤ - ١٨٠٤م) في ألمانيا في القرن الثامن عشر . ومن المعروف أن كانط فيلسوف ألماني له باع كبير في الأخلاق والفلسفة الحديثة . وقد تميز منهجه بنقد العقل وبيان قصوره . وبين محمد إقبال الفرق بينهما بقوله إن كانط انتهى إلى عجز العقل عن الوصول إلى إدراك حقيقة المعبود الأعلى . أما الغزالي فعندما خاب رجاؤه في الفكر الفلسفي التحليلي ولي وجهه شطر منهج التصوف ووجد فيه مكانا للدين قائما بنفسه مستقلا عن العلم وعن الفلسفة . والواقع أن فكرة استقلال كل من الدين والعلم والفلسفة قد تردد صداها فيما بعد عند الفيلسوف البريطاني " براتراند راسل " في العصر الحديث عندما نظر إلى الفلسفة على أنها جزيرة وسط بين الدين والعلم . ومن ناحية أخرى نجد أن التشكك الفلسفي عند الغزالي يتردد صداه فيما بعد عند ديكارت (١٥٩٦ - ١٦٥٠م) غير أنه خلافا لكانط يرى أن الإنسان يستطيع أن يصل إلى معرفة الله بواسطة نور العقل الطبيعي . ولسنا ندري ما إذا كان ديكارت قد أخذ منهج الشك عن الغزالي أم عن كانط والمدرسة الألمانية . ولاندري أيضا ما إذا كان كانط قد أخذه عن الغزالي . ومن قبيل الذكر هنا نشير إلى أن طه حسين قد اتهم باستخدامه لمنهج الشك عند ديكارت في كتابه عن " الشعر الجاهلي " وهو الأمر الذي فتح عليه من السماء أبوابا لم يستطع أن يسدها .

الغزالي والتربية :

جاءت آراء في التربية انعكاسا لآرائه الفلسفية الصوفية . من ذلك أنه رأى أن الهدف من التربية هو مساعدة الفرد على التقرب إلى الله والعمل للحياة الآخرة .كما دعا إلى الأخذ بأساليب الخشونة والتقشف والبعد عن ملذات الحياة

حتى تلك التي أحلها الله لعباده من جميل اللباس وطيب الطعام ومتعة الحياة .

وقد تناول الغزالي موضوع التربية بفكر واضح يبدو فيه تأثره بأفلاطون وأرسطو . ففي كلامه عن الفضيلة مثلا يقول إنها الاعتدال والتوسط بين أركان النفس الأربعة وقواها . وهي :

- قوة الغضب واعتدالها الشجاعة .
- قوة الشهوة واعتدالها العفة .
- قوة الحكمة والإفراط فيها مضر .
- قوة العدل والإفراط فيها أيضا مضر .

وفي كلامه عن القلب يخلط بينه وبين النفس والعقل ويقول عن النفس " إنها لطيفة ربانية روحانية لها تعلق بالقلب . وهذه اللطيفة هي حقيقة الإنسان لأنها الجزء المدرك فيه » . وفي كلامه عن العقل يقول عنه « إنه القلب نفسه أو تلك اللطيفة الربانية . ويقول عنه أيضا إنه صفة للقلب لأنه جزء من النفس الناطقة التي تنقسم إلى عقل عملي يرتبط بالدوافع والانفعالات والقوى المحركة للجسم وعقل نظري هو آلة الإدراك . والغزالي معذور في ذلك شأنه شأن باقي علماء وفلاسفة المسلمين في مباحثهم عن النفس والعقل لأنهم توجهوا إلى فلاسفة الإغريق ينقلون عنهم آراءهم في هذا السبيل . ولذلك نجد كلام فلاسفة المسلمين عن النفس والعقل متشابها لأن مصدره واحد . وكان أولى بهم أن يكتفوا بتوجيهات القرآن الكريم في قوله تعالى : « ويسألون عن الروح قل الروح من أمر ربي » . ولكن فلاسفة المسلمين في إصرارهم على معرفة جوهر الروح والنفس والعقل كانوا أشبه بعلماء النفس عندما أضاعوا وقتهم في البحث عن ماهية التعلم . وكان أولى بهم أن يركزوا اهتمامهم على نتائج التعلم والظروف التي تؤدي إلى التعلم الجيد ليكون لجهودهم قيمة عملية . ومع أن الغزالي وغيره من فلاسفة المسلمين قد نقلوا عن فلاسفة الإغريق فإنهم حاولوا التوفيق بين ما نقلوه وبين ما يقوله الإسلام . والغزالي حاول المزاوجة والتوفيق بين من نقل عنهم وبين الإسلام . ويشير في قوله عن الحكمة إلى قوله عز وجل « ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيرا كثيرا » .

الغاية من التربية :

يعتبر الغزالي أن الغاية من التربية هي التقرب إلى الله عز وجل . والدليل على ذلك طلب العلوم ومحاسن الأخلاق . وفي ذلك يقول : « على المعلم أن ينبه المتعلم على أن الغرض من طلب العلوم هو التقرب إلى الله دون الرياسة والمباهاة». وغاية الأخلاق عنده حب الله وحب لقائه والبعد عن الدنيا . وهو يقول : « مهما كان الأب يصون ولده من نار الدنيا فصيانته عن نار الآخرة أولى وصيانته أن يؤدبه ويهذبه ويعلمه محاسن الأخلاق » . ولم يرفض الغزالي الهدف التربوي والتثقيفي من التعلم ففي كلامه عن قيمة دراسة العلوم يذكر من بين ما يذكر مدى منفعتها للإنسان في حياتة الدنيا ومثل لها بعلوم الطب والحساب والصناعات ومدى منفعتها للإنسان في تثقيفه واستمتاعه وتدخلها في حياته الاجتماعية ومثل لها بالشعر والتاريخ والسياسة . وقد جعل العلم طريقا للإيمان. ففي كلامه عن الإيمان يقسمه إلى ثلاث مراتب :

١ - إيمان العوام الذين يصدقون ما يسمعون . مثاله قيل لهم فلان بالدار فصدقوه .

٢ - إيمان العلماء وهو مبني على الاستنباط . ومثاله أنهم سمعوا فلانا بالدار فصدقوا . أي أنهم لمسوا شيئا يدل على وجوده بالبيت . مثل العرب في قولهم البعرة تدل على البعير والخطوة تدل على المسير .

٣ - يقين العارفين الذين يشهدون الحق دون حجاب . ومثاله هم الذين دخلوا الدار ورأوا بأعينهم . وهم الأنبياء والرسل ومن في مرتبتهم .

تقسيم العلوم اوالمنهج التعليمي :

قسم الغزالي العلوم إلى أربعة أنواع : الأصول وتشمل القرآن والحديث ، والفروع وتشمل الفقه ، و المقدمات وتشمل ما لا غنى عنه في دراسة الأصول مثل النحو واللغة ، والمتممات وتشمل القراءات والتفسير . ومن حيث قيمتها يقسمها الغزالي إلي : علوم مذموم قليلها وكثيرها مثل علوم السحر والطالع والتنجيم لأنه لايرجى نفع منها في الدنيا والآخرة . وعلوم محمود قليلها وكثيرها وهي العلوم الدينية لأنها تطهر النفس وتقرب الإنسان من ربه . وعلوم قليلها محمود وكثيرها مذموم لأنها تشكك الإنسان مثل الفلسفة قد تؤدي إلى الإلحاد.

وهو هنا يحمل على الفلسفة التي ألف لها " تهافت الفلاسفة " . ومن حيث ضرورة تعليم العلوم يقرر الغزالي أنها تقسم إلى نوعين : ما هو فرض عين على كل فرد. وهي العلوم الدينية لأنها الأساس إلى معرفة الله . وما هو فرض كفاية وهي التي ليست مفروضة على كل فرد مثل علوم الحساب والطب والصناعات

علوم المنهج :

يعتمد تقسيم علوم المنهج على نظرة الغزالي إلى أهمية العلوم . ويعتبر الغزالي أن أساس معرفة العلوم يعتمد على عدة معايير من أهمها : مدى منفعة هذه العلوم للإنسان في حياته الدينية وتقربه من الله . ومدى منفعة هذه العلوم للإنسان من حيث خدمتها لعلوم الدين وهي علوم النحو واللغة . ومدى منفعة هذه العلوم للإنسان في حياته الدنيا مثل علم الطب والحساب والطبيعة . ومدى منفعة هذه العلوم للإنسان من تثقيف الإنسان واستمتاعه وتدخلها في حياته الاجتماعية مثل الشعر والتاريخ والسياسة .

وهكذا تقسم علوم المنهج عند الغزالي إلى : العلوم النقلية : وهي العلوم المنقولة من السلف وهي علوم القرآن والحديث ، والعلوم اللسانية : وهي العلوم التي تخدم أمور الدين،والعلوم العقلية : بما فيها الفلسفة التي قسمها إلى خمسة فروع هي : الرياضيات والعلوم المنطقية والطبيعيات والسياسات والخلقيات .

المعرفة عند الغزالي :

تناول الغزالي الكلام عن المعرفة . ولها في نظره صفتان رئيسيتان :

١ - أنها نسبية : فقد ذهب الغزالي إلى القول بأن المعرفة نسبية وهي تستند إلى الأمثلة المألوفة الملموسة فيقول : هب أن نفرا من العميان لم يروا الفيل قط . بل ولم يعرفوا له وصفا . وفي يوم علموا بمجئ هذا الحيوان ويودون تكوين فكرة عنه . فيتحسسونه . ويقع أحدهم على رجل الفيل. والآخر على نابيه والثالث على أذنه . ثم يطلب منهم أن يصفوه فيقول أحدهم إن الفيل شبيه بالعامود . ويرفض الثاني هذا الرأي ويقول مؤكدا إن الفيل كالوتد . ويذهب الثالث إلى أن الفيل كالخيمة الكبيرة . وهكذا يصف كل منهم الفيل حسب العضو أو المكان الذي لمسه . والحق بجانب كل واحد

منهم . لأن كل منهم صدق في قوله ولكن غاب الكل عن علمهم . وهذا صحيح بالنسبة إلى معظم المسائل التي نبحثها .

٢ - أنها فوق العقل : قال الغزالي بأنه ليس من الضروري أن تكون كل الحقائق بما يؤديها العقل . فهناك من الحقائق ما يعجز إدراكنا عن الوصول إليها. وليس مما يخالف الصواب في نظره وجود افتراض قائل بوجود دائرة أخرى فوق دائرة العقل أو دائرة التجلي الرباني . ونحن وإن كنا نجهل سنن تلك الدائرة ونواميسها جهلا تاما فإننا نجد الكفاءة في قدرة العقل على الاعتراف بإمكانية وجودها . وهو يرى أن العقل يعجز عن الوصول إلى احكام قاطعة في الدين . لأن العقل في جوهره محدود ومتناه ، ومن ثم لايستطيع إدراك غير المحدود أو اللامتناهي .

الإدراك عند الغزالي : في كلام الغزالي عن الإدراك يقسمه إلى إدراك حسي وإدراك معنوي أو نفسي . والإدراك الحسي يتعلق بالعالم المادي ويدرك بالحواس . أما الإدراك النفسي فيتعلق بالعالم الخفي عالم الملك والملكوت . إلا أن الإدراك النفسي محدود بقيود الجسم ولذا يجب أن يتحرر منها بالتطهر الجسمي والمادي . وواضح مدى تغلب النزعة الصوفية على فكر الغزالي في هذا التفسير .

الأخلاق عند الغزالي :

دون الغزالي علم الأخلاق وفلسفته في كتابه " إحياء علوم الدين " والكتب المشابهة له مثل كتاب " كيمياء السعادة " الذي ألفه باللغة الفارسية . وهو لايختلف عن كتاب " الإحياء " شكلا أوموضوعا غير أنه يختصر فيه الموضوعات التي يفصلها في " الإحياء " .

ويقوم علم الأخلاق عند الغزالي على روح إسلامية صوفية . وقد أطلق عليه أسماء متعددة مثل علم طريق الآخرة وعلم صفات الأخلاق وأسرار معاملات الدين وأخلاق الأبرار . ويقصد به تكييف النفس إلى ما رسمته البشرية وخططه رجال المكاشفة من علماء الإسلام ومن سبقهم من الأنبياء والصديقين . (زكي مبارك : ص١١٣) .

وعلم الأخلاق عند الغزالي علم معاملة لا مكاشفة بمعنى أنه يبحث في

الأعمال وفيما ينبغي على المرء أن يفعله ليكون سلوكه موافقا لروح الشريعة . وأمارات حسن الخلق في نظر الغزالي هي التي تتفق مع ما ورد في القرآن الكريم. وعلى الإنسان الذي يريد أن يعرف محاسن أخلاقه أن يقيس صفاته بما ورد بالقرآن الكريم . وقد نظر الغزالي إلى الفضيلة على أنها حالة التوسط والاعتدال بين رذيلتين ، وحدين متقابلين تطبيقا للمبدأ القرآني خير الأمور الوسط . فاعتدال الغضب " الشجاعة " توسطا بين التهور والجبن . واعتدال الشهوة "العفة" توسطا بين الشره والجمود . واعتدال العقل " الحكمة " توسطا بين الخبث والبلاهة. ومعيار الاعتدال في نظره يقوم على العقل والشرع .

أمهات الفضائل : إن أمهات الفضائل عند الغزالي أربعة : الحكمة وهي حالة للنفس يمكن بها تمييز الصواب من الخطأ في جميع الأفعال الاختبارية . والشجاعة وتكون بانقياد شهوة الغضب للعقل في إقدامها وإحجامها . والعدل وهي حالة للنفس بها تسوس الغضب والشهوة وتحملهما على مقتضى الحكمة . والعفة وتكون بتأديب قوة الشهوة بتأديب الشرع والعقل .

الوسيلة إلى الأخلاق الحسنة :

إن الوسيلة إلى الأخلاق الحسنة في نظر الغزالي هي التخلق . أي بتعويد النفس على الخلق الحسن . وقد قسم الناس إلى أربعة أقسام :

- قسم يمثله الإنسان الطفل الذي لايعرف الحق من الباطل والقبيح من الحسن . وهو أكثر الأقسام قبولا للرياضة والتوجيه ولا يحتاج إلا إلى مرشد وإلى باعث يحمله على الاتباع .
- قسم يمثله الإنسان الذي يعرف القبيح من الحسن . لكنه لم يتعود العمل الصالح . بل زين له سوء عمله فيقدم عليه إنقيادا لشهواته وإعراضا عن صواب رأيه . وأمر هذا الصنف من الناس أصعب . إذ يلزمه إقتلاع ما رسخ فيه من تعود الفساد وصرف للناس إلى الإقدام على العمل الحسن .
- قسم يمثله الإنسان الذي يرى القبيح حسنا وجميلا . ويرى الغزالي أن هذا النوع لايرجى صلاحه إلا على الندرة .
- قسم يمثله الإنسان الذي يتباهى بفساد خلقه وفساد أمره وكثره شره . وهذا الصنف هو أصعب المراتب في مجاهدة النفس وتعويدها الأخلاق الكريمة .

ويقول الغزالي إن كل ذي بصيرة نافذة يرى عيوبه . ويسهل عليه علاجها . ويصلحها إذا رأى فيها إعوجاجا . ويكن علاج عيوب النفس بمجاهدتها وتعويدها على فعل الضد . أي أن الرذائل تعالج بضدها فالبخل مثلا يعالج بالسخاء والجهل بالتعليم والتكبر بالتواضع وهكذا .

قابلية الأخلاق للتعديل :

يؤمن الغزالي بقابلية الأخلاق والسلوك للتعديل . فقد ورد عن النبي ﷺ قوله " حسنوا أخلاقكم " . وهو ينتقد من يزعم أن الأخلاق لا تتغير اعتمادا على أن الأخلاق مقتضى المزاج والطبع وأن الخلق صورة الباطن . ويؤكد الغزالي رأيه بإشارته إلى أن كل كائن حي يمكن أن يتغير خلقه حتى أن البهائم يمكن تبديل خلقها من الاستيحاش إلى الإستئناس . ولو أن الأخلاق لا تتغير لما كان هناك حاجة إلى المواعظ والوصايا ولما قال الرسول ﷺ " حسنوا أخلاقكم " . وهو يقول « إن الصبي أمانة عند والديه وقلبه الطاهر جوهرة نفيسة ساذجة خالية من كل نقش وصورة . وهو قابل لكل ما نقش ومائل إلى كل ما يقال . فإن عود الخير وعلمه نشأ عليه وسعد في الدنيا والآخرة . وشاركه في ثوابه كل معلم له ومؤدب . وإن عود الشر وأهمل إهمال البهائم شقى وهلك . وكان الوزر في رقبة القيم عليه والوالي له » .

منهج الغزالي في تربية الطفل :

يقدم لنا الغزالي منهجا علميا في تربية الطفل تربية إسلامية صحيحة . فبعد أن أكد أن الطفل قابل لكل نقش وصورة نصح الأب بأن يؤدب إبنه وينشئه على محاسن الأخلاق وأن يحفظه من قرناء السوء . وأوصى الأب بألا يحبب إبنه في أسباب الرفاهية حتى لايتعود نعيم العيش فيصعب تقويمه بعد ذلك . وعليه أن يعوده على اللباس المحتشم الوقور . وأن يمنعه من النوم نهارا وتعويده الحركة والرياضة . وأن يمنعه من الإفتخار على أقرانه بما يملكه هو أو والده . وتعويده التواضع وطيب الحديث ، وتعويده على العطاء لا الأخذ حتى ولو كان فقيرا . وأن ينهاه عن القسم صادقا أو كاذبا تأكيدا لقول الله ولا تجعلوا الله عرضة لأيمانكم . وأن ينهاه عن الأعمال غير المستحسنة كالبصاق والتثاؤب لاسيما في المجالس ، وأن يعوده على الإقلال من الكلام إلا لحاجة وبقدر ما تتطلبه هذه الحاجة . وأن يخوفه من السرقة وأكل الحرام . وغيرها من الأخلاق المذمومة . وأن يعوده على

الصبر ، وأن يأذن له باللعب بعد الدرس حتى يستريح ويتجدد ذكاؤه ونشاطه ويروح عن نفسه مشقة العلم .

وقد أشار إلى أن أول ما يغلب على الطفل شره الطعام . وهو في هذا يتفق مع ابن مسكويه . وطالب الأب بأن يؤدبه في ذلك وأن يعوده أخذ الطعام بيمينه والبدء بإسم الله والأخذ مما يليه . . . وأن يقبح عنده كثرة الأكل بطريق غير مباشر . كأن يذم الطفل الشره ويمدح المتأدب قليل الأكل . كما طالب الأب بألا يتساهل مع إبنه إذا بلغ سن التمييز في كل ما يحتاج إليه أمر الشرع . ويقدم لنا الغزالي أسلوب الثواب والعقاب لتأديب الصبي . إلا أنه يرى ألا يكون العقاب لكل أمر .بل من الأفضل التغاضي عن بعض الأمور إذا خجل الطفل منها وتستر لإخفائها.ولا يكون العقاب علنا حتى لا يشجع الطفل على تعود الخطأ. ويجب أن يقلل من العقاب حتى لايتعود الطفل المهانة ويهون عليه سماع اللوم والتأنيب.

تعليم الصبيان :

يؤكد الغزالي في كلامه عن تعليم الصبيان عدة مبادئ تربوية هامة من أبرزها :

تقسيم العلوم أوالمنهج التعليمي : ينبغي أن يبدأ تعليم الصبيان من صغرهم . وقديما قالوا : التعليم في الصغر كالنقش على الحجر . ويؤكد الغزالي نفس المعنى عندما يقول عن الصبي : «وقلبه الطاهر جوهرة نفيسه ساذجة خالية من كل نقش وصورة وهو قابل لكل ما نقش عليه » . وقد ردد هذا القول جون لوك بعد حوالي ١٣ قرنا من الزمان عندما ذهب إلى أن عقل الطفل صفحة بيضاء تنقشه الخبرة والتعليم . ويؤكد الغزالي أن التربية والتعليم عملية تتعاون فيها طبيعة الصبي مع بيئته .

تقسيم العلوم اوالمنهج التعليمي : يؤكد الغزالي ضرورة فهم المعلم لطبيعة الصبي . وهذا يتأتى من معرفته لنفسية الصبيان الذين يعلمهم . فهم ليسوا سواء . وهذه المعرفة تساعده من ناحية أخرى على إيجاد الصلة الإنسانية بينه وبينهم . وعلى المعلم أن يتدرج في تعليم الصبي . وأن يبدأ معه من السهل إلى الصعب . وفي ذلك يقول الغزالي :

« إن أول واجبات المربي أن يعلم الطفل مايسهل عليه فهمه . لأن

الموضوعات الصعبة تؤدي إلى إرتباكه العقلي وتنفره من العلم » . ويشير الغزالي إلى قضية نفسية هامة هي : « أن صحة النفس تتحقق من إعتدال مزاج البدن عندما يتكامل الجسم والنفس » . (أبو حامد الغزالي : إحياء علوم الدين ، جـ١ ، ص ٥٢) . ويطالب الغزالي المعلم ألا يخوض في العلم دفعة واحدة بل يتدرج فيه مع مراعات الترتيب . ويبتدئ بالأهم . وكذلك ينبغي عليه ألا يخوض فيي علم إلا بعد أن يستوفي ما قبله . فالعلوم مرتبة ترتيبا ضروريا وبعضها طريق بعض .

ضرورة الترويح واللعب في تربية الولد :

يشير الغزالي إلى ضرورة الترويح عن الصبي . وأشار إليه بموضوع اللعب الذي قال إن له ثلاث وظائف : يروض جسم الصغير ويقويه ويدخل السرور على قلبه ، ويريح الصبي من تعب الدروس ، ويروح عن تعب النفس كللها ومللها . وفي بيان أهمية اللعب للطفل يقول الغزالي « ينبغي أن يعود في بعض النهار المشي والحركة والرياضة حتى لايغلب عليه الكسل » . وينبغي أن يؤذن له بعد الإنصراف من المكتب أن يلعب لعبا جميلا يستريح إليه من تعب العلم بحيث لايتعب في اللعب . فإن منع الصبي من اللعب وإرهاقه في التعليم دائما يميت قلبه ويبطل ذكاءه وينغص عليه العيش حتى يطلب الحيلة في الخلاص منه .

تربية البنت : يرى الغزالي أن العلم واجب على الرجال والنساء . ولكنه لم يهتم بالحديث عن تربية البنت ولم يكتب عنها إلا النذر اليسير .

المعلم في نظر الغزالي :

يؤكد الغزالي أهمية الاشتغال بالتعليم . ويعلي من قدر أصحابه . ويعظم من شأن وخطر المسئولية الملقاة عليهم . وفي ذلك يقول : « فمن علم وعمل بما علم فهو الذي يدعى عظيما في ملكوت السموات . فإنه كالشمس تضيء لغيرها . ومن اشتغل بالتعليم فقد تقلد أمرا عظيما وخطرا جسيما . فليحفظ آدابه » (الغزالي : ص ٤٩) . والمعلم في نظره « متصرف في قلوب البشر ونفوسهم » وهو يمارس أشرف الصناعات بعد النبوة . وهو يعتبر أن حق المعلم بالنسبة للطفل أعظم من حق الوالدين . لأن الوالد سبب الوجود الحاضر والحياة الفانية . أما المعلم فهو سبب الحياة الباقية والمفيد للحياة الآخرة . فهو معلم علوم

الآخرة أو علوم الدنيا على قصد الآخرة . وقد أوصى المعلم بعدة أمور من أهمها:

١ - الشفقة والرحمة على الصبي فهو منه بمنزلة الوالد وهو ما سبق أن ذكره ابن سحنون والقابسي .

٢ - ألا يبخل على الصبي بالنصح والتوجيه والإرشاد إلى طريق الخير .

٣ - أن يزجر الصبي عما يبدر منه من سوء الخلق بطريقة الرحمة لا التوبيخ ، وأن يكون تأديبه بالبرهنة والتوجيه لا بالتوبيخ والضرب والوعيد .

٤ - أن يقتصر بالمتعلم على قدر فهمه فلا يلقي إليه ما لا يبلغه عقله فينفره أو يحبط عليه عقله إقتداء في ذلك بسيد البشر صلى الله عليه وسلم حيث قال : « نحن معاشر الأنبياء أمرنا أن ننزل الناس منازلهم ونكلمهم على قدر عقولهم » . وقد قيل « كل لكل عبد بمعيار عقله وزن له بميزان فهمه».

٥ - ألا يقبح في نفس المتعلم العلوم الأخرى التي يدرسها غيره كمعلم اللغة في عادته في تقبيح علم الفقه . ومعلم الفقه في عادته تقبيح علم الحديث والتفسير .

٦ - أن يكون المعلم قدوة حسنة . وأن يطابق قوله فعله وأن يكون متحليا بالورع والتقوى لأن أعين الصبيان إليه ناظرة وآذانهم إليه مصغية . فما استحسن فهو عندهم الحسن وما استقبح فهو عندهم القبيح .

٧ - أن يعود الصبي على الأخلاق الكريمة فيقوم احتراما لمن هو أكبر منه ، كما يعوده على ألا يبصق في المجلس ولا يتمخط ولا يتثاءب .

٨ - يجب ألا يرفع المعلم التكليف بينه وبين التلميذ حتى لا يتجرأ عليه وحتى لايفسد خلقه . وأن يبتعد به عن التدليل ويعوده الخشونة حتى لايغلق عليه الكسل . وأن يراعي التوسط والاعتدال في معاملته .

٩ - أن يكون وقورا رزينا لا ثرثارا أهوج ولا يظهر أمام تلاميذه بمظهر الخامل الناعس .

١٠- ألا يطلب المعلم على العلم أجرا وإنما يقصد به ابتغاء وجه الله . وقد عيب على الغزالي هذا الرأي من جانب دارسي التربية الإسلامية لأنه رأي لايتفق مع الواقع . بل إنه في هذا الرأي خالف سابقيه من علماء المسلمين الذين

قالوا بجواز أخذ أجر عن التعليم واعتبروا ذلك ضرورة لنشر العلم بين الناس . وهو ما يتضح أيضا من عرضنا السابق لآراء ابن سحنون والقابسي . والأدلة التاريخية أيضا تدحض هذا الرأي للغزالي . فقد كان المعلمون يحصلون على أجر بالفعل نظير قيامهم بتعليم الصبيان . ولعل الغزالي متأثر في هذا الرأي بما ورد لدى أفلاطون الذي كان يؤمن بنفس الرأي وعاب على السفسطائيين في عصره أنهم يأخذون أجرا على التعليم. ويعتبر هذا الرأي لأفلاطون مثاليا لايتفق مع واقع المجتمع ولا واقع الاشتغال بالتعليم كمهنة لاسيما في عصرنا الحاضر . ومما يدعم وجهة النظر القائلة بأن تراثنا يؤكد حق المعلم في أجره عن التعليم ما ورد في الأثر « إن أحق ما أتخذتم عليه أجرا كتاب الله » . ويروي عن ابن مسعود قوله: ثلاث لابد للناس منهم : أمير يحكم بينهم ولولاه لأكل بعضهم بعضا . وشراء المصاحف وبيعها ولولاه لقل كتاب الله . ومعلم يعلم أولاده ويأخذ على ذلك أجرا. ولولا ذلك لكان الناس أميين . ويروى أيضا أن سعد بن مالك قدم برجل من العراق يعلم أبناء أهل المدينة الكتاب ويعطونه الأجر . ويروى عن مالك قوله : لابأس بما يأخذ المعلم على تعليم القرآن وإن اشترط شيئا سواء اشترطها أم لم يشترطها . وهذه كلها أمثلة تؤكد استحقاق المعلم للأجر على اشتغاله بالتعليم.

٥ - برهان الدين الزرنوجي وآراؤه التربوية

يختلف الناس في أمر الزرنوجي اختلافا شديدا . فهم لايتفقون على إسمه . فهو عند بعضهم برهان الدين وعند آخرين برهان الإسلام . كما أنهم لايتفقون على تاريخ حياته . فتاريخ ميلاده وموته غير معروفين على وجه التحديد . فبعضهم يذكر أنه عاش في القرن السادس الهجري (الثاني عشر الميلادي) ولا يذكر تاريخ مولده وبعضهم يذكر تاريخ وفاته فيقول إنه توفي عام ٥٩١هـ . وبعضهم يقول إن وفاته كانت بعد عام ٥٩٣ هـ (١١٩٧م) استنادا إلى أن وفاة أستاذه برهان الدين أبو الحسن على بن أبي بكر بن عبد الجليل الرشداني الغرفاني المرغيناني كانت في تلك السنة وأن وفاة الزرنوجي كانت بعد أستاذه . وبعضهم يقول إنه ينتسب إلى " زرنوج " وهي بلد مشهور فيما وراء النهر تابعة لإقليم خرسان . وبعضهم يذهب غير ذلك . وهكذا تحيط بشخصية الزرنوجي

الشبهات والغموض . كما يحيط بتاريخه العلمي الغموض أيضا . فكل ما تذكره المصادر العلمية عنه أنه حنفي المذهب تلميذ برهان الدين الفرغاني الذي سبق أن أشرنا إليه . وهو صاحب كتاب الهداية الذي يقال إنه قضى في تأليفه ثلاث عشرة سنة . ولايتفق الدارسون للزرنوجي على المؤلفات أو الكتب التي تركها لنا. فبعضهم يرى أن كتاب "تعليم المتعلم طريق التعلم" هو كتابه الوحيد الذي نعرفه ووصل إلينا . والبعض الآخر يثير علامات استفهام حول ما قد يكون الزرنوجي قد تركه من مؤلفات . بل إن عدم الاتفاق يمتد إلى عنوان الكتاب نفسه. فقد يذكر على أن إسمه تعليم المتعلم طريق التعلم وهو أرجح وأشيع الآراء وقد يذكر على أن اسمه "تعليم المتعلم في طريق التعلم" أو "تعليم المتعلمين على الكمال" أو "تعليم المتعلمين لتعلم طريق التعلم" . وأخيرا وليس آخرا يختلف الباحثون والدارسون في تقويمهم للكتاب الوحيد الذي وصلنا للزرنوجي . فمنهم من يرفعه إلى السماء ويعتبره من أهم كتب التربية الإسلامية . وبعض الدارسين الأروبيين اهتم به فترجم إلى اللاتينية وطبع في ألمانيا وليبزج كما ترجم مؤخرا إلى الإنجليزية . ومنهم من يهبط به الأرض فيصفه بأنه لم يأت بجديد في العلم وأنه يهبط بأسلوبه إلى مستوى العامية وينأى عن المعالجة العلمية إلى الأوهام والأمور غير المنطقية . وأنه يعكس جمود عقلية مؤلفه وتعسفه في الرأي دون علة معقولة في بعض المواضع مما سنشير إليه فيما بعد .

آراؤه التربوية :

من الطبيعي أن يكون تعرفنا على الآراء التربوية للزرنوجي من خلال كتابه الوحيد الذي وصلنا وأشرنا إليه أكثر من مرة . وهذا الكتاب صغير الحجم إذ تقع طبعته المنشورة بمعرفة دار النهضة العربية في حوالي ٦٣ صفحة من القطع المتوسط. وهو يتكون من مقدمة وثلاثة عشر فصلا على النحو التالي :

الفصل الأول : ماهية العلم والفقه وفضلهما .

الفصل الثاني : النية في حال التعلم .

القصل الثالث : اختيار العلم والأستاذ والشريك والثبات عليه .

الفصل الرابع : تعظيم العلم وأهله .

الفصل الخامس : الجد والمواظبة والهمة .

الفصل السادس : بداية السبق وقدره وترتيبه .
الفصل السابع : التوكل .
الفصل الثامن : وقت التحصيل .
الفصل التاسع : الشفقة والنصيحة .
الفصل العاشر : الاستفادة .
الفصل الحادي عشر : الورع في حالة التعلم .
الفصل الثاني عشر : ما يورث الحفظ وما يورث النسيان .
الفصل الثالث عشر : ما يجلب الرزق وما يمنعه وما يزيد في العمر وما ينقصه .

ويتناول الزرنوجي في مقدمة كتابه الكلام عن سبب تأليفه فيقول إنه رأى كثيرا من طلاب العلم في زمانه يجبرون إلى العلم ولا يصلونه ، ومن منافعه وثمراته يحرمون وأنهم أخطأوا طرائقه وتركوا شرائطه . ولذلك أراد أن يبين لهم طريق التعلم على ما رأى في الكتب وسمع من أساتذته أولي العلم والحكم . وكل ما يطلبه الزرنوجي من جزاء على تأليفه الكتاب هو أن يدعو له الراغبون في العلم والمخلصون فيه بالفوز والخلاص في يوم الدين . ويقول إنه استخار الله في الكتاب وسماه " تعليم المتعلم طريق التعلم " . وجعله فصولا عددها وذكرها بنفس الترتيب الذي سبق أن أشرنا إليه . وسنفصل كلام الزرنوجي في هذه الفصول .

أولا ماهية العلم والفقه وفضلهما :

يفتتح الزرنوجي كلامه في الفصل الأول تحت هذا العنوان بذكر حديث النبي (ص) " طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة " . ثم يفصل شرح الحديث بقوله إنه لايفترض على كل مسلم ومسلمة طلب كل علم . وهنا يميز الزرنوجي بين ما هو فرض عين على كل مسلم أن يتعلمه مثل علوم الفقه وأصول الدين والصلاة والصوم والزكاة والحج إن وجب عليه . وكذلك البيوع إن كان يتجر ، وبين ما هو فرض كفاية يقوم به البعض نيابة عن الآخرين مثل العلوم الأخرى كالطب . ويورد ما حكي عن الإمام الشافعي رضي الله عنه قوله : العلم علمان : علم الفقه للأديان وعلم الطب للأبدان . وما وراء ذلك بلغة (أي رونق) مجلس . وهو يميز بين علوم فرض العين وفرض الكفاية بقوله بأن علم فرض العين هو ما يقع على

نفس الإنسان في جميع الأحوال . فهو بمنزلة الطعام لابد لكل واحد أن يدركه . أما علم فرض الكفاية فهو ما يقع للإنسان في بعض الأحايين وهو بمنزلة الدواء يحتاج إليه في بعض الأوقات . وإذا أردنا أن نصوغ كلام الزرنوجي بلغة عصرية نقول : إن التعليم العام وما يشتمل عليه من أساسيات الثقافة الإسلامية والعلوم العامة هو فرض عين على كل مسلم ومسلمة ، أما التعليم التخصصي والمهني في المدارس الفنية ومعاهد التعليم العالي والجامعات فهو فرض كفاية يتعلمه بعض المسلمين ويسقط عن البعض الآخر . ومن الطبيعي إذن أن يكون تعليم فرض الكفاية للقادرين عليه والمهتمين عقليا للاستفادة منه . وهناك علوم يحذر علماء المسلمين من دراستها مثل تحذير الغزالي من دراسة علوم التنجيم والفلسفة لأن الأولى شرك بالله والثانية صناعة باطلة ضرها أكثر من نفعها . والزرنوجي هنا يحرم دراسة علم النجوم لأنه بضر ولا ينفع والهرب من قضاء الله غير ممكن.

ويبدو من كلام الزرنوجي في نهاية هذا الفصل الأول أنه عازم على عدم إطالة الكلام أو تفصيله . فهو يقول في عجالة إنه قد ورد في مناقب العلم وفضائله آيات وأخبار صحيحة مشهورة لم ننشغل بذكرها كيلا يطول الكتاب .

ثانيا : النية في حال التعلم :

يقول الزرنوجي إنه لابد لطالب العلم من وجود النية لديه في تحصيل العلم . فالنية هي الأصل في جميع الأحوال لقوله ﷺ "إنما الأعمال بالنيات".وعلى المتعلم عندما يعقد العزم أو النية في طلب العمل أن يقصد به رضا الله تعالى والدار الآخرة وإزالة الجهل عن نفسه وعن سائر الجهال وإحياء الدين وإبقاء الإسلام.

ثالثا : اختيار العلم والأستاذ والشريك :

يشير الزرنوجي على طالب العلم بأن يختار من كل علم أحسنه وما يحتاج إليه في أمر دينه ودنياه في الحال والمآل . ويوصيه بعلم التوحيد لأنه يوصله إلى معرفة الله تعالى بالدليل . كما يحذره من الجدل في العلوم فإنه يبعد الطالب عن الفقه ويضيع العمر ويورث الوحشة والعداوة . أما اختيار الأستاذ فينبغي على طالب العلم أن يختار الأعلم والأورع والأسن أي الأكبر سنا . ويضرب مثالا بأبي حنيفة في اختياره لأستاذه حماد بن أبي سليمان بعد التأمل والتفكر لأنه وجده شيخا وقوراً حليما صبوراً . ويوصي الزرنوجي طالب العلم بأن يشاور غيره عند

اختيار أستاذه حتى لايحتاج إلى تركه والإعراض عنه . كما يوصيه بالصبر والثبات على الأستاذ وعلى الكتاب وعلى العلم ، وألا يشغل بفن آخر قبل أن يتقن الأول . ويورد البيتين الآتيين :

ألا لن تنال العلم إلا بستة . . . سأنبيك عن مجموعها ببيان

ذكاء وحرص واصطبار وبلغة . . . وإرشاد أستاذ وطول زمان

أما بالنسبة لاختيار الشريك فيوصي الزرنوجي المعلم باختيار المجد والورع وصاحب الطبع المستقيم والمتفهم . ويفر من الكسلان والمعطل والمكثار والمفسد والفتان . ويورد قول الشاعر :

عن المرء لا تسأل وأبصر قرينه . . . فكل قرين بالمقارن يقتدى

فإن كان ذا شر فجانبه سرعة . . . وإن كان ذا خير فقارنه تهتدي

رابعا : تعظيم العلم وأهله :

يوصي الزرنوجي طالب العلم فيقول : إعلم بأن طالب العلم لاينال العلم ولا ينتفع به إلا بتعظيم العلم وأهله وتعظيم الأستاذ وتوقيره . ويورد قول الإمام علي كرم الله وجهه : " أنا عبد من علمني حرفا واحداً إن شاء باع وإن شاء أعتق وإن شاء استرق . ويورد الزرنوجي مظاهرتوقير المعلم فيقول : ومن توقير المعلم ألا يمشى المتعلم أمامه ولا يجلس مكانه ولا يبتدئ بالكلام عنده إلا بإذنه ولايكثر الكلام عنده ولا يسأل شيئا عند ملالته . ويراعي الوقت ولايدق الباب بل يصبر حتى يخرج . . . ومن توقيره توقير أولاده ومن يتعلق به . ويقول الزرنوجي إن من تأذى منه أستاذه يحرم بركة العلم ولا ينتفع به إلا قليلا . ويتمثل بقول الشاعر :

إن المعلم والطبيب كلاهما . . . لا ينصحان إذا هما لم يكرما

فاصبر لدائك إن جفوت طبيبه . . . واقنع بجهلك إن جفوت معلما

ومن تعظيم العلم تعظيم الشركاء في طلب العلم والدرس ومن يتعلم منه أي الأستاذ . والتملق مذموم إلا في طلب العلم فإنه ينبغي أن يتملق لاستاذه وشركائه ليستفيد منهم .

ويورد الزرنوجي مبدأ تربويا هاما يتعلق بالتوجيه التعليمي للطالب أو ما

يعرف بالإرشاد الأكاديمي فيقول : وينبغي لطالب العلم ألا يختار نوع علم بنفسه بل يفوض أمره إلى أستاذه فإن الأستاذ قد حصلت له التجارب في ذلك فكان أعرف بما ينبغي لكل أحد وما يليق بطبيعته . وضرب مثلا بالإمام البخاري الذي كان قد بدأ بكتاب الصلاة على يد أستاذه محمد بن الحسن . فلما رأى أن علم الحديث أليق بطبعه وجهه إلى تعلم الحديث فصار فيه مقدما على جميع أئمة الحديث .

خامسا : الجد والمواظبة والهمة :

يقول الزرنوجي إنه لابد من الجد والمواظبة والملازمة لطالب العلم.وقد قيل من جد وجد ومن قرع الباب ولج.ولابد لطالب العلم من سهر الليالي.ويقول الشاعر :

بقدر الكد تكسب المعالي . . . ومن طلب العلا سهر الليالي

وعن أحسن أوقات تحصيل العلم يقول الزرنوجي : لابد لطالب العلم من المواظبة على الدرس والتكرار في أول الليل وآخره فإن ما بين العشاءين ووقت السحر وقت مبارك . وعلى طالب العلم أن يغتنم أيام الحداثة (ما بين سني العشرين إلى الأربعين) وعنفوان الشباب . ولا يجهد نفسه جهدا يبغضه في العلم ولا يضعف أو يتكاسل إلى درجة تصرفه عن العلم بل يستعمل الرفق والتوسط في ذلك . ولابد لطالب العلم من الهمة العالية في طلب العلم . قال أبو الطيب المتنبي :

على قدر أهل العزم تأتي العزائم . . . وتأتي على قدر الكرام المكارم

وتعظم في عين الصغير صغارها . . . وتصغر في عين العظيم العظائم

وقال رسول الله ﷺ " إن الله تعالى يحب معالي الأمور ويكره سفاسفها " . فينبغي للمتعلم أن يبعث نفسه على التحصيل والجد والمواظبة بالتأمل في فضائل العلم ، فإن العلم يبقى والمال يفنى كمال قال علي بن أبي طالب كرم الله وجهه . والعلم النافع يحصل به حسن الذكر ويبقى بعد وفاة صاحبه . أما الجاهلون فموتى قبل موتهم والعالمون وإن ماتوا فأحياء . ويقول الشاعر :

وفي الجهل قبل الموت موت لأهله . . . فأجسامهم قبل القبور قبور

ويحذر الزرنوجي المعلم من الكسل فيقول : إياك والكسل فإنه شؤم وآفة عظيمة . وهو يذكر سببين للكسل : أحدهما معنوي يرجع إلى قلة التأمل في

مناقب العلم وفضائله وتذوق لذته ، ولذلك يحث المتعلم على التأمل في فضائل العلم وتذوق لذته لأن ذلك يدفعه إلى الدرس والتحصيل والجد والمواظبة . والثاني سبب عضوي يرجع إلى كثرة البلغم والرطوبات . وهو يؤكد ذلك بقوله إن سبعين نبيا عليهم الصلاة والسلام قد أتفقوا على أن كثرة النسيان من كثرة البلغم وكثرة البلغم من كثرة شرب الماء وكثرة شرب الماء من كثرة الأكل . ولذلك يكون العلاج في نظره بتقليل الطعام وأكل الخبز اليابس وأكل قليل من الزبيب على الريق واستعمال السواك لأنه يقلل البلغم ويزيد في الحفظ والفصاحة إلى جانب أنه سنة عن النبي ﷺ . ويرى الزرنوجي أن السبيل إلى تقليل الأكل هو التأمل في منافعه وهي الصحة والعفة والإيثار . والتأمل أيضا في مضار كثرة الأكل وهي المرض وكلالة الطبع وإتلاف المال وبغض القلوب وعقاب الآخرة . فقد قيل البطنة (كثرة الطعام في البطن) تذهب الفطنة (الذكاء) كما يورد حديث النبيﷺ إذ يقول : ثلاثة يبغضهم الله تعالى من غير جرم : الأكول والبخيل والمتكبر .

سادسا : أسلوب الدرس وطريقة التعلم :

نقطة البداية في أسلوب الدرس والتعلم عند الزرنوجي هي البدء بالأشياء السهلة التي تكون أقرب إلى فهم المتعلم لأن ذلك يساعده على الفهم ويبعد عنه الملل . وهو يطالب المعلم بألا يكتب شيئا لايفهمه لأن ذلك يورث كلالة الطبع ويذهب الفطنة ويضيع الوقت ، وأن يجتهد في الفهم عن الأستاذ كما يجتهد في التأمل والتفكير وكثرة التكرار . بيد أن الزرنوجي يعلي من شأن الفهم على الحفظ . وهذه نقطة هامة . ويطالب المتعلم بألا يتهاون في الفهم وأن يجتهد فيه. كما يطالبه بالمذاكرة والمناظرة والمطارحة بالإنصاف والتأني والتأمل دون شغب أو غضب ممن يناظره أو يطارحه . فالمناظرة والمذاكرة مشاورة من أجل استخراج الصواب والوصول إليه لا من أجل قهر الخصم والتغلب عليه . ولايجوز استخدام التمويه أو الحيلة إلا إذا كان الخصم متعبا لا طالبا للحق . ويعتبر الزرنوجي عن حق أن فائدة المطارحة والمناظرة خير من التكرار . فمطارحة ساعة مع منصف سليم الطبع خير من تكرار شهر . ويضرب مثلا بالإمام أبي حنيفة الذي كان يكثر من المطارحة والمذاكرة في دكانه حين كان يعمل بزازاً (تاجر ثياب) . كما يوصي طالب العلم بأن يكون متأملا في جميع الأوقات في دقائق العلوم ويعتاد ذلك. فإنما تدرك الدقائق بالتأمل . ولهذا قيل : تأمل تدرك . ولابد لطالب العلم من

التأمل أيضا قبل الكلام حتى يكون صوابا فإن الكلام كالسهم لابد من تقويمه حتى يكون مصيبا.

وعلى طالب العلم أن يستفيد في جميع الأحوال والأوقات ومن جميع الأشخاص والعلماء . فالحكمة ضالة المؤمن أينما وجدها أخذها . كما حدثنا رسول الله ﷺ . ويرى الزرنوجي أن على طالب العلم الذي يتحتم عليه الكسب لنفقة عياله أن يكتسب وأن يحرص في نفس الوقت على المذاكرة ولا يكسل . وضرب مثلا بأبي حنيفة وأبي حفص الكبير اللذان كانا يدرسان ويكسبان قوتهما في نفس الوقت .

سابعا : التفرغ للعلم :

يقول الزرنوجي لابد لطالب العلم من التوكل فيي طلب العلم ولايهتم لأمر الرزق ولا يشغل قلبه لذلك . والتوكل على الله في أي أمر من الأمور يعتبر من تمام دين كل مسلم . قال تعالى في سورة آل عمران : " فإذا عزمت فتوكل على الله إن الله يحب المتوكلين " . والتوكل هنا غير التواكل . فالتوكل على الله يعني الاعتماد على الله مع تحمل الإنسان لمسئوليته ، أما التواكل فيعني الاعتماد على الغير مع التخلي عن المسئولية . وهذا يعني بالنسبة للتوكل أن يحتاط الإنسان للأمر ويأخذ له عدته أولا ثم يتوكل على الله . ومن هنا يعتبر التوكل إيجابيا أما التواكل فهو أمر سلبي لأنه يسلب الإنسان مسئوليته . بيد أن كلام الزرنوجي عن عدم اهتمام طالب العلم بأمر الرزق وعدم شغل قلبه به قد يبدوا متناقضا مع كلامه السابق الذي يحتم على طالب العلم الذي يعول الكسب من أجل نفقة عياله وأن يحرص في نفس الوقت على الدرس وتحصيل العلم كما في مثال أبي حنيفة . أما طالب العلم الذي لايعول فمن الضروري أن يكون له مصدر يعيش منه . وقد يكون هذا المصدر أحد والديه أو من يعوله أو من يتولى أمره من الخيرين أو مما تقدمه دور العلم لطلابها من مساعدات مالية أو عينية لإعانتهم على أمر تعليمهم .

ثامنا : وقت تحصيل العلم وزمانه :

يتمشى الزرنوجي مع غيره من علماء المسلمين في القول بأن طلب العلم وتحصيله يكون من المهد إلى اللحد أي على امتداد طول حياة الإنسان . وهذا

يعني أنه ليست هناك بداية أو نهاية محددة للتعلم عند علماء المسلمين . وهويكرر هنا ما سبق أن قاله بأن أفضل أوقات تحصيل العلم هي شرخ الشباب ووقت السحر وما بين العشاءين . ويطالب المتعلم بأن يكرس وقته وجهده للعلم والتحصيل وإذا حدث له ملل من علم انتقل لدراسة علم آخر . وهذه نقطة تربوية هامة يوصي بها التربويون المحدثون على اعتبار أن ذلك يجدد نشاط المتعلم ويرفع عنه الملل .

تاسعا : الشفقة والنصيحة :

ينبغي على صاحب العلم كما يقول الزرنوجي أن يكون مشفقا ناصحا غير حاسد . فالحسد يضر ولا ينفع . والكلام هنا يتعلق بعلاقة المعلم مع طلابه ومع الآخرين . وعليه ألا ينازع أحداً ولا يخاصمه لأنه يضيع أوقاته .وعليه أن يشتغل بمصالح نفسه لابقهر عدوه لأنه إذا قام بمصالح نفسه فإنه بذلك يقهر عدوه . ويوصيه الزرنوجي بعدم معاداة أحد وأن يتحمل المكاره لاسيما من السفهاء .

عاشرا : الاستفادة وطرقها :

يوصي الزرنوجي طالب العلم بأن يكون مستفيدا في كل وقت حتى يحصل له الفضل . أما طريق الاستفادة والسبيل إليها فتكون أولا بكتابة ما يسمع من الفوائد العلمية . وهذا يتطلب أن تكون معه أدوات الكتابة . وعليه أن يأخذ العلم من أفواه الرجال لأنهم يحفظون أحسن ما يسمعون . ويقولون أحسن ما يحفظون . وهنا يتمشى الزرنوجي مع غيره من علماء المسلمين بالقول بأن اكتساب العلم يكون أجدى بالمشافهة لا من بطون الكتب .وعلى طالب العلم أن يغتنم الشيوخ ويستفيد منهم .ونراه يكرر هنا ما سبق أن قاله من تحمل طالب العلم المشقة والمذلة في طلب العلم والتملق للأستاذ والشركاء وغيرهم للاستفادة منهم . فالتملق مذموم إلا في طلب العلم .

حادي عشر : الورع في حالة التعلم :

يقرر الزرنوجي أنه كلما كان طالب العلم ورعا كان علمه أنفع والتعلم له أيسر وفوائده أكثر . ويكون الورع بالاحتراز في الشبع وكثرة النوم وكثرة الكلام فيما لاينفع وأكل طعام السوق إن أمكن . لأن طعام السوق في نظر الزرنوجي أقرب للنجاسة والخباثة وأبعد عن ذكر الله . ولأن أبصار الفقراء تقع عليه

ولايقدرون على الشراء منه فيتأذون . لذلك فتذهب بركته . وعلى طالب العلم ألا يتهاون بالآداب والسنن ، فإن من تهاون بالآداب حرم السنن ومن تهاون بالسنن حرم الفرائض ومن تهاون بالفرائض حرم الآخرة .وينبغي أن يكثر من الصلاة وأن يصلي صلاة الخاشعين فإن ذلك عون له على العلم والتحصيل .

ثاني عشر: ما يورث الحفظ والنسيان :

يذكر الزرنوجي أن من أقوى أسباب الحفظ الجد والمواظبة وتقليل الغذاء وصلاة الليل (تطوعا كالتهجد) وقراءة القرآن . ومن أسباب الحفظ أيضا استخدام السواك وشرب العسل وأكل الكندر (اللبان) مع السكر وأكل إحدى وعشرين زبيبة حمراء كل يوم على الريق . كما أن هذه تشفي من كثير من الأمراض والأسقام . وهو يكرر هنا مرة أخرى ما سبق أن قاله من أن تقليل البلغم والرطوبات يزيد في الحفظ .وكل ما يزيد في البلغم يورث النسيان . ومن الأسباب الأخرى التي تورث النسيان المعاصي وكثرة الذنوب والهموم والأحزان في أمور الدنيا وكثرة الأشغال والعلائق . ويورد الزرنوجي أهم أسباب نسيان العلم فيذكر منها أكل الكزيرة الرطبة والتفاح الحامض والنظر إلى المصلوب وقراءة ألواح القبور والمرور بين قطار الجمال وإلقاء القمل الحي على الأرض والحجامة على نظرة القفا (أي حفرتها) وربما أن هذه الأمور هي من معتقدات القدماء من الناحية الروحية إلا أنها لاتستند إلى أساس علمي يبررها .

ثالث عشر: ما يجلب الرزق وما يزيد في العمر :

يقول الزرنوجي إنه لابد لطالب العلم من القوت ومعرفة مايزيد في العمر والصحة ليتفرغ لطلب العلم . ويورد حديثا عن النبي ﷺ يقول فيه " لايرد القدر إلا الدعاء ولايزيد في العمر إلا البر فإن الرجل ليحرم الرزق بالذنب يصيبه . ويقول إنه قد ثبت بهذا الحديث أن ارتكاب الذنب سبب حرمان الرزق خصوصا الكذب فإنه يورث الفقر . كما أن نوم الصبحة (وقت الصبح) يمنع الرزق وكثرته تورث الفقر وفقر العلم أيضا . ويذكر أسبابا أخرى تورث الفقر منها الإسراف والكسل والتواني والتهاون في الأمور . ويذكر أسبابا أخرى كثيرة هي أقرب إلى الخرافة وما لايقره دين ولايقبله عقل أو علم (أنظر الزرنوجي : ص ٦٠) . ولذلك عرضنا عن ذكرها .

والبكور عنده كما عند غيره من علماء المسلمين مبارك وهو يزيد في جميع النعم خصوصا في الرزق . وقد قيل البركة في البكور . كما أن حسن الحظ من مفاتيح الرزق وبسط الوجه وطيب الكلام يزيد في الحفظ والرزق . وينصح الزرنوجي طالب العلم بألا يتكلم بكلام لغو غير مفيد لدينه ودنياه . ويذكر قول سيدنا على كرم الله وجهه إذا تم العقل نقص الكلام . ومما يزيد في الرزق عند الزرنوجي كثرة الدعاء والاستغفار والشكر وصلة الرحم . وأخيرا وليس آخراً يطالب الزرنوجي طالب العلم بأن يتعلم شيئا من الطب ويتبرك بالآثار الواردة في الطب ويشير إلى الكتاب الذي جمعه الشيخ الإمام أبو العباس المستغفري رضي الله عنه المسمى " طب النبي ﷺ " .

٦ - ابن خلدون وآراؤه التربوية

(٧٣٢-٨٠٨هـ = ١٣٢٢-١٤٠٦م)

يعتبر ابن خلدون من أئمة علماء العرب ومن أشهر علماء المسلمين الذين تعدت شهرتهم حدود بلادهم وطوقت الآفاق . وقد ولد عبد الرحمن بن خلدون سنة ٧٣٢ هـ / ١٣٢٢م في تونس وتوفي ٨٠٨ هـ / ١٤٠٦م في القاهرة . ودرس العلم وحصله على أيدي علماء كثيرين . وإلى جانب اشتغاله بالعلم اشتغل بالسياسة وخاض غمارها . وجرب المصائب والمؤامرات والحروب . وكان لايستقر في مكان واحد . فقد أمضى ما يقرب من ثلث حياته في تونس وثلث آخر في المغرب والأندلس وثلث ثالثة في الشام والحجاز ومصر . وقد وصف مصر بأنها " حاضرة الدنيا وبستان العالم ومحشر الأمم ومدرج الذر من البشر وإيوان الإسلام وكرسي الملك " . وتقلد بعض الوظائف من بينها خطة المظالم أي القضاء . وصار وزيرا وسفيرا وخطيبا ومدرسا . ودرس بالجامع الأزهر . وسافر بعدها لأداء فريضة الحج .وعاد إلى القاهرة وتولى منصبه الذي كان يشغله المالكي من قبل وهو القضاء الذي تولاه في مصر أكثر من مرة .

وقد نشأ ابن خلدون في أسرة جمعت بين العلم والرياسة والسلطان . فقد تولت في تونس مراتب عليا في الدولة . وشاركت في الكثير من حروبها دون أن تنقطع صلتها بالعلم والأدب . وفي ظل هذه البيئة العائلية كما يقول ساطع الحصري تولد في نفسه نزعتان قويتان : حب المنصب والجاه من ناحية ، وحب

الدرس والعلم من ناحية أخرى . وقد كانت حياة ابن خلدون مليئة بالهموم . فقد أهلك أبويه الطاعون الجارف الذي اكتسح وطنه وقضى على الكثير من العلماء والشيوخ . وكان عمر ابن خلدون آنذاك ١٧ عاما . وهكذا حرم من والديه وهو في ريعان الشباب . ولم يعرف الاستقرار طول حياته . فقد كانت مليئة بالقلاقل. وكانت أشد صدمة عليه ما حدث لزوجته وولدانه عندما كانوا في طريقهم إليه من المغرب إلى القاهرة فغرقت بهم السفينة ولم ينج منهم إلا ولداه . حدث ذلك في وقت كان فيه ابن خلدون لايحسد عليه . وفي ذلك يقول : « ووافق ذلك مصابي بالأهل والولد . وصلوا من المغرب في السفن (السفينة) فأصابها قاصف من الريح فغرقت وذهب الموجود والسكن والمولود . فعظم المصاب والجزع ورجع الزهد » .

ولابن خلدون مؤلف معروف بعنوان كبير وهو كتاب " العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر " . وهو في سبعة أجزاء أشهرها الجزء الأكبر الذي يعرف بالمقدمة . وهي مقدمة ضخمة عظيمة الشأن حوت كثيرا من العلوم . وتكلم فيها عن الحضارة والعمران وكل ما يرتبط بهما من سلطان . وكانت هذه المقدمة منهلا لطلاب العلم في كل فن . وعرض فيها لكل أنواع العلوم المعروفة في عصره .وعرض فيها للعلوم والتعليم في الأمصار الإسلامية ولآرائه في التربية والتعليم .

آراؤه التربوية :

الواقع أن كثيرا من الآراء التربوية التي عبر عنها ابن خلدون وردت عند من سبقوه في الكلام عن هذا الموضوع من أمثال ابن سحنون والقابسي والزرنوجي والغزالي وغيرهم . وسنعرض في السطور التالية لأهم آرائه في التربية .

علوم القدماء : يقول ابن خلدون (المقدمة : ص ٣٨) عن علوم القدماء إن " ما لم يصل إلينا منها أكثر مما وصل ، فأين علوم الفرس والكلدانيين والسريانيين وأهل بابل والقبط ومن قبلهم "؟ . وهو يستثني من هذه الأمم القديمة أهل اليونان فيقول : " وإنما وصل إلينا علوم أمة واحدة وهم يونان خاصة لكلف المأمون بإخراجها من لغتهم واقتداره على ذلك بكثرة المترجمين وبذل الأموال فيها . ولم نقف على شيء من علوم غيرهم " .

وهذا يعني أن ابن خلدون كان يعرف بوجود علوم اليونان وأنه من الطبيعي أن يكون قد قرأها واطلع عليها بدليل أنه يشير إليها وإلى علمائها وفلاسفتها في مقدمته . كما أن كلامه في أول الباب الأول من الكتاب الأول (ص ص ٤١ - ٤٢) عن العمران البشري والإنسان مدني بالطبع والاجتماع الإنساني وضرورته يتشابه إلى حد كبير مع ما يورده أبو الحسن العامري نقلا عن أفلاطون وأرسطو في نفس الموضوع (أنظر العامري : ص ص ٢٥٦ - ٢٥٧).

كلمة التربية :

وردت كلمة التربية عند ابن خلدون مرة واحدة في كلامه في الفصل (٣٤ ص٢٣٥) عن مراتب الملل والسلطان وألقابها يقول :

« إن الاستعانة إذا كانت بأولي القربى من أهل النسب أو التربية أو الإصطناع القديم للدولة كانت أكمل لما يقع ذلك من مجانسة خلقهم لخلقه فتتم المشاكلة في الاستعانة . قال تعالى « واجعل لي وزيرا من أهلى هارون أخي أشدد به أزري وأشركه في أمرى » . وواضح أن المقصود بالتربية هنا معناها اللغوي العام دون الدخول في معناها الإصطلاحي الذي نقصده عادة .

العلم والتعليم طبيعي في العمران البشري :

يقرر ابن خلدون أن العلم والتعليم طبيعي في العمران البشري . ذلك لأن الإنسان يتميز عن الحيوانات بالفكر الذي يهتدي به لتحصيل معاشه والتعاون عليه بأبناء جنسه والاجتماع المهيئ لذلك التعاون وقبول ما جاءت به الأنبياء عن الله تعالى والعمل به واتباع صلاح أخراه . فهو مفكر في ذلك كله دائما لايفتر عن الفكر فيه طرفة عين بل اختلاج الفكر أسرع في لمح البصر . وعن هذا الفكر تنشأ العلوم وما قدمناه من الصنائع . وهو يقرر في فصل آخر أن الصنائع تكمل العمران الحضري وكثرته وأن العلوم تكثر حيث يكثر العمران وتعظم الحضارة .

الرحلة في طلب العلم :

يقرر ابن خلدون أن الرحلة في طلب العلم مفيدة ولابد منها لما فيها من اكتساب الفوائد والكمال بلقاء المشايخ ومعاشرة الرجال وقد أشرنا إلى تفصيل كلامه عن ذلك في موضع سابق .

القرآن أصل التعليم :

ذهب ابن خلدون كسابقيه إلى القول بأن القرآن هو أول العلوم التي يتعلمها الصبي . فالقرآن أصل التعليم الذي ينبني عليه ما يحصل من الملكات .

اختلاف الأمصار الإسلامية في تعليم القرآن :

يقارن ابن خلدون بين الأمصار الإسلامية في تعليم القرآن واختلافهم باعتبار ما ينشأ عن ذلك التعليم من الملكات فيقول (المقدمة ص ص ٥٣٨-٥٣٩) :

« فأما أهل المغرب فمذهبهم في الولدان الإقتصار على تعليم القرآن فقط . وأخذهم أثناء المدارسة بالرسم ومسائله واختلاف حملة القرآن فيه . لايخلطون ذلك بسواه في شيئ من مجالس تعليمهم . لامن حديث ولامن فقه ولا من شعر ولامن كلام العرب ، إلى أن يحذق فيه أو ينقطع دونه . فيكون انقطاعه في الغالب انقطاعا عن العلم بالجملة . أما أهل الأندلس فمذهبهم تعليم القرآن والكتاب من حيث هو * وهذا هو الذي يراعونه في التعليم . إلا أنه لما كان القرآن أصل ذلك وأسه ، ومنبع الدين والعلوم جعلوه أصلا في التعليم . فلا يقتصرون لذلك عليه فقط ، بل يخلطون في تعليمهم للولدان رواية الشعر في الغالب والترسل وأخذهم بقوانين العربية وحفظها وتجويد الخط والكتاب . ولاتختص عنايتهم في التعليم بالقرآن دون هذه بل عنايتهم فيه بالخط أكثر من جميعها إلى أن يخرج الولد من عمر البلوغ إلى الشبية . وأما أهل أفريقية فيخلطون في تعليمهم للولدان القرآن بالحديث في الغالب . ومدارسة قوانين العلوم وتلقين بعض مسائلها إلا أن عنايتهم بالقرآن واستظهار لولدان إياه ووقوفهم على اختلاف رواياته وقراءاته أكثر مما سواه . وعنايتهم بالخط تبع لذلك . وبالجملة فطريقهم في يتعليم القرآن أقرب إلى طريقة أهل الأندلس . لأن سند طريقتهم في ذلك متصل بمشايخ الأندلس الذين رحلوا عند تغلب النصارى على شرق الأندلس واستقروا بتونس وعنهم أخذ ولدانهم بعد ذلك . وأما أهل المشرق فيخلطون في التعليم كذلك على ما يبلغنا . ولاأدري بم عنايتهم منها . والذي ينقل لنا أن عنايتهم بدراسة القرآن

---

* أي يعملونهم الكتابة من حيث هي على الإطلاق لارسم المصحف فقط واختلاف حملة القرآن فيه كما يفعل أهل المغرب .

صحف العلم وقوانينه ومعلمون له على إنفراده . كما تتعلم سائر الصنائع ويتداولونها في مكاتب الصبيان . وإذا كتبوا لهم الألواح فبخط قاصر عن الإجادة . ومن آراد تعلم الخط فعلى قدر ما يسمح له بعد ذلك من الهمة في طلبه ويبتغيه من أهل صنعته .

تقديم تعليم العربية وتأخير تعليم القرآن : (طريقة ابن العربي)

يشير ابن خلدون إلى طريقة ابن العربي في تقديم تعليم العربية والشعر على سائر العلوم وتأخير البدء بتعليم القرآن بعد أن يكون المتعلم قد تعلم العربية وهي وسيلته في فهم القرآن . ويقول ابن خلدون في تفصيل هذه الطريقة (ص ٥٣٩):

« لقد ذهب القاضي أبو بكر بن العربي في كتاب رحلته إلى طريقة غريبة في وجه التعليم . وأعاد في ذلك وأبدأ، وقدم تعليم العربية والشعر على سائر العلوم كما هو مذهب الأندلس . قال : " لأن الشعر ديوان العرب " . . . ثم ينتقل منه إلى الحساب فيتمرن فيه حتى يرى القوانين . ثم ينتقل إلى درس القرآن فإنه يتيسر عليه بهذه المقدمة » . ثم قال : « ويا غفلة أهل بلادنا في أن يؤخذ الصبي بكتاب الله في أول أمره . يقرأ ما لا يفهم وينصب في أمر غيره أهم عليه » . ثم قال : « ينظر في أصول الدين ثم أصول الفقه ثم الجدل ثم الحديث وعلومه » . ونهى مع ذلك أن يخلط بين تعليم علمين إلا أن يكون المتعلم قابلا لذلك بجودة الفهم والنشاط .

ويمتدح ابن خلدون هذه الطريقة ويعتبرها مذهبا حسنا في التعليم لكنه يستدرك فيقول إن العادات المتبعة في التعليم لاتساعد على إتباع هذه الطريقة والأخذ بها وذلك لأن العرف درج على البدء بتعليم القرآن . وفي تفسير ذلك يقول (ص ٥٣٩ - ٥٤٠) :

« ووجه ما اختصت به العوائد من تقدم دراسة القرآن إيثارا للتبرك والثواب وخشية ما يعرض للولد في جنون الصبا من الأوقات والقواطع عن العلم فيفوته القرآن . ولو حصل اليقين باستمراره في طلب العلم وقبوله التعليم لكان هذا المذهب الذي ذكره القاضي أولى مما أخذ به أهل المغرب والمشرق ولكن الله يحكم ما يشاء لا معقب لحكمه سبحانه » .

تعليم اللغة أساس لتعليم سائر الفنون :

اعتبر ابن خلدون تعليم اللغة أساسا لتعليم سائر الفنون . وهذا صحيح . لكنه قال إن اللغة الدارجة أهون على التعبير . ولذا نصح بتعليم اللغات الدارجة إلى جانب اللغة العربية . وهو رأي غريب لايمكن أن نوافقه عليه لما يؤدي ذلك إلى التقليل من شأن اللغة العربية التي تعتبر الرباط الثقافي والفكري لكل البلاد العربية . وكلما ارتقى الشعب العربي في مدارج التحدث باللغة العربية قلت أهمية اللهجات الدارجة وزاد التقارب الفكري والثقافي بين العرب بل وبين المسلمين .

تعليم اللسان العربي :

يؤكد ابن خلدون في تعليم اللسان العربي على كثرة حفظ كلام العرب وأشعارهم والتمرن على النسج على منوالهم حتى يصبح اللسان العربي سليقة . يقول ابن خلدون : « ووجه التعليم لمن يبتغي هذه الملكة (ملكة اللسان العربي). ويروم تحصيلها أن يأخذ نفسه بحفظ كلامهم القديم الجاري على أساليبهم من القرآن والحديث وكلام السلف ومخاطبات فحول العرب في أسجاعهم وأشعارهم وكلمات المولدين أيضا في سائر فنونهم ، حتى يتنزل لكثرة حفظه لكلامهم من المنظوم والمنثور منزلة من نشأ بينهم ، ولقن العبارة عن المقاصد منهم . ثم يتصرف بعد ذلك في التعبير عما في ضميره على حسب عبارتهم ، وتأليف كلماتهم . وما وعاه وحفظه من أساليبهم وترتيب ألفاظهم . فتحصل له هذه الملكة بهذا الحفظ والاستعمال . ويزداد بكثرتها رسوخا وقوة » . ويشير ابن خلدون إلى أن مجرد معرفة قوانين النحو والإعراب لاتكون ملكة اللسان العربي . ويشرح ذلك فيقول : « فإن العلم بقوانين الإعراب إنما هو علم بكيفية العمل وليس هو نفس العمل . ولذلك نجد كثيرا من جهابذة النحاة والمهرة في صناعة العربية المحيطين علما بتلك القوانين إذ سئل في كتابة سطرين إلى أخيه أو ذي مودته أو شكوى ظلامة أو قصد من قصوده أخطأ فيها عن الصواب وأكثر من اللحن . ولم يجد تأليف الكلام لذلك والعبارة عن المقصود على أساليب اللسان العربي . وكذا نجد كثيرا ممن يحسن هذه الملكة ويجيد الفنين من المنظور والمنثور وهو لايحسن إعراب الفاعل من المفعول ، ولا المرفوع من المجرور ولاشيئا من قوانين صناعة العربية».

ويقارن بين أهل الأندلس وأهل المغرب في تعليم اللسان العربي فيقول : « أهل صناعة العربية بالأندلس ومعلموها أقرب إلى تحصيل هذه الملكة وتعليمها من سواهم لقيامهم فيها على شواهد العرب وأمثالهم ، والتفقه في كثير من التراكيب في مجالس تعليمهم . فيسبق إلى المبتدئ كثير من الملكة أثناء التعليم فتنقطع النفس لها وتستعد إلى تحصلها وقبولها .وأما من سواهم من أهل المغرب وأفريقية وغيرهم فأجروا صناعة العربية مجرى العلوم بحثا . وقطعوا النظر عن التفقه في تراكيب كلام العرب إلا أن أعربوا شاهدا أو رجحوا مذهبا من جهة الإقتضاء الذهني لا من جهة محامل اللسان وتراكيبه . فأصبحت صناعة العربية كأنها من جملة قوانين المنطق العقلية أو الجدل . وبعدت عن مناحي اللسان وملكته . وما ذلك إلا لعدولهم عن البحث في شواهد اللسان وتراكيبه وتمييز أساليبه وغفلتهم عن المران في ذلك للمتعلم . فهو أحسن ما تفيده الملكة في اللسان » . وقد امتدح كتاب سيبويه لأنه لم يقتصر على قوانين الإعراب فقط بل لأنه مملوء بأمثال العرب وأشعارهم . كما امتدح طريقة أهل الأندلس التي أشرنا إليها لأنها أقرب إلى تعليم هذه الملكة من اهتمام بكلام العرب وأشعارهم وأمثالهم .

الفلسفة صناعة باطلة : اعتبر ابن خلدون الفلسفة صناعة باطلة لأن الفلاسفة يزعمون أنهم يعرفون كل شيء والعالم أوسع من أن يحاط به .

سمو التعليم النظري : ردد ابن خلدون ما ذهب إليه أفلاطون من سمو تدريب العقل على الجسم . فاعتبر ابن خلدون التعليم النظري أرقى من تعليم الفنون العملية . لأن التعليم النظري يقوم على العقل . وهو رأي وإن ساد الفكر التربوي ردحا من الزمن إلا أنه بمعايير الفكر التربوي المعاصر لايمكن قبوله .

التعليم في الصغر أشد رسوخا : يردد ابن خلدون ما قاله الغزالي وغيره من المربين المسلمين من أن التعليم في الصغر أشد رسوخا وأنه أصل لما بعده .

الشدة مضرة بالمتعلمين : يكرر ابن خلدون ما أكده سابقوه من الرفقة بالمتعلم. لأن الشدة مضرة به . وقد بين ضرر الشدة على المتعلم وما يترتب عليه من آثار ضارة فتسلمه إلى التبلد والكذب والخبث . ويقول ابن خلدون :

« ومن أحسن مذاهب التعليم ما تقدم به الرشيد لمعلم ولده محمد الأمين : "يامحمد إن أمير المؤمنين قد دفع إليك مهجة نفسه وثمرة قلبه . فصارت يدك

عليه مبسوطة . وطاعته لك واجبة . فكن له حيث وضعك أمير المؤمنين . وأقرئه القرآن وعرفه الأخبار ، وروه الأشعار ، وعلمه السنن ، وبصره بمواقع الكلام وبدئه، وامنعه من الضحك إلا في أوقاته ، وخذه بتعظيم مشايخ بني هاشم إذا دخلوا عليه ، ورفع مجالس القواد إذا حضروا مجلسه ، ولاتمرر بك ساعة إلا وأنت مغتنم فائدة تفيده إياها ، من غير أن تحزنه فتميت ذهنه ، ولاتمعن في مسامحته فيستحلى الفراغ ويألفه . وقومه ما استطعت بالقرب والملاينة فإن أباهما فعليك بالشدة والغلظة » .

التدرج في التعليم : نادى ابن خلدون بما نادى به سابقوه من مراعاة التدرج في تعليم الصبيان ومراعاة قدراتهم . إلا أنه يتميز عن سابقيه فيما ذهب إليه بالقول بمبدأ التكرارات الثلاثة في عملية التعليم . وتشير هذه التكرارات إلى ثلاث مراحل متدرجة في التعليم . يكون التعليم في المرحلة الأولى إجمالا وفي الثانية تفصيلا وفي الثالثة تعميقا بدراسة ما استشكل في العلم ووسائل الخلاف فيه . ويقول ابن خلدون في ذلك :

« إن تلقين العلوم للمتعلمين إنما يكون مفيدا إذا كان على التدريج شيئا فشيئا وقليلا قليلا . يلقى عليه أولا مسائل من كل باب من الفن هي أصول ذلك الباب . ويقرب له في شرحها على سبيل الإجمال . ويراعى في ذلك قوة عقله واستعداده لقبول ما يرد عليه حتى ينتهي إلى آخر الفن . وعند ذلك يحصل له ملكة في ذلك العلم إلا أنها جزئية وضعيفة . وغايتها أنها هيأته لفهم الفن وتحصيل مسائله . ثم يرجع به إلى الفن ثانية فيرفعه في التلقين عن تلك الرتبة إلى أعلى منها . ويستوفي في الشرح والبيان . ويخرج عن الإجمال . ويذكر له ما هنالك من الخلاف ووجهه إلى أن ينتهي إلى آخر الفن فتجود ملكته . ثم يرجع به وقد شدا فلا يترك عويصا ولامبهما ولامغلقا إلا وضحه وفتح له مقفله . فيخلص من الفن وقد استولى على ملكته . هذا وجه التعليم المفيد وهوكما رأيت إنما يحصل في ثلاث تكرارات . وقد يحصل للبعض في أقل من ذلك بحسب ما يخلق له ولايتيسر عليه » .

ويعيب ابن خلدون على المعلمين الذين يجهلون الطريقة الصحيحة للتعليم وأنهم يقدمون للمتعلم في أول عهده بالتعليم المسائل الصعبة أو المشكلة مما يعوق تعليميه . يقول ابن خلدون :

« وقد شاهدنا كثيرا من المعلمين لهذا العهد الذي أدركنا يجهلون طرق التعليم وإفادته . ويحضرون للمتعلم في أول تعليمه المسائل المقفلة من العلم ويطالبونه بإحضار ذهنه في حلها . ويحسبون ذلك مرانا على التعليم وصوابا فيه. فإن قبول العلم والاستعدادات لفهمه تنشأ تدريجيا . ويكون المتعلم في أول الأمر عاجزا عن الفهم بالجملة إلا في الأقل وعلى سبيل التقريب والإجمال وبالأمثلة الحسية » .

عدم إطالة الفواصل الزمنية بين الدروس : نادى ابن خلدون بعدم إطالة الفواصل الزمنية بين دروس العلم الواحد حتى لاينسى المتعلم ما سبق أن درسه .

الاختصارات في العلوم مخلة بالتعليم :من الإشارة التربوية الهامة لدى ابن خلدون أيضا قوله بأن الاختصارات المؤلفة في العلوم تعتبر في نظره مخلة بالتعليم . وهي نظرة سليمة منه لما يترتب على هذه الاختصارات من إخلال بالعلم.

التعليم يكون بالمحاورة لا الحفظ : يؤكد ابن خلدون أن الطريقة الصحيحة في التعليم هي التي تهتم بالفهم والوعي والمناقشة لا الحفظ الأعمى عن ظهر قلب. ويشير إلى أن " ملكة العلم " إنما تحصل بالمحاورة والمناظرة والمفارضة في مواضيع العلم . وهو يعيب طريقة الحفظ عن ظهر قلب . ويعتبرها مسئولة عن تكوين أفراد ضيقي الأفق عقيمي التفكير لايفقهون شيئا ذي بال في العلم . وهو يشير في ذلك إلى الطريقة التي اتبعت في المغرب فيقول في المقدمة :

« وبقيت فاس وسائر أقطار المغرب خلوا من حسن التعليم من لدن إنقراض تعليم قرطبة والقيروان . ولم يتصل سند التعليم فيهم ، فعسر عليهم حصول الملكة والحذق في العلوم . وأيسر طرق هذه الملكة فتق اللسان بالمحاورة والمناظرة في المسائل العلمية . فهو الذي يقرب شأنها ويحصل مرامها . فنجد طالب العلم منهم بعد ذهاب الكثير من أعمارهم في ملازمة المجالس العلمية سكوتا لايفاوضون وعنايتهم بالحفظ أكثر من الحاجة . فلا يحصلون على طائل من التصرف في العلم والتعلم . ثم بعد تحصيل من يرى منهم أنه قد حصل تجد ملكته قاصرة في عمله إن فاوض أو ناظر أو علم . وما أتاهم القصور إلا من قبيل رداءة طريقة التعليم وانقطاع سنده . وإلا فحفظهم أبلغ من حفظ سواهم لشدة عنايتهم به . وظنهم أنه المقصود من الملكة العلمية ، وليس كذلك . ومما

يشهد بذلك في المغرب أن المدة المعينة لسكنى طلبة العلم بالمدارس عندهم ستة عشر سنة وهي بتونس خمس سنين . وهذه المدة بالمدارس على المتعارف هو أقل ما يأتي فيها طالب العلم حصول مبتغاه من الملكة العلمية أو اليأس من تحصيلها . فطال أمدها في المغرب لهذه المدة لأجل عسرها من قلة الجودة في التعليم خاصة لامما سوى ذلك » .

وقد تردد هذا القول في القرن العشرين لدى بعض الباحثين الغربيين الذين قاموا بدراسة التعليم الحديث في المغرب وذهبوا إلى القول بأن الطفل المغربي بعد دراسته الأولى في المدارس القرآنية يذهب إلى المدرسة العامة الحديثة وهو يتمتع بقدة فائقة على التذكر تنطفئ معها قدرته على التخيل والتصور والتفكير الناقد . (Wagner : 1978)

والواقع أن المربين المسلمين قد اهتموا بأسلوب المناظرة والحوار في التدريس واعتبروه مفضلا مجديا في التعليم . ويقول الزرنوجي إن قضاء ساعة واحدة في المناقشة والمناظرة أجدي على المتعلم من قضاء شهر بأكمله في الحفظ والتكرار . وقد احتاط المربون المسلمون من سوء استخدام أسلوب المناظرة والحوار بأن وضعوا بعض الشروط التي تجعل منه أسلوبا فعالا للتعلم والبحث العلمي . من أهمها أن يكون هدف المناظرة الوصول إلى الحقيقة لا التضليل وحب الانتصار بالباطل . كما يشترط في المتناظرين الإلمام بموضوع المناظرة . والتحلي بالهدوء وسعة الصدر وعدم التكلف وغيرة الصدر . ومع أن أسلوب المناظرة هو أقرب إلى الدراسات العالية فإننا نجد صورة مبسطة منه في أسلوب الحوار أو النقاش الذي يديره المعلم مع تلاميذه ليحفزهم على التفكير .